السماق

فرياد ابراهيم



رواية





السمّاق

فرياد إبراهيم

الكتاب : السمّاق (رواية)

المؤلف : فرياد إبراهيم

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٦٥٩٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 195 - 6

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى المقطم - القاهرة

ت/فاكس: ٠٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



السُّمّاق

رواية

فرياد إبراهيم

(١)

ارتديتُ قميصي الخفيف الأحمر وبنطالي الأزرق، والتقطتُ حذائي الأسود، وهبطتُ هكذا السلم بلا إحداث أي صوتٍ خشيَّة إيقاظ أفراد أسرتي النائمين تحت المراوح الكهربائية: أبواي في غرفة الجلوس وأختي في غرفتها المحاذية، وفي أسفل السلم عرجتُ يمينًا سالكًا الطريق الآمن للخروج.. طريق الممر - الدهليز الضيق تحت السلم ثم المطبخ ثم البوابة الكبيرة الزرقاء - هناك ارتديتُ حذائي وفتحتُ الباب برفقٍ بالغ، وحالما وضعتُ قدميّ على الشارع تنفستُ الصعداء.

الحرُّ كان خانقًا، والشمس الصفراء تلهب الأرض، شعرتُ بالإسفلت يغور قليلًا تحت أقدامي، فقد فقدتُ صلابتها تحت قسوة الشمس ولانت تحت ضرباتها اللاسعة، مضيتُ رغم ذلك في طريقي مارًا أمام بيت صديقي، التفت يسارًا فكانت الأبواب والشبابيك موصدة والستائر مسدلة، اجتزتُ الباب ووصلتُ المنعطف وحينها رفعتُ رأسي، ومن هناك لاح لي صديقي بسرواله العريض باهت اللون وابتسامته العريضة وشعره الأصفر الفاتح المائل إلى الحمرة أو الشقرة، كان ينتظرني كعادته تحت سقيفة العم عبد الله البقال بائع الخضر والقرطاسية، سلمتُ عليه وسلَّمتُ على البقال الذي أطلّ برأسه من وراء زجاج الواجهة الأمامية:

- ها هما الطائران اللعوبان.

كان يقصد هيكل جيكل، ضحكتُ في وجهه بكل لطفٍ واحترام، وبإشارة من صديقي خطونا إلى الشارع العريض، كان الشارع عريضًا وقصيرًا، وهكذا بدأ يوم جديد من أيام عطلتنا الصيفية المملة الطويلة، مسح عرق جبينه بيده وقال متبرمًا:
- أظن اليوم أحرّ من البارحة؟

قلتُ له متفحصًا قطرات العرق من على جبينه الضيق:
- هل انتظرتني طويلًا هيكل؟
- لا جيكل؟

هذه التسمية كانت من اختراع العجوز البقال، وانتشرت بسرعة في الشارع، وكنا نسمع بعض الناس يتهامسون عند مرورنا بهم.
- نفتخر أصبحنا مشهورين. (قال لي صاحبي برضاء وهزء)

لم يكن هناك أي أحد في الشارع لا رجال ولا نساء، ثمة أطفال حفاة في الحقول المجاورة كانوا يتراكضون ويلعبون ويصرخون.
كان الشارع يمر بين صفين من البيوت متطابقة التصميم والبناء في حيٍ راقٍ بل من أرقى الأحياء السكنية في مدينة أربيل الواقعة شمال العراق، أي: كردستان العراق، وكانت على جهة اليسار أراضي عراء شاسعة سهلة لا تنبت فيها سوى الأعشاب البرية والأشواك، ومن ورائها امتدت حقول أخرى حيث بساتين الخضر البطيخ والرقي والخيار، وحقول الحنطة والشعير، وفي وسط هذه الحقول ارتفعت أعمدة الكهرباء الهائلة العالية مخروطية الشكل.
- من أنت؟ (سألته مداعبًا)
-أنا هيكل..

أجاب لاعنًا الحرّ والعرق، ثم سأل:
ـ وأنت؟
قلتُ:
ـ أنا جيكل، ماداموا سمونا بذلك.. فلماذا لا نغامر؟.
صفق بيديه الصغيرتين وهتف بصوته الرخيم:
ـ انشب منقارك هذه المرة في كوفية العم عبدالله.

في الحقيقة لم تكن هناك قواسم مشتركة كثيرة بيننا، هو القصير وأنا الطويل، هو في ملابس تقليدية كردية وأنا في الملابس الرسمية أو ما سميت شعبيًا بملابس الأفندية، ولكن رغم ذلك فقد كانت التسمية مناسبة، ومغامراتنا وجولاتنا ونزهاتنا اليومية وملاحقاتنا مطارداتنا لفتيات الحارة والطالبات تعزز من صحة التسمية.

قلتُ لصاحبي:
ـ هل ترى كائنًا حيًا غير الطيور خارج أوكارها في هذه الساعة من نهار الصيف؟
قطع حديثي على عجلٍ:
ـ دعكَ من هذا فهناك مواضيع أهم.

عرفتُ ماذا يقصد من ابتسامته الباهتة، قلتُ له وأنا اتباطأ في السير كي يلحق بي، فقد كنتُ دائمًا أتقدم عليه بنصف خطوة:
ـ اسمع إذًا..

ماذا أقول عن صدرها؟

باكورة فجر يوم ربيعي

أو ثلج هطل في أول ليلة شتاء

نـهدان يضارعان رمانتين متدليتين من الشجرة
زهرتان بفم الرمانة كحبات الرمان في اللون والشكل
تستقر عليهما قطرات العرق كحبات اللؤلؤ

نظرتُ إلى وجهه جانبيًا، فرأيت منخريه يرتعشان ارتعاشة خفيفة، فعلِمتُ أنه بلغ غايته، كان هذا ما يحدث لصديقي بعد تلاوتي لمثل هذه الأبيات من الغزل المكشوف عليه، وخاصةً أشعار الشاعر الكردي الملقب بـ (أدب، أو مصباح الديوان) لقد كنا كلانا مغرمين بأشعاره في الغزل والحب والوصف الإباحي، وصفه المكشوف لبدن ومفاتن المرأة بكل جرأة ولا خجل، ومن جميع أشعاره اخترتُ خماسيته التي يصف فيها عروسته ليلة الزفاف وانتقالها إليه (أي ما يسمى: ليلة الدخلة) وصفًا ما سمعنا بمثله أبدًا.

وكزتُ مرفقه بمرفقي، وقلتُ لصاحبي الذي كان ينظر إلى الأمام في شرود:

- ها.. ماذا تقول؟.

أجاب يلوك فمه كمَنْ يمص أجاصة:

- يجنن..

ثم مترجيًا:

- أعد رجاءً.

وأعدتُ عليه قراءة النص، وبعد انتهائي تنهد بل أنَّ أنينًا كأنه من الألم والحسرة، ثم وهو يردد كلمات مما سمع:

- نهد رمان.. لابد أن يكون هذا الرمان من أشهى أصناف الرمان، لا هو بالصلب ولا هو باللين بل بين بين.

ورغم الفوارق في السُبل، فقد اتحدنا في الهدف، كنتُ فخورًا لغلبتي وتفوقي عليه في حفظ الشعر، وكنتُ أفرح كثيرًا عندما ينال مقطع من الأشعار إعجابه الشديد، امتلأ زهوًّا وفخارًا، كان يمتلك ذاكرة فقيرة ضعيفة، حاولتُ معه عشر دقائق يومًا لحفظ بيتين نساهما عند أول منعطف وصلنا إليه.

قال لي بعد فوات لحظات من الصمت، وأقدامنا تقرع الإسفلت الساخن:

- لم نرَ اليوم أيَّة فتاة، عجبًا.. أين اختفت الحمامات؟.

قلتُ له:

- اليوم صيد فاشل، ومن ثَمَّ إلَّا ترى أن اليوم أحر من أمس؟.

هزَّ رأسه الصغير، وكانت قطرات من العرق تتخلل لحيته القصيرة الشقراء، وقال وهو يلعق شفتيه بطرف لسانه:

- أحس بعطشٍ شديد.

وبلا تردد أسرعنا الخطى نحو محل العم عبدالله، وعندما بلغنا الدكان كان يهمُّ بإغلاقه وسط دوي صوت الآذان الهادر الصاعد من فوَّهاتٍ أربعٍ لأربع مكبرات صوت مثبتة على مئذنة الجامع ذي المنارتين كما اشتهر بهما، على عكس الجامع الآخر الواقع خلف سكة الحديد ذي المئذنة الواحدة، سلمنا على صاحب المحل وأخرج سلمان علبتي فانتا من الثلاجة من زاوية الغرفة المظلمة، وتناولتُ علبتي من يده، مددتُ يدي إلى جيب بنطلوني الخلفي حيث محفظتي الصغيرة الباهتة، لكن صاحبي أمسك بيدي وحال دون إخراجها، قال:

ـ أنا أدفع.
وقبل أن أفتح فمي، قال العجوز:
ـ دعها على حسابي اليوم، أنا أدفع.
قلتُ:
ـ لا أنا أدفع.

وأنا أنظر إليه ظنًا منِّي أنه يستهزئ، لكنه أصرَّ ولاحت ابتسامة ماكرة من تحت شواربه البيضاء المشذبة، ووجهه المنكمش ذي التجاعيد:
ـ لا أنا أدفع.

ثم سحب الباب الحديدي إلى أسفل وأغلقه من تحت بقفلين كبيرين، وعندما نهض علَّل دفعه ثمن المشروبات بقوله:
ـ إذا أذَّن المؤذن فأنا الدافع.
وانطلق إلى الشارع ونحن من ورائه، ومن ورائه كلَّمه سلمان:
ـ ستراننا إذا عند كل أذان صلاة.

استدار قليلًا وضحك ضحكة اهتزت لها كوفيته الصغيرة المعوجة، وقال:
ـ إن قراري هذا ساري المفعول لمرة واحدة في الشهر.

ولاحتْ على وجهه ابتسامة الظفر.. تبادلنا النظرات، كان يحب مثل هذه الدعابات معنا، في تلك اللحظة كانت عينا صاحبي مصوبتان إلى جهة بعيدة من الشارع، كانت هناك فتاة تمشي في الطرف البعيد من الشارع، أشار إلي بالانطلاق فانطلقنا وبيدنا علبتي الفانتا المجانيتين نروي بهما عطشنا، كانت ترتدي تنورة (ثوب قصير)

أسرعنا الخطى، كنتُ دائمًا أتقدمه بنصف خطوة في المشي العادي، أما عند الاستعجال فبخطوتين، وبينما نحن نحاول اللحاق بها حان منِّي التفاتة إلى الجهات الثلاث.. يمين يسار ووراء، كنتُ حذرًا في أوقات الصلاة ولو كنتُ شبه متأكد أن أبي لا يسلك هذا الطريق نحو الجامع، فإذا به لاح من رأس الشارع المار أمام بيتنا بعرجته وعكازه المعقوف ونظارته تلمع في ضوء الشمس، وطرفا جلبابه الأبيض الشفاف يتحرك ذات اليمين وذات الشمال، وهو يمسك به من الركبة كعادته حين يهب الهواء، وكزتُ صاحبي من خاصرته مهيبًا به:

- أسرع..

فلو ظهر عزرائيل لصديقي كان الأمر أهون عليه، لكن الذي ظهر كان مصطفى أفندي.. أبي العصبي، ولم نتوقف ولم نتهاون إلَّا بعد أن وصلنا إلى منتصف الشارع حينها التفتنا فإذا لا وجود لأبي، لا أدري كيف اختفى من الشارع ابتلعه، لم يكن هو المختفي الوحيد ولكن الفتاة الفاتنة كذلك، وفاتتنا الفرصة الوحيدة، عجيب.. كيف سلك هذا الطريق؟.

تساءلنا:

- هل صار يراقبنا؟

تساءلتُ:

- لا أظن..

طمأنتُ نفسي، نظرتُ إلى صديقي فإذا هو مصفر الوجه من شدة المفاجأة، كم مرة سمعتُ منه أنه يحب هذا الشارع لكونه قلما يسلكه الرائحون والغادون من وإلى الجامع ومن ضمنهم أبي.

سألته:

- ما بكَ؟.. كل شيءٍ انتهى أتدري إنها كانت زوبعة في فنجان.

أجاب:

- زوبعة أم طوفان؟!

وهو يتنفس نفسًا سريعًا، أشرتُ إليه بالتواصل، لكنني تفاجأتُ حين قال لي:

- غدًا ألقاكَ.

- انتظر لدينا الوقت الكافي ستظهر لنا أخرى. (قلتُ وأنا أحاول أن أثنيه عن قراره).

قال بصوتٍ مرير:

- لا رغبةَ لي اليوم.

ثم وهو ينظر إلى ساعته، وكررتُ:

- لا يزال أمامنا متسع من الوقت يا ولد.

تبيَّن لي أنني أثرتُ عليه بإصراري، فقال وهو يبسط ذراعه ويمدها صوب الشارع:

- إذًا، هيا لكن بشرط.

قلتُ له بنبرة تجمع بين الهزء والجد:

- نعم نعم.. أعرف شرطكَ.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وقلتُ بعد أن عاودتْ أحذيتنا قرعها للشارع الساخن:

- اسمع إذن يا عاشق البطيخ.

أعدتُ عليه الخماسية نفسها بعد أن أكملتُ نظرتُ إلى الأثر. فكان كما كان دائمًا: رفرف منخراه مرات متتالية، وجحظتْ عيناه وبرقتا كعيون القطط، لم تمضِ بضعة ثواني إلَّا ارتفع صوته المتهدج:

- الله ما ألذَّ هذه الرمانة!

قلتُ له بلهجة المنتصر المشارك فرحة المنهزم:

- أما أنا فأفضِّل الرمانة اللدنة، فهي أطيب من الصلبة.

دفعني بطرف سبابته وهو يكور يده الأخرى:

- حتمًا وخاصةً اللدنة المدورة.

ساد الصمت قليلًا، فعلًا وقع أقدامنا على أرض الطريق المفروشة بأشعة الشمس، صاحبي في نشوة الرمانة وأنا في نشوة أشعاري، التفت إلي ونحن نقترب من الشارع المار أمام منزلينا، وقال مستطردًا:

- وخاصةً الرمانة التي عليها زهرة رمانة حمراء كباكورة حبة الرمانة.

تعجبتُ، دام التأثير هذه المرة طويلًا وقد سال اللُّعاب من فيِّنا كلينا. فجأة توقف عن المشي يمد يده يستوقفني، وقال لي بصوتٍ خافت عميق كالصادر من خيال سلمان لا سلمان بلحمه ودمه وروحه:

- يجب أن أعود إلى البيت فورًا.

نظرتُ في عينيه مستفسرًا فلم أرَ سوى الإصرار، كان فكاه متطابقين وشفتاه مزمومتين، أمسكت بساعده وقلتُ له أهزه هزًّا رفيقًا:

- قل لي.. ماذا جرى لكَ؟.

لم يرد، وبدلًا انطلق صاحبي سالكًا سبيل منزلينا، وأنا من ورائه أُناديه بصوتٍ هامس مضغوط:

- ما الأمر؟.. ماذا حدث؟

أهمل سؤالي. سمعته يلهث، أعدتُ عليه السؤال من ورائه ولحقته وهززتُ يده وأحدقتُ في عينيه اللتين كانتا تبعثان بريقًا غريبًا ولمعانًا وهاجًا عجيبًا كحزمة الضوء المنطلق من مصباح يدوي في حلكة الظلام:

- قل لي خبرني.. ماذا جرى لكَ؟.

وأخيرًا قال وهو يحرك ظاهر يده أمام وجهي:

- بسيطة بسيطة، لا شيء.. لا شيء.

عند المنعطف تركني لوحدي، سمعتُ كلمة الوداع منه في منتصف المسافة بيني وبين باب بيته، وهناك ودون أن يلتفت رشق إلى الداخل كالسهم.

• • • •

(٢)

فتحتُ عيني بصعوبة بالغة، فركتهما بيدي فركًا عنيفًا، أصغيتُ جيدًا كي أتأكد من مصدر الصوت، وتأكد لي أنه كان صوت أبي ناداني كعادته للنزول والتوضؤ والصلاة - أصعب عمل - تقلبتُ في فراشي، فصدر عن السرير الأسود الحديدي صرير كصرصرة الصراصير المتكومة المختبئة في داخل مجاري المرافق الصحية، وعلى وجه التحديد في البقعة المربعة الكائنة بين الحمام ودورة المياه، داعبتُ أغصان الليمون بثمارها المتبقية من قضبان شباك غرفتي الصغيرة، فصدر عن الاحتكاك صوت أشبه بحك الجلد الجرب، رائحة النبات والعشب المسقى تداعب خياشيمي ممزوجة برائحة روث دجاجاتنا الاثنتي عشرة، ورذاذ الماء المتدفق من الأنبوب البلاستيك المطاطي يصل إلى مسمعي ممزوجًا بأصوات وقوعها على أوراق الخضر والشجر، فتبعث في نفسي قشعريرة لم أدرك كنهها وماهيتها... تكاسلتُ وتقاعستُ كالعادة في النزول بل تماديتُ وتوانيتُ على أمل ضئيل أن لا يعيد أبي النداء، إذًا لأنتظر لحين يأتي الإيعاز الثاني منه الذي يظن أن ترك الصلاة كُفر...

في انتظارصوت أبي الجهوري مددتُ يدي إلى ما تحت السرير إلى كومة من الكتب القديمة والمجلات، وأخرجتُ من طياتها مجلتي المفضلة "صحتك حياتك" تصفحتُ المجلة أمام وجهي المتورد وسط أزيز البعوض المتطاير من كل الجهات، ورستْ أخيرًا على مادتي المفضلة "الغذاء لا الدواء" في تلك اللحظة دغدغتْ مشامي

رائحة خبز أمي المتصاعدة من المخبز الكائن في زاوية من الحديقة مترامية الأطراف، فقد كان أبي قد خصص ركنًا منها؛ ليضم وكر الدجاج والمخبز معًا بحيث كان لزامًا على الداخل إلى المخبز أن يمر أولًا بوكر الدجاج، نظرتُ إلى الساعة المعلقة على الحائط الإسمنتي، فكانت تشير إلى السادسة صباحًا، ومن خلال النافذة رأيت سماءً صافية... جميلٌ أن يرى المرء حالما يفتح عينيه سماء فجر الصيف، ويشم الهواء المنعش الرطب الممزوج برائحة التراب والعشب في آنٍ واحد.

قرأت أسطرًا حول الغذاء من مقال يشرح فوائد البصل للدم ويصفه بأنه مطهر ومنشط للقلب والدورة الدموية ويقوي المناعة، ثم موضوعًا آخر عن السمنة المفرطة وخطرها على الصحة لأنها تسبب أمراض القلب والشرايين، قلبتُ الصفحة لتقع عيني على حقل أكثر إثارة وتشويقًا حيث الحديث عن غشاء البكارة وأهميته وكيفية المحافظة عليه، فانتقل فكري دون وعيٍ منّي إلى صديقي وشلواره الفسيح كان هذا موضوعه المفضل، ورنَّ صوته الرقيق الناعم في أذني مرة تلو المرة:

- إنكَ لازلتَ طفلًا لا تفهم.

قال لي في المرة الأخيرة وأغاظني كثيرًا، أما هو فكان يتسلى ويضحك، واحتجيتُ:

- أنا أقارب الستة عشر عامًا.

لا أدري.. لماذا أحببتُ أن يقال لي إنكَ بالغ وكبير؟ لماذا أردت أن أكبر وأنمو بسرعة؟ لا أدري.

ثبتت عيناي على العنوان وتلوته بصوتٍ: غشاء البكارة، غشاء رقيق فيجب على الفتيات الحذر الدائم، على الفتيات تجنب القفز من أعلى تلافيًا لِمَا لا يحمد عقباه ـ ما معنى ما لا يحمد عقباه؟ ـ أبي سأسأله فهو خبير في اللغة العربية.

تثاءبتُ وشعرتُ برغبة عارمة في النوم، ولحسن الحظ لم يصدر إيعاز آخر من أبي أن أنهض، أغلقت عيني واستسلمتُ للنوم، نوم عميق لكن قصير، قرصتني بعوضة في رسغي قرصة ظننتها لدغة عقرب، حككتُ جلدي متأففًا منددًا وقمتُ أبحث عن الحشرة أتابع أزيزها، كانت تطير محلقة أشبه في شكلها ودورانها حول نفسها بالهليكوبتر، في لحظةٍ غضب عارم لملمتُ طرف جاكيتة بيجامتي الزرقاء المفضفضة وحشرتها داخل السروال، والتقطتُ قميصي القديم من على الكرسي، وجعلتُ أصفقها وأوجه ضرباتي إليها لكنها سرعان ما اختفت، وذهبتْ كل جهودي سدى في العثور عليها، لمحتها أخيرًا على طرف سريري، أردتُ معاودة الكرة إذ بي أسمع صوتًا هسيسًا خفيفًا صادرًا من المخبز، فغرفتي كانت تطل على الحديقة من الجهة القريبة من الوكر وغرفة الخبز، عرفتُ أنه صوت تارا هبتْ لمساعدة أمي في التخبيز والتحمير، عدتُ إلى فراشي ألهث وأردتُ معاودة النوم؛ لأن الوقت كان مبكرًا، نظرتُ من خلال الشباك الصغير وأنا ألف نفسي ببطانيتي السوداء العتيقة، عجبتُ من الضوء بدأ ينتشر في الأفق، أحسست في تلك اللحظة بضجرٍ كبير، ومما أثار حنقي عملية التخبيز.. لماذا كل هذا الضجيج في هذا الصباح الباكر؟ ولو أني كنتُ أعرف الجواب، قالتْ لي أمي:

- في الصباح النشاط والدفئ.

ثم غيرتُ رأيي:

- لا، فالصلاة هي السبب الأول... لولا الصلاة لما وجب علي أن أنهض مبكرًا هكذا، والسبب الثاني التخبيز فهو الذي يحول دون عودتي إلى النوم بعد نداء أبي وصوته الخشن، لحسن الحظ يحدث مرة واحدة في الأسبوع أو مرتين.

مضطرًا عدتُ إلى المجلة وغشاء البكارة، ورغبة تجتاحني كي أعود إلى النوم، لأن نهار الصيف طويل، لكن الأصوات الحادة الصادرة من الأواني وأدوات الخبز لم تنخفض بل ارتفعت بصورة لا نظير لها، رفعتُ رأسي وفي رأسي فكرة سرعان ما تراجعتُ عنها، لم أستطع سد الشباك بسبب الحر الذي زاد كلما زاد انتشار النور.

جاتني فكرة، من فرجة في مخدتي انتزعتُ بعض القطن المندوف وقد علاه الأصفرار، القطن هذا قد وجد طريقه إلى الخارج من ثقبٍ في الغطاء الأبيض، أدرتها في يدي ولففتها حتى اتخذتْ شكلًا مدببًا، وحشرتُ رأسها المدبب منه في أذني حشرتها فيها حشرًا قويًا، أنصت وأنا أرفع رأسي من على المخدة فلم أعد أسمع سوى أصواتٍ ضئيلة أشبه بطنين ذبابة محبوسة في زجاجة محكمة السد، وضعتُ رأسي على المخدة، ومددتُ رجلي وغطيتُ المكشوف منهما بغلالة - شرشف شفاف للوقاية من عضات البق - ولكن لم أفلح رغم النعاس الشديد، أمسكت بالمجلة بجانبي ورفعتها أمام عيني رغمًا عني، فقرأتُ على مضض متذكرًا حكمة أبي القائل:

"القراءة تفيد النوم" وقرأتُ: "قد يحدث الحمل بدون أن يتمزق الغشاء - ماذا؟! تساءلتُ، ما هذا الهراء في هذا الصباح الباكر؟ ألقيت المجلة بعيدًا إلى ركنٍ قصي من الغرفة، ثم ألقيت الغلالة الرقيقة على وجهي ولففتُ وجهي بها لفًا محكمًا حتى انقطع النفس، نجحتُ هذه المرة، واستفقتُ على صوت ديكنا الذي كان يطارد كعادته الدجاجة في الحقل، يبدو أنها هربتْ منه قافزةً فوق السياج المشبك فقفز خلفها.

المنظر أمامي الآن، الديك يمسك بها من قمة رأسها المدبب "عُرفها" الدجاجة تحني مؤخرتها لتسهيل المهمة يا لها من مطيعة! قد قد قيق قد قد قيق قد قد قيق.. وها هو السائل الأبيض الشفاف ينزل من مؤخرة الديك، وينزلق قسم منه تحت فتحة الدجاجة فيصبغه بلونٍ شفاف أبيض لزج، الدجاجة تنفض ريشها والديك يدور حولها بحركاتٍ مائلة ويصيح بصوتٍ الفاتح المنتصر، قالتْ أمي يومًا: إن الدجاجات يحببن الديك؛ لأنه وسيم رشيق متين، وله ألوان زاهية.

في نفس اللحظة شعرتُ بجوعٍ لا يقاوم، نظرتُ إلى الساعة على الحائط فكانت تشير إلى التاسعة، وقد ارتفعت الشمس قليلًا وألقت بشعاعها فوق حديقتنا، وتوغلتْ حزمة ضئيلة منها من خلال النوافذ الثلاث الصغيرة من غرفتي المستطيلة إلى الداخل، فألقت ظلالًا كثيفة على الأرجاء التي لم يصلها الضوء، لم أتوانَ فنهضتُ بنشاطٍ وهبطتُ السلم بخفة الأرنب، وتوجهتُ مباشرةً إلى الغرفة الملاصقة للمطبخ، فتحتُ الثلاجة وأخرجتُ منها قطعة جبن كردي

أبيض كالحليب وكسائل الديك، ثم توجهتُ إلى وكر الدجاج كدأبي كل يوم، ومرورًا بالدجاجات أطلت بوجهي من بويب المخبز ونظرتُ محدقًا إلى الداخل، الدخان الأزرق يتصاعد من تحت الصوان - ساج - وعليه قرص الخبز في حالة احمرار بتأثير الحطب الملتهب من تحت.

كانت تارا تمسك بعودة قضيب من الخشب تغرزه في الفسحة بين الساج والخبز لتقلبه كلما بلغ الاحمرار درجة كافية، ثم تلقي بعدها القرص الكبير المحمر بطرف العصا إلى كومة أقراص الخبز الحار المرتفع فوق وعاء مصنوع من غصينات لينة دقيقة لدنة، أديتُ تحية الصباح، رفعتا رأسيهما ولم تتفاجآ إذ كنتُ معتادًا على زيارتهما لالتقاط رغيفي الخاص كمادة أساسية لوجبة الفطور.

قلتُ لأمي:

- صباح الخير حبيبة.

كنتُ أناديها باسمها حبًا وتدليلًا.

رفعتْ رأسها وألقت نظرة مستبشرة على وجهي كمَنْ تتفحصه، ثم نكستْ رأسها لتركز على العجين الذي كانت تقوم بتسويته بعصاها الخشبية أسطوانية الشكل الخاص، ثم ردتْ التحية:

- صباح الخير لقمان.

تلاها صوت أختي الرخيم:

- صباح الخير لقمان.

قالت تارا وهي تسحب طرف ردائها الطويل الذي قد انحسر قليلًا؛ ليكشف عن جزءٍ يسير من ساقيها البيضاويين الرفيعتين، ومرة

أخرى رفعتْ أمي رأسها وسط سحاب الدخان، ونظرتْ إلي مليًا ولطخ الدقيق منتشرة على شعرها وحاجبيها وكتفيها وبطنها، وتساءلتْ مستطلعة كعادتها:

- هل نمتَ جيدًا؟

أجبتُ متثائبًا:

- نومًا متقطعًا.

- وهل صليتَ؟

- ليس بعد.

ضحكتْ كاشفةً عن أسنان صغيرة.

- سوف لن أشي عليكَ هذه المرة عند أبيك يا ولد، لكن في المرة القادمة لن أغفر لكَ عصيانكَ لأوامر الله.

لم تكمل أمي؛ لأني أحطتُ رقبتها بذراعي متوددًا، فقالتْ بمكرٍ تحت ابتسامة خفيفة:

- هل هذا عن حبٍّ أم خوف؟

- كلاهما.

انفجرتْ بالضحك، وقالتْ بصوتٍ متهدج:

- يا شقي يا ماكر كم تجيد فن المراوغة.

دستْ يدها في كومة العجين وأخرجتْ كتلة بحجم كرة اليد، وقالتْ وهي تضرب الكرة اللدنة بالخشبة المدورة الملساء أمامها:

- تارا أشطر منك.. صلت أولًا ثم عادتْ للنوم ثم ها تراها الآن هنا.

لم أرد على أنتقادات أمي العفوية، وبدلًا مددتُ يدي إلى كومة أرغفة الخبز المتراكمة المتراصة فوق بعضها البعض، وقطعتُ

كسرة كبيرة منها، وأخذت أقضمها قضمًا وألوكها لوكًا، فأجد في ذلك لذة ما بعدها لذة.

قالتْ أمي وعينيها على العجين:

- خذ قرصة كاملة وتناول طعامكَ على مهل.

- حار وطيب.

تمتمتْ تارا بصوتٍ مهموس، وهي ترفع رأسها إلي للمرة الثالثة هذا الصباح، ابتسمتْ لي بخجلٍ، ثم عادتْ إلى عملها في التحميص تقبض على طرف العصا الطويلة ذات النهاية المسطحة، وذلك لتسهيل إدخالها تحت الأرغفة ساعة احمرارها ونضوجها، لفتَ نظري لأول مرة منذ تعطيل المدارس أنها كبرت.

ارتفع نهداها بشكلٍ ملحوظ وتغيرت تقاسيم وجهها، وظهرتْ شعيرات ناعمة شقراء على خديها ومعصميها، وأنا في حالة تأمل إذ هي ترفع رأسها والتقت عينانا، احمر وجهها فخفضتْ عينيها الواسعتين السوداويين بسرعة متناهية، وعادتْ تقلِّب الخبز وقد زاد وجهها حمرة على حمرة، لا أدري هل أحست أمي بما كان يخطر في بالي في تلك اللحظة، إذ قالتْ فجأة ويديها تديران الخشبة الأسطوانية دورانًا سريعًا مكوكيًا:

- الصيف يسرع في نمو الطفل، وينضج الجسد كما تنضج الفواكه.

تركزتْ عيناي على تارا التي كانت تنظر إلى الأرض مستسلمة لصمتٍ مطبق، حدقتْ أمي في وجهي ويدها تمسك بالعصا الخشبي تتفحصني طويلًا، ثم عادتْ إلى عجينتها وهي تقول بصوتٍ منخفض كأنها تكلِّم نفسها:

- نضجتَ أنت كذلك يا ولد، فشاربيكَ لم يكونا بهذا الكبر في أيام المدرسة.

ألقت كلماتها فرحًا كبيرًا في قلبي، فقلتُ مهتاجًا أمسح بطرف سبابتي على الشعيرات الناعمة تحت أنفي:

- أنا.. هل ترينني فعلًا؟.. هل طالتْ شواربي؟ ظننتُ أن الناظر إليهما لا يراهما لفرط نعومتهما.

صدرتْ عنها أنة خافتة، وتمتمتْ كالمهمومة:

- ابني قلب الأم يرى قبل العين.

وبفضولٍ رفعتْ تارا رأسها إلي، وقالتْ بمكرٍ ثابتة ناظريها على ما فوق فمي:

- إنها ناعمة كالحرير.

هزتْ أمي رأسها، وقالتْ دون أن تنظر إلينا:

- لقد كبرتما وستأكلان أكثر مما اعتدتما عليه.. اذهب وكل فطوركَ.

إشارات إلي تمد يدها الماسكة بالقضيب الخشبي (الحادلة)، وبلا تردد فعلتُ ما أمرتني به، وأنا اجتاز الوكر اعترض سبيلي الديك فركلته ركلًا قويًا في مؤخرته تطاير من إثرها إلى الفضاء وسط صياح الديكة الغيورة على كرامة السيد.

وعند مروري من الباب الصغير المصنوع من السلك، امتدت يدي اليمنى دون وعيٍ مني إلى ما تحت أنفي تمس وتربت على الشعرات القصيرة الناعمة الراقدة بكل براءة وهدوء هناك كأنني لم أنظر إليها عشرين مرة في المرآة يوم أمس وكل يوم، ومن مكاني

لاح لي والدي متكورًا فوق نبتة وفي يده مقص صغير مدبب حاد، ارتجفتُ لمنظره وأسرعتُ في الدخول، ولكن طالما خطوتُ أولى خطواتي إلى الداخل ترامى إلي صوته الجهوري الأغن:

- هل أديتَ صلاة الفجر يا ولد؟

• • • •

(٣)

- ما يحمد عقباه.. عبارة تعني أنه لا يمكنكَ التكهن بالنتيجة.

قال أبي وهو يمسح شواربه المسطحة مما تعلَّق بها من لبن، تبادلتُ أنا وتارا النظرات، لاحظت أنها هزلتْ وطال شعرها الأسود الفاحم، نهضتْ من مكانها ومضتْ حيث أمي تقف أمام حوض غسل الأطباق في زاوية من المطبخ، عادتْ بعد لحظة لنقل بقية الأطباق الفارغة، ثم واصلتْ عملها مع أمي، أمي تغسل وهي تجفف بطرف قطعة قماش كبيرة بيضاء ثخينة، بعد لحظة صمت التفت أبي إلي وقال بلهجة رصينة:

- أريد منكَ درجات عالية هذه السنة.

هززتُ رأسي محنيًا إياه مرات متتالية مبديًا استعدادي وانصياعي، ثم رفع رأسه حيث تارا كانت تترقب وتتوقع كلامًا مماثلًا، وقال بنفس اللهجة:

- وأنتِ يا تارا عليكِ بالاجتهاد والسعي من أجل الشهادة والمستقبل.

أجابتْ تارا بمنتهى الأدب وهي تبتسم ابتسامة شاحبة:

- جيد جدًا في كل الدروس عدا العربية، فقواعد اللغة جافة معقدة.

نقلتْ ببصرها بيننا ثم أردفتْ:

- الإنجليزية أسهل.

حرك أبي يده بما يشي بعدم الرضا:

- عليكِ أن لا تنسي أن العربية لغة القرآن الكريم.

تثاءبتُ ورآني أبي فتثاءب هو بدوره مصدرًا صوتًا أشبه بمواء القط، انتبهت أمي لأصواتنا الغريبة، فرفعتْ يدها لبرهة من الحوض المليء برغوة الصابون، وقالتْ تخاطب تارا وتنظر إلينا من زاوية عينيها كالمستهزئة:

- كما قلتُ لك أن اللبن منوم عجيب.

قلتُ لها معلقًا:

- إنه كالمخدر، كالمسكر.

قاطعني أبي بسرعة، وهو يضع إصبعه شاقوليا بين شفتيه:

- ششش.. حرامٍ حرام إلَّا تعلم أن كل مسكرٍ حرام.

سرعان ما عدلتُ عن رأيي إرضاءً له:

- إذا هو منوم.

- وخاصةً إذا شُرِبَ بصحبة الكفتة.

قالتْ أمي ويداها في الصابون وسط طقطقة المواعين، بينما كانت تارا تمسح الأرض والطباخ، وترتب الصحون والأقداح، وتعيد كل شيءٍ إلى مكانه الخاص به في الخزانات الحديدية البيضاء التي امتدت عرض الحائط على شكل حدوة الحصان.

نهضتُ وأنا في بيجامتي إلى حيث القدر ينتصب فوق طباخ أمي الغازي، وأخرجتُ كفتة محشوة بلحم الغنم فألقيتها في فمي بسرعة البرق، رأتني أمي وضحكتْ تارا وعلقتْ وهي تحدقني ساخرة:

- هذا هو حالكَ دومًا.. بطن مليء وعين فارغة.

أردتُ أن أفتح فمي لكن شخير أبي كان قد تصاعد، كان مستلقيًا على جنبه مواجهًا الجدار الأبيض بمحاذاة السفرة، وللتو شعرتُ بالنوم، أصابني عدوى اللبن.

سمعتْ تارا تثاؤبي فالتفتت إلي، وهي تنحني بيدها وتضع كومة من الأطباق المغسولة المجففة من قبل أمي في الخزان السفلي، بعدها خرجتْ تارا متوجهة إلى غرفتها البعيدة عن المطبخ، وصعدتُ أنا إلى غرفتي فوق دون أن أنبس بحرف إضافي، وبعد بضعة دقائق نزلتُ الدرج بهدوءٍ والصمت والحر يلفان جو البيت، وعند مروري بغرفة تارا وصل مسمعي صوت أم كلثوم، كانت أغنيتها الشهيرة (انت عمري) تتسرب من فرجة الباب لم تحس بمروري، وانطلقتُ إلى خارج البيت، هناك وعلى الشارع الساخن لحفني هواء حارق، السماء كانت زرقاء مع قليلٍ من الغبرة الصيفية.

أسرعتُ الخطى في اتجاه الشارع العريض، ولدى مروري بباب صديقي جفلتُ لصوتٍ آتٍ من فوق سطح بيته، رفعتُ رأسي دون وعيٍ فإذا بفريدة وشعرها يلمع في شمس الصيف الساطعة الحارقة، وهي تلقي بالملابس على حبل الغسيل، شعرتُ بخجلٍ بالغ ومفاجأة لأول مرة أراها في تلك الساعة في ذلك المكان ولوحدها، رفعتُ رأسي فإذا بصفقة قوية كأنها ناتجة عن انفجار بالونة هواء كبيرة، رأيتها تمسك بذيل قطعة ثم تهدها بدفعة قوية إلى أسفل فتصدر هذا الصوت، أ كل هذا لتلفتَ نظري؟ تساءلتُ، شيء جديد يحدث لأول مرة خفضتُ رأسي ثم رفعتها مرة أخرى، كانت تطل في تلك اللحظة من فوق سور السطح، وهي تبتسم في وجهي ابتسامة عذبة غير مألوفة، وتشير لي بسبابتها بما يعني: أنها لا تريد إيقاظ الناس في تلك الظهيرة، فلذلك تؤثر عدم الكلام، رفعتْ ساعدها فلمعتْ أساورها الذهبية وتوهجتْ تحت ضوء الشمس الوهاجة، احمر وجهي من الارتباك، لبثتُ لحظة دون حراك أنظر إلى لا شيء،

أخيرًا ومحاولةً منّي للتغلُّب على خجلي أشرتُ إلى جهة المحل دون أن أنطق حرفًا، ابتسمتْ في وجهي ابتسامة ساحرة، ثم رفعتْ يدها تودعني واختفت وتلاشت صورتها تمامًا، مضيتُ في سبيلي بقلبٍ خافق وواصلتُ السير وعند المنعطف لاح لي صديقي في سرواله، فقلتُ لنفسي مرتابًا:

- ألم يرَ أخته؟

أغلب الظن نعم، أسرعتُ الخطى في اتجاهه وأنا أبتسم في وجهه وهو يرد بالمثل، ومن تحت السقيفة الخشبية للمحل رفعتُ يدي إلى الشبح القابع خلف واجهة المحل الزجاجية، فلم أرَ أيَّة حركة تدل على أنه أستلم الأمانة فذهبتْ تحيتي سدى، استقبلني صاحبي بالحفاوة كعادته والملاطفة، ومدَّ يده وشد على يدي بقوة مبتسمًا ابتسامته العريضة كاشفًا عن أسنانٍ بيضاء صحيحة، وأشار باليد الأخرى إلى الشارع: هيا، وقبل أن ننطلق التفت إلى واجهة المحل الزجاجية، فرأيت أن صاحب المحل كان يتحدث إلى زائر لم أتعرف عليه، فعرفتُ سبب عدم تنبهه إلى تحيتي.

كان الشارع مقفرًا كعادته في تلك الساعة، هذا خلا عن بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون بعيدًا في ساحة من التراب بين الحقول المجاورة وبساتين البطيخ والخيار والرقي، سحاب من التراب والغبار يتصاعد من فوق أقدامهم، وخلا عن العصافير المتراصة على أسلاك الكهرباء، وعدا عن امرأة عجوز ظهرت في رأس شارع فرعي ثم توارت بين صفوف البيوت، هكذا بدأت جولة اليوم كباقي الأيام جنبًا إلى جنب، أنا العالي وهو الواطي هيكل جيكل

غير متكافئ، انتبهت إلى أن حذاءه لم يصدر صوتًا فقد كان يرتدي حذاءً خاصًا مصنوعًا من الوبر من فوق والمطاط القوي من تحت، على العكس من حذائي الذي كان يصدر صوتًا كقرع الطبل لصلابة أسفله، في الحقيقة كنتُ أجد صعوبة كبيرة في إيجاد الحذاء المناسب لي بسبب طول وعرض قدمي، لهذا السبب شبَّه أبي قدمي بخارطة أفريقيا، هبَّ هواء وحرك شلوراه الواسع يمنةً ويسرةً، ولم يتحرك شيء من بنطلوني الملتصق برجلي، وقميصي الأسود المزين بزهور حمراء صغيرة - الملابس الضيقة كانت موضة العصر - ظللنا صامتين للحظات لا نسمع سوى وقع أقدامنا، ولم تمضِ سوى ثوانٍ إلَّا وبدأ هو الكلام، قال وعينيه ترنوان إلى بعيدٍ:

- خطرت لي فكرة أن نذهب اليوم إلى السينما.. فما رأيكَ؟

اندهشتُ كيف أنه قالها هكذا بلا مقدمات، لم يهتم بصمتي أضاف يقول برغبة عارمة:

- فيلم إباحي مثير للغاية.

ولم ينتظر ردي أيضًا، وبدلًا أخذ يشير إلى بعيد حيث واجهة الحافلة تلوح لامعة من رأس الشارع، وقال يضرب بمرفقه مرفقي بقوة:

- هيا هيا ها هناك الباص.. بسرعة لا يفوتنا.

أخذ بمرفقي، وأنا فقدتُ كل إرادة للمقاومة عدا عن تمتمات من قبيل:

- ماذا دهاكَ؟.. ما بكَ؟.. ماذا حدث لكَ؟ اصطبر، دعني أفهم.. وما إلى ذلك.

قال لي بعد إلحاحٍ، وهو يجرني معه نحو موقف الباص:

- ستفهم في الطريق.

ولم تمضِ ثوانٍ حتى وجدتُ نفسي قاعدًا كتفًا لكتف مع صديقي في داخل باص المصلحة القديمة، كان هناك باص واحد يصل إلى المحلة كل ساعة وغالبًا بلا مواعيد ثابتة، كان على المسافر أحيانًا أن ينتظر ساعة وفي بعض الأحيان ثمة دقائق - أنت وحظكَ - وكان سائقه الأشيب يلقب بالباشا ولم نعرف له اسمه الحقيقي، وكان من الوجوه المعروفة في الحي وفي المدينة بأكملها كونه سكنها طويلًا.

مال إلي وقد اتخذنا مقعدًا ثنائيًا في المؤخرة، وهمس في أذني بعينين تواقتين:

- فيلم رائع رأيتُ لوحة الدعاية الملونة في وسط المدينة البارحة يرفعها عِزة الأعور بيده.. ذاك أبو الجدري، وكان يصرخ بكل صوته: جيمس بوند والشقراء.

وفتحتُ فمي لأقول بنبرة عتب:

- حسنًا ولكن.. لِمَ كل هذا الاستعجال؟.

لم يجب ولم يبدُ عليه أنه سمع، نظرتُ إليه جنبًا فرأيته يحدق النظر أمامه في وجوم وتمعن كمَنْ ينوي شيئًا أو يفكِّر في عمق، كان ينظر إلى الأمام بتركيزٍ أنساه حتى وجودي، فأدرتُ برأسي متتبعًا اتجاه نظراته، فوقع بصري على فتاة ناصعة العنق تجلس في الوسط، لم أشعر بوجوده طوال الوقت، مضت ثوانٍ على هذا الحال ثم بدرتْ منه حركة ووكزني في مرفقي أن أفسح له، أردت أن أسأله لكنه كان أسرع خرج من الفسحة بين رجلي والمقعد الأمامي، هناك قال لي:

- انتظرْ لحظة.

آثرتُ عدم الاستفسار، وبدلًا صرتُ أراقبه مشدوهًا مدهوشًا لهذه الحركة الفجائية وترك مقعده قبل أن نصل، فرأيته يسير ببطءٍ إلى المقعد الخالي الكائن وراء الفتاة، فاغر الفاه جاحظ العين راقبته بمزيدٍ من الفضول والعجب والحيرة، وفي لحظة ما شعرتُ أن يده اليمنى الملاصقة لجدار الباص امتدت إلى مسند المقعد الذي جلستْ عليه الفتاة، بعد لحظات رأيتُ شفتيه الغليظتين ترفرفان كأجنحة الفراشة المحلقة فوق الزهر، وأحسستُ دون أن أرى أنه ارتفع قليلًا من مقعده ووضع رجلًا على رجل بحركة سريعة، زادتْ حيرتي وفضولي، كانت هذه أول مرة أرى فيها صديقي يقوم بهذه الحركات، رفعتُ بصري نحو السائق فلم أرَ أيَّة علامة على أنه شعر بشيءٍ غير عادي أو حركة داخل الحافلة، فشعرتُ بنوعٍ من الارتياح.

وما حدث بعد ذلك أصابني بالذهول، شيء أغرب من الخيال، من وراء امتدت سبابته إلى أسفل بحيث لامستْ ظهر الفتاة، ثم قام بثلاث حركات مماثلة للأولى إلى أعلى قليلًا، ثم وضع رجلًا على رجل وتسارعتْ رفرفات الشفتين كمَنْ يتلذذ بطعمٍ لذيذ، لاحظت أن صفحة خده توردت، وأن إصبعه المحصور بين مسند المقعد الرماني وكتف الفتاة ارتعش ارتعاشًا ضئيلًا، دبَّ الذعر في بدني.. هل أصابه مس من الجنون؟ ما فعل كان شيئًا غريبًا لكن لم يكن هذا مصدر قلقي فحسب، لكن الخوف كان أعظم.. ماذا لو انتبهت الفتاة؟! وجدته بعد لحظات يلهث لهاثًا مكتومًا لكنه يصدر هسيسًا خفيفًا من منخريه، ثم بعد قليل رفع رجله اليمنى من على اليسرى، وجعل يمسح حبيبات العرق المتصبب من على جبينه المتورد، كان

الجو داخل الباص كالجحيم وحركاته صيرته أحر، تمنيتُ لحظة لو كانت المروحة الهوائية التي كانت تدور بسرعة غير مرئية كانت منصوبة أمامي لا أمام السائق باشا، ظل صاحبي هكذا لدقيقة جالسًا في صمتٍ بلا حراك كمَنْ أصيب بصدمة نفسية، بعد لحظات نهض قائمًا وعاد إلى مكانه بجانبي، وهو لا يزال يلهث ببطء.

لم أقل شيئًا بل لم أجرأ ولم أقوَ على قول أي شيء، ومن ثَمَّ فضلتُ تأجيله إلى ما بعد النزول وحينها سأمطره بالأسئلة، في لحظةٍ ما أصبحتُ أكرهه وأنفر منه، شعرتُ أنه قام بشيءٍ غريب مريب دون أن أعرف ما كنه هذا الفعل، مازلتُ أسمع صوت نفسه السريع وهسيس الهواء المندفع من رئتيه، لم يطل الانتظارفقد مال بوجهه إلي، وقال بشيءٍ من الخجل والارتباك:

- خلاص!

- ماذا قلتَ؟

- قلتُ لكَ: خلاص.

لم أهتم لِمَا قال، لكنه استطرد قائلًا بنبرة صوت متغيرة تمامًا:

- سأشرح لكَ كل شيءٍ.

- أي شيءٍ؟

دفعني الفضول أن أسأل، لم أطق الانتظار.

- أولًا قبل كل شيء عليكَ بحفظ العدد ٣١.

قال لي وهو يمسح عرق جبينه بمنديله المنقط المنقوع، ظللتُ ساكتًا أما هو فقد أطلق العنان لخيالاته وتأملاته، فلم أشأ أن أكلمه كثيرًا إلى أن يحين زمن الشرح والتوضيح.

بعد دقائق قليلة توقف الباص، نزلنا بالقرب من دار السينما وبعد ما يقارب عشر دقائق من المشي الصامت وصلنا إليه، وقفنا أمام طابور قصير أمام كشك شراء البطاقات، وطوال الوقت لم أحدثه عمّا جرى، لم يكن الوقت مناسبًا وتفاديًا لإفساد الجو والفرحة بمشاهدة الفيلم.

وفي ظلام السينما وبعد مضي نصف ساعة وبعد أول قبلة من جيمس بوند على ثغر البطلة عارية الصدر، تحرك صديقي وهو يقول لي بهمس:

ـ انتظر.

ثم نهض قائمًا وتسلّل ببطء وتأني إلى أبعد زاوية في مؤخرة الصالة بحيث لن يراه أحد، يرى الكل ولا أحد يراه فالكل أمامه، الحيرة وصلتْ الذروة، بعد لحظات التفت بزاوية عيني إلى الركن الذي جلس فيه والذي كان يغمره ظلام دامس، ورغم ذلك لم يخفِ الظلام حركات يده اليمنى السريعة المتتالية، اليد الملاصقة للحائط المطلي باللون الأحمر حينها تبين لي بغموض ما سر انتقاله وحركاته في الحالتين الحافلة والسينما، منذ تعارفنا قبل أعوام لم تبدر من صاحبي هذه الحركات المريبة العجيبة العصية على فهمي، بتحسر وشيءٍ من خيبة الأمل وشيءٍ من الخوف والهلع أدرت وجهي وأخذت أنظر إلى الأرض متغافلًا عن جيمس بوند الذي كان في تلك اللحظة قد طرح البطلة على السرير ويتأهب ليلقي بنفسه عليها، تمدد فوقها جعلا يلهثان معًا، رأيتُ كل ذلك دون أن أستطيع أن أركز أو أستمتع، ورحتُ أتساءل برهبة ورغبة:

- ماذا أصاب الولد؟

عاد صاحبي بعد ربع ساعة، وهمس في أذني بصوتٍ وزفير أشبه بتنهيدة:

- خلاص!

- ماذا تعني بخلاص خلاص؟

صرختُ في وجهه أضغط على صوتي بقوة فخرج كبخارٍ محبوس في وعاء الشاي المغلي، أما هو فأجاب كمَنْ يتمضمض بفانتا العم عبدالله البقال:

- أقول لكَ عليكَ أولًا أن لا تنسَ العدد٣١.

قلتُ له ناهرًا إياه:

- صه! لا تنسَ الناس من حولكَ.

مال برأسه دون أن يعير أهمية لتحذيري، فقال بصوتٍ كالفحيح:

- ٣١يعني استمناء..

جفلتُ للكلمة، فقد مرتْ بي أكثر من مرة في مجلتي المحببة صحتك حياتك حينها تذكرتُ أمرًا يخصني أيضًا، وأخذت أربط بين الحالتين.. حالتي السرية وحالته العلنية.

- تعني العادة السرية.

لم ينبس، أضفتُ:

- سرية وأنتَ جعلتها علنية، هذا لا يجوز مع احترامي لكَ.

• • • •

(٤)

في اليوم التالي التقيت سلمان آخر تمامًا سعدتُ بذلك، طوال الوقت كانت عيناه تجولان بحثًا عن منظر مغري: سيقان فتاة، امرأة عابرة ترتدي بنطلونًا ضيقًا، أو تكشف عن نصف صدرها، أو تلبس ملابس شفافة.

- ما غيركَ هكذا صاحبي أراك سلمان حقيقيًا.. لا أستغفر الله ولا توبة.

سألته وأنا لا أصدق، فقال لي وهو يحثني على الإسراع وعيناه موجهتان إلى نهاية الشارع، وأهاب بي يجرني من مرفقي:

- هيا لا نضيع الفرصة أريد زادًا لخيالي لقد نفذ زادي.

قلتُ في نفسي:

- لقد عاد إلى الهذيان.

ولم يطل ذهولي، نظرتُ في الاتجاه الذي كان ينظر، فرأيت فتاة من بعيد ترتدي بنطلون جينز أزرق ضيقًا، انطلقنا نعدو كان الشارع خاليًا عدا عن حفنة أطفال وعصافير جاثمة فوق أسلاك الهواتف، وعندما وصلنا إلى مسافة عشرين مترًا منها تباطئنا في المسير، ومن هناك تبين لنا أنها كانت جديدة في الحي زائرة ربما، لم أرَ طوال سكني في الحي فتاة بذاك الجسد الرائع الممتلئ، لم أنتبه لصديقي؛ لأنني كنتُ مصعوقًا بهذا الإغراء، والقامة الهيفاء، والأرداف اللدنة المهتزة لدى كل حركة كرنات الجرس، وتبعث في

نفسي نشوة ونهمًا ولذة وحرمانًا في أن واحد، كنا نمشي ورائها متظاهرين بالحديث لكن أعيننا كانت مصوبة على البدن، لا محيد عنه قيد أنملة، استغرقتُ في لُجة التفكير والتخيل عريتها تمامًا في خيالي الخصب، نزعتُ عن جسدها كل ملابسها قطعة قطعة، ارتفع لهاث صاحبي أكثر وأكثر، جحظتْ عيناه ولمعتا لمعانًا أشبه بوهج اللهب، توقف وهو يمسك بيدي يستوقفني، همستُ إليه والفتاة تبتعد:
- لماذا تتوقف إنها لم تتوقف؟

فأجاب بصوتٍ جادٍ رصين، وهو في حالة ذهول كالمخمور، وقد شحب وجهه:
- لقمان اعذرني لكنني يجب أن أعود إلى البيت حالًا لا أطيق أكثر من هذا.
- ماذا حدث؟، هل تشعر بمرض؟

سألته أسحبه من يده مشيرًا إلى الفتاة التي كانت في تلك اللحظة قد وصلتْ إلى المنعطف:
- لا شيء.. لا شيء.

أجاب بتوترٍ جلي، ثم أخذ يرتجف ارتجافًا عنيفًا.
- ماذا بكَ؟

سألته وأنا أواجهه محاولًا تهدأته ومعرفة ما به، أجاب وهو يمد يده إلى مؤخرة رأسه:
- إنه هناك أشعر برجة كهرباء نتلة كلما وقعتْ عيني على منظرٍ مثير، إنها حالة غريبة لم أخبرها من قبل.
- نتلة شرارة قلتْ؟.. ماذا تعني؟

لم يسمع سؤالي وأنا أزداد حيرة، لم أسمع بمثل هذه الرجة أو النتلة منذ لقائنا الأول قبل ثلاثة أعوامٍ، ودون أن يزد كلمة انطلق بسرعة ليتركني في موجٍ من الحيرة والعجب، ومن مسافة عشرة أمتار وصلني صوته:

- سأعود بعد نصف ساعة.

- نصف ساعة؟

تمتمتُ مع نفسي وأنا أشيعه بنظراتٍ بائسة إلى أن توارى بشلواره المفضفض في المنعطف المفضي إلى بيتنا، ظللتُ واقفًا لثواني في منتصف الطريق حتى بعد أن توارى عن الأنظار، ثم واصلتُ السير عائدًا أجر رجليّ ورائي جرًّا ثقيلًا وأنا أردد مع نفسي:

- يا للمجنون! نصف ساعة لتنفيذ عادته المقيتة.. ما غيره هكذا بهذه السرعة؟

واصلتُ السير وعند المنعطف التفت إلى باب بيته، فأحسستُ بحركة طفيفة كسقوط أوراق العنب على الأرض بزاوية عيني حدقتُ في القضبان الحديدية للقسم الفوقي من الباب وقطعة القماش الأبيض التي تغطيها من الداخل وتحجبها كالستار، أحسست أن هناك عينان تلمعان بين الشق الفاصل بين القماش والحديدة، عيون مَنْ تكون؟ تساءلتُ وتمنيتُ لو كانت عيون فريدة، عاودتُ النظر فإذا الشق قد اختفى وكذلك العينان، وقفتُ برهة أُراوح في مكاني.

الشارع دبت فيه حركة خفيفة، رجال في طريقهم إلى المسجد، وأطفال يركضون باتجاه البرازِي، هممتُ بالمسير فإذًا بحفيف

خفيف من الجانب الآخر عينان تلمعان خلف الستارة المحجبة لقضبان الباب من القسم العلوي، قلتُ في نفسي:
- إنها لا شك عيون تلك الشمطاء.

في تلك اللحظة ظهر ملا نور إمام الجامع الصغير العدم، وهو منحني يلتقط الأوراق من بين مياه المجاري أمام أحد البيوت، لم أستطع إدراك أو تفسير هذا العمل، فلم تكن هذه المرة الأولى يفعل ذلك، فأخذتُ أنظر إليه شذرًا بعجبٍ وأسأل نفسي:
- مجنون؟

فجأة داعبتْ ذهني فكرة وأنا أرى الماء الجاري في المجرى مزبدًا تعلوه الرغوة الكثيفة لصابون مسحوق الغسيل، هرعتُ صوب بيتنا فتحتُ الباب بسرعة ودخلتُ وتوجهتُ إلى الحائط الفاصل بين بيتنا وبيت صفية بن جوو - ابنة اليهودية - نظرتُ إلى أقصى الحديقة الفسيحة فإذا هي كعادتها تقعد وراء برميل الماء تغسل وتفرك الألبسة بقوة بيديها مباعدة بين ساقيها البضتين البيضاويين، وجدتُ نفسي أمام منظرٍ مثير للغاية، هذه هي المرة الثانية أقف هناك أتفرج على هذه الروعة والفتنة، لم أطق عدم النظر، المنظر كان أحلى من الحلم اللذيذ، فقد كانت ساقاها البضتان تصدر عنهما هزة مثيرة للغاية لدى كل حركة يد تقوم بها أثناء الحك والفرك والخلط، تشعل النار في سائر بدني، تذكرتُ.. ماذا أفعل؟ بل عرفتُ جيدًا ماذا علي أن أفعل في مثل هذه الحالات لكن الخوف استولى علي، وبكل حذر التفت يمينًا يسارًا فلم أرَ أحدًا ولم أسمع أحدًا، راودتني فكرة شيطانية في تلك اللحظة لكن التردد أعاد إلي صوابي،

خفضتُ رأسي لأركز تفكيري، هل اذهب وأدع الفكرة الشيطانية (السلمانية) والذي شجعني على الفكرة أنني لستُ في مكانٍ عام بل في بيتي ولا يراني أحد، ولكن قبل أن أستطيع اتخاذ قرار سمعتُ صوت إغلاق النافذة الخلفية لغرفة والدي.

أبي! التفتُ مذعورًا تلقائيًا وصوَّبتُ عيني أجيلها فوق الشباك السلكي المغطي لنافذة الغرفة، نبضات قلبي في تسابق وتسارع وتصاعد حتى خِلتُ أنني أسمع دقات قلبي من داخل تجويف صدري، ثم تساءلتُ وأنا أتراجع إلى حيث الممر الذي دخلتُ منه إلى الفسحة بين الدارين، وأخذت أسأل نفسي وأواسيها وأطمأنها:

- أليس هذا موعد الصلاة؟ أبي ليس موجودًا، أو قد تكون أمي تراقبني أو ربما تارا، ويلي إن كانت هي التي تتجسس عليّ.

أبعدتُ الخيار الأخير إنها لا تدخل غرفة أبي أبدًا، دخلتُ من الباب الخلفي وصعدتُ السلم على رؤوس أصابعي، وعندما وجدتُ نفسي أخيرًا في غرفتي ألقيت بنفسي متهالكًا على سريري الأسود الحديدي، بعد لحظات وجدتني أمد يدي إلى ما تحت سريري بحثًا عن جرائد قديمة كاتمة سرِّي الوحيدة، إنها لا تسمع ولا ترى ولا تعارض إن وقعتْ عليها قطرات من المادة (القاتلة).. وجدتها.

• • • •

(٥)

في اليوم التالي خرجتُ بتثاقل وكسل والهواجس تأز في صدري وتملأ فكري، لو كان هو سلمان توبة لا متعة ولا لهو، وتصبح الجولة إذا عقيمة وخاب ظني فأول ما لقيته حذرني أن لا أُنبهه إذا ما وجدتُ فتاة تمرُّ؛ كي لا يفقد السيطرة على نفسه ويرفع رأسه وتقع عيناه على حرام، وظل يردد عبارات من قبيل.. توبة، استغفر الله.

خاب ظني مضى أسبوع على هذه الشاكلة، وفي اليوم السابع والذي صادف يوم الجمعة وقد اعتدنا الخروج مبكرًا، أي: قبل الظهر في ذلك اليوم، صارحته وقلتُ:

- أنه لا داعي لخروجنا إذا إلى الشارع - وكأن الشارع صار مسجدًا فجأة.

حينها ضحك وصفق بكلتا يديه، قال لي بفرحٍ غامر مبشرًا:

- أبشركَ إنه ينتهي صلاحية (توبة الاستغفار) هذا اليوم بعد الظهر، نعود إلى البيت ونلتقي بعد الظهر، خالي يزورنا ونصلي معًا هو في مسجد ذي المنارة (المنذنة) الواحدة، ذاك وراء السكة الحديدية للقطار.

كانت رأس المنذنة مدورة ككرة مطاطية وفي وسطها تقعر ضئيل بدا كالثقب؛ لذلك سماها البعض بالجراوية أو العقال والكوفية.

قلتُ له بفرحٍ غامر:

- حسنًا وأنا أصلي في الجامع ذي المنارتين.

اتفقنا دون أن أسأله.. ماذا طرأ عليه؟ وما دعاه إلى هذا التحول الفجائي؟ لكنني أكدتُ له أن هناك مباراة مثيرة في الملعب يجب أن لا تفوتنا فأومأ برأسه إيجابًا، ثم مضى في سبيله.

وفي الساعة الثالثة والنصف تمامًا، خرجتُ بنوعٍ من الحذر فقد كنتُ أتلافى ملاقاة صلاح - إن شاء الله - بوجهه الداكن الضيق وأنفه المعقوف وحواجبه المنحنية، وعندما مررتُ بداره وفي اللحظة ذاتها وصلَ مسمعي صوت خافت كحفيف أوراق الشجر، التفت فوجدتُ فريدة تقف بالباب.

- فريدة!

لفظتُ الاسم في حالة من الذهول، تفاجأتُ وراودتني فكرة أن أطلق ساقي للريح، هناك أخوها ينتظرني وربما خالها يختبأ في مكانٍ ما في كمينٍ لي، تجمدتُ في مكاني محتارًا منقسمًا على نفسي، تارةً أقرر أن أخطو إلى الأمام وأواصل المشي، وتارةً أقرر أن أقف وأنتظر، لكن صوتها الناعم بدد كل حيرة وتردد:

- هه لو لقمان.

قابلتني وسحرتني بابتسامتها العذبة، توقفتُ دون أن أرفع رأسي، أثارت انتباهي بحركة ضرب على الباب، فارتفعتْ عيناي تلقائيًا صوبها، التقتْ عينانا.. عيناها المكحلة الواسعة الخضراء البراقة وصدرها الناهد.

كانت ترتدي روبًا طويلًا محتشمًا فوق رداءٍ طويلٍ شفاف، تكشف عن نصف صدرها الموصوف في شعر مصباح: زوج رمان بزهراتها الرمانية كحبات الرمان في اللون والشكل.

بين ضلفتي الباب، وقفتْ وظلتْ تبتسم وتلعب بمشاعري، تفتح الروب ثم تغلقه كالستارة، وأنا غارق في لُجة من مشاعر متناقضة الشعور بالخوف كان أقواها ثم الإثارة، جسدها فجَّر الدم في شراييني فاحمر وجهي وتسارع نبضي في صدري، كل هذا وأخوها في القرب، قلتُ في نفسي:
- إنها إما حمقاء أو جريئة لا تخاف.

ودامتْ فترة الصمت واستمرتْ إغراءاتها وإثارتها، مرة تفتح الروب (رداء طويل) من فوق لتكشف عن صدرها، ومرة أخرى من تحت لتريني ساقيها الرشيقتين الناصعتين، لم أطق الانتظارطويلًا فبسرعة أدرتُ رأسي إلى الجهة الأخرى هلعًا واستغرابا وأخذت أسأل نفسي في عجب:
- ما دهاها؟ إنها طوال أيام المدرسة لم تتصرف بمثل هذه الطريقة ولم تقم بهذه الأعمال الغريبة، فما غيَّرها الآن وبهذا الشكل المفاجئ غير المتوقع؟!.

كل ما وصل إليه عنها جاء عن طريق أخته تارا التي أخبرته حكاية عن فريدة أنها تحب مثلها الاستماع إلى الأغاني العاطفية، وأنها تحس مثلها بضجرٍ شديد أوقات الصيف لطوله وللفراغ القاتل.

ظللتُ واقفًا واجمًا أرفع رأسي إليها وأخفضها بتوترٍ وشرود كالبُله، وهي تقوم بنفس الحركات المثيرة: فتح، غلق، فتح، غلق، وكلما أوغلتْ كلما زادتْ دقات قلبي سرعة، قلتُ في نفسي:
- ربما هي بهذه الطريقة تريد طرد الضجر عن نفسها وترى نفسها وجمالها.

ولكن السؤال المحير ظل بلا جواب.. ماذا تطلب منِّي؟ وبمعنى آخر: كيف سأتصرف إزاء هذا الموقف الجديد حيث لا خبرة لي به؟ ومن ثمّ.. ماذا تروم من وراء هذه الحركات بالضبط؟ فكل ما استطعتُ تعليله كان من باب حدس وتقدير قاصر، وانبرى سؤال آخر أكثر تهويلًا: هل يعرف سلمان ماذا تفعل الأخت؟ وهل يتوجب علي كأفضل صديقٍ له أن أكلمه عن حركات وتصرفات أخته المعوجة؟ قد أكون أديتُ الأمانة لو أخبرته بذلك، بعد تأني قلتُ لها وأنا أنظر إلى المنعطف المفضي إلى المحل:
- فريدة.. لماذا تفعلين هذا إلَّا تخافين أن يظهر لنا أخوكِ؟

ضحكتْ ضحكة خفية، وقالتْ بنبرة جادة واثقة:
- هو يعرف لكن حذرني أن لا أقول لكَ أنه يعرف.
- ما هذا الهراء؟ (تمتمتُ مع نفسي).

أوجستُ خيفةً، واقشعر بدني وتصورتُ أنه قد يفعل بتارا مثل ما تفعل فريدة بي.

رفعتْ ساعدها فظهرتْ شعيرات ناعمة من تحت إبطها اللدن، احمر وجهي وخفضتُ رأسي وهممتُ بالمواصلة، لكنها استوقفتني بحركة ونبهتني بكلمة:

- انظر!

رفعتُ رأسي إليها، فإذا بيدها ممتدة إلى الجهة البعيدة من الشارع المار أمام بيتنا، فإذا بشبح سلمان من وراء وشلواره الفستقي المنتفخ بفعل الهواء يمشي قدمًا بخطى حثيثة، وسبحته تلمع لمعانًا بارقًا تحت الشمس الساطعة.

- إلى أين؟

- لقد تواعدنا أن نلتقي هناك كالعادة.

قلتُ لها باثا شكواي وعدم رضاي، وأنا أزردرد ريقي خجلًا أمامها وإحباطا وغضبًا، ثم أخذت دون إرادة منِّي أسأل نفسي بعبث وبصوتٍ مسموع:

- ما غيرها؟ ما غيرها هي أيضًا؟

لا أدري أعرفتْ ما قصدتُ بالسؤال الملح، لكنها اكتفتْ بالإشارة إلى أخيها المدير ظهره لنا والطائر فوق الطريق، ثم ضحكتْ ضحكة رنانة واستدارتْ فجأة على عقبيها، وبعد أن لوحتْ لي بيدها على عجل اختفتْ بلمح البصر وراء الباب.

استطعتُ اللحاق به في زمن قياسي يدفعني الحنق والرجاء والأمل، وبالقرب من سياج نادي المحلة، أو ما يسمى بنادي الموظفين وصلتُ إليه واستوقفته من وراء، التفتَ جافلًا دون أن يتوقف، من وراء أمسكت بذراعه وأوقفته وهززته هزًّا عنيفًا قائلًا له بحدة:

- ويحك.. إلى ابن؟ ألم نتفق على الذهاب إلى الملعب بعد الظهر، وألم تعرف أن هناك اليوم مسابقة مثيرة بين نادي بروسك ونادي القلعة؟

اعتذر وعلتْ ابتسامته العريضة على وجهه الأحمر كاشفًا عن أسنانه البيضاء الناصعة المرصوصة كحبات اللؤلؤ ما أعاد بعض الهدوء إلى نفسي.

قال لي وهو يخفي سبحته في جيب سرواله الشاسع:
- ليس ذنبي لكن ذنبه هو، هذا المجنون.
- مَنْ؟ مَنْ تعني بـــ هذا؟

سألته وحدستُ مَنْ يكون.

فقصَّ علي قصته، وعلامات عدم الرضا على وجهه الضيق المتورد تحت لحيته الشقراء:
- بعد أن صلينا الجمعة وتناول طعام الغداء لم يعد إلى بيته كعادته؛ لأنه وقع في نومٍ عميق لسوء الحظ، وعندما استيقظ توضأ وأمرني أن أخرج معه لصلاة العصر، فلم يكن منِّي إلَّا الطاعة، وها تراني أسير في إثره إنه سبقني، ومن واجبي أن ألتقي به هناك وعلي قطع مسافة بعيدة إلى ما خلف السكة الحديدية للقطار حيث يقع الجامع الصغير جامع هذا الملا المكروه.

هزَّ رأسه في سخطٍ وتذمر واضحين، ثم قال وعينيه على الطريق متأففًا:
- سأعود إليك حالًا بعد الصلاة وبعد ما ينصرف.

لم يطل الكلام إذ استدار صاحبي وانطلق واصلًا مسيره الحثيث إلى الأمام، وبعد أن اجتاز المنعطف دخل في طريقٍ ترابي مبتعدًا عنِّي بسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ سلمان.

وظللتُ أتأمله لبرهة في سحابٍ من التراب والغبار المتصاعد وراءه حاجبًا ساقيه حتى ركبتيه عن الأنظار، تنهدتُ بحرارة وتأففتُ بمرارة، وتساءلتُ:

- إلى أين أذهب؟

العودة مستحيلة، راودتني فكرة إنقاذية كحل وسط، صحتُ مناديًا إياه من وراء بقوة، وأنا أحاول أن أتبينه وسط إعصار من الغبار المتصاعد بشكلٍ حلزوني:

- انتظر سلمان سأرافقكَ هذه المرة.

• • • •

(٦)

"من أجل السلام ومن أجل خدمة محلتنا خصصتُ وقتًا إضافيا من وقتي الثمين؛ كي أتحدث إليكم كما وعدتكم بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، وكما هو معروف لديكم.. أرحب بكم".

نظف "ملا نور" حلقه قليلًا، همستُ في أذنِ صاحبي سائلًا برجاء:

ـ هل يتحدث طويلًا؟

ـ لا.

ردَّ بهمسٍ ووكزني بخفة من مرفقي كي ألوذ بالصمت.

كان الإمام نورالدين يجلس على أريكة تتسع لشخصين في صدر المجلس حيث كانت هناك صالة كبيرة خصصتْ لهذه المناسبات وأخرى لإقامة مجالس العزاء والفاتحة، كان الجامع متوسط الحجم، كانت المروحة الكهربائية السقفية تواصل دورانها بسرعة؛ لتصب زخات من الهواء المنعش على الوجوه الواجمة المحترة المنكمشة، كان عدد الحاضرين لا يتجاوز أربعين نفرًا، أصحاب الوجوه المغبرة ذات التجاعيد هؤلاء كانوا ينصتون باهتمام بالغ لكل ما ينطق به الإمام، ومن الوقار والهدوء والاستماع بخشوعٍ واحترام تبين لي أن الخطيب كان يحظى بمكانة كبيرة في قلوبهم، ومن هيئاتهم وملابسهم وهزالهم وشحوبهم تبين لي أنهم كانوا في مجملهم من الفقراء والبؤساء ومن الجهلة غير المتعلمين، ولكن المجلس لم يخلُ من المثقفين والمتعلمين رأيتُ معلّمًا وموظفين اثنين، وبسبب بعد المكان قليلًا عن حارتنا عرفتُ منهم القليل، وقد

جلسوا في صفين، جلس في الصف الأول الرجال، وفي الصف الثاني الأطفال والشباب مَنْ لم يبلغ الحُلم، تراوحتْ أعمارهم بين ١١ و١٧عامًا، وكان الإمام ملا نور الدين يرتدي كعادته جبة بيضاء تمتد من فوق رأسه حتى أخمص قدميه، ويرتدي قبقابًا ـ حذاء أشبه بالنعال مصنوع من الخشب ـ لا يخفي سوى ظاهر قدميه، وقد لف على رأسه شالًا أبيض يغطي صفحتي وجهه تحت الأذنين، هيئته بصورة عامة كانت هيئة مَنْ يهتم بالنظافة وحسن الهندام، كان شعره أسود كثًّا، أسنانه ناصعة وعيونه سوداء وجبينه مشرقًا، وقدرتُ أنه قد جاوز الأربعين من العمر قليلًا.
وبدتْ بشرته بشرة إنسان يتمتع بصحة ممتازة، وعزز هذا وجنتاه فقد كانتا متوردتين تشعان وتلمعان، كانت شواربه قصيرة مشذوبة وقد ارتفع أنفه قليلًا من الوسط وفيه انحناءة قليلة، لم يكن مترهلًا ولم يكن هزيلًا نحيفًا وكان متوسط القامة.

أدرتُ بعيني أسبر غور ما ومن حولي، وأتفحص الوجوه فما رأيتُ أحدًا له ملامح هذا الرجل صحةً وجمالًا، سمعتُ يومًا أن إحدى النساء تقول لصاحبتها إن له وجه الأنبياء.. نور نور.

الوجوه الكالحة والملابس البالية التي ارتداها الحاضرون أضفتْ رونقًا وقوةً وهيبة إضافيةً فوق هيبته وهيئته، ومن بين الوجوه وقع عيني على وجه صلاح إن شاء الله الذي كان يجلس على كرسي من الخيزران قريبًا من الملا، وكان ينصت بكل جوارحه إلى حديثه، وينظر إليه شزرًا جنبًا بعينين ثابتتين خاشعتين، شعرتُ بنوعٍ من النرفزة تجاه هذا المنظر، ووددتُ لو استطعتُ أن أترك المكان فورًا.

همستُ في أذن صاحبي بينما كان صوت الملا يعلو وينخفض تباعًا:

- ألّا يكفي فقد جلسنا طويلًا؟

قلتُ ذلك رغم علمي أن خطبته بدأت للتو.

وكزني صاحبي على مرفقي، وفي نفس اللحظة وجدتُ صلاح يحملق فيّ كمَنْ ينوي الانقضاض عليّ، تبين لي أنه رآنا ولم تعجبه همساتنا، فقد كان يحسب نفسه - كما علمتُ من مصادر شعبية - مساعدًا للإمام.

فلم يكن بد من أن أدير وجهي إلى حيث الإمام ملا نور يجلس والذي كان يتكلّم بصوتٍ رخيمٍ هادئ يبعث النوم في الأوصال، ويقول مخاطبًا الجمع:

- على المؤمنين أن يطيعوا أولي الأمر منهم، ومَنْ هم أولي الأمر منا سوى الحكومة، فالحكومة أبونا وأمنا، هم يمثلوننا يدبرون ويديرون أمورنا، فما لنا إلّا الإنصات والطاعة في كل شيءٍ عدا ما حرم الله.

رائحة كريهة خدشتْ أنفي من الداخل، عرفتُ أنها روائح الجوارب القديمة والأقدام المتعرقة القذرة، ضاق ذرعي بالمكان فرفعتُ رأسي عن وجه الملا، فإذا بعيني صلاح إن شاء الله تحدقان مرة أخرى في عيني كعيون الصقر، عيونه كانت حادتين حقًّا كعيون الطيور الجارحة، وأنفه المعقوف زاده شبهًا بالنسر الكاسر، سلَّمتُ أمري إلى الله، وفي رأسي صور الكرة تتناقلها الأرجل لقد بدأت المباراة حتمًا، نظرتُ إلى ساعتي خلسة فإذا هي تقارب الرابعة.

لم أنتبه إلَّا على صوت الخطيب السماوي:
- لدي بعض الإرشادات تخص مجتمعنا، وحيِّنا بالذات، وهذا الكلام موجه وبخاصة إلى هؤلاء الشباب أطفالنا الأعزاء مستقبلنا، وسأختصر..
قطع حديثه وجال بعينيه وجوه الحاضرين برهة، ثم أخذ يرنو إلى بعيد مستأنفًا خطبته:
- وصلتني أخبار وشكاوى من بعض أهالي الحي يشكون من أنهم يسمعون أصواتًا عالية على الشارع المفضي إلى نادي الموظفين - استغفر الله - سكارى، وهم في طريق عودتهم إلى البيت بعد منتصف الليل.
أنصتُّ إليه بانتباه أكبر، فقلتُ في نفسي:
- ربما يقصد شارعنا، فهو أقصر طريق رابط بين الجهة الثانية من الحي والنادي والجامع معًا.. كنتُ أستيقظ أحيانًا على أصواتهم، وحسب علمي وما سمعته من والدي أن أهل الشارع نبهوهم على ذلك، ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع شيئًا يذكر من هذه الشكاوى.
حمحم ونظف حلقه وجال بعينيه عجلًا، ثم نظر إلى بعيد وقال مخاطبًا دون أن ينظر إلى الوجوه:
- الناس ضجرون مستاؤون، وما علينا إلَّا قطع الطريق على هؤلاء، فليختاروا طريقًا آخر غير هذا الطريق، ثانيًا..
توقف ووجه بصره مباشرةً في عيوننا نحن - الجالسين - في الصف الثاني، فقال بلهجة رصينة جافة خالية من أي عاطفة:
- أدعوكم خاصةً أنتم الشباب.

هنا أشار بيده البيضاء الصغيرة إلى جهتنا، جفلتُ، احمر وجهي نظرتُ يمينًا شمالًا، فوجدتُ ولدين اثنين آخرين على يساري وثلاثة على يميني، فشعرتُ بنوعٍ من الارتياح.

ألقى نظرة خاطفة على صلاح الذي أومأ برأسه بخفة واحترام، ثم أضاف بنبرة مشددة:

- أنتم.. أنتم يا معشر الشباب عليكم أن تغضوا من أبصاركم حفاظًا لدينكم وإيمانكم.

توقف وجال نظره على الحاضرين، ثم أضاف:

- تقول الآية الكريمة (قل للمؤمنين أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) - صدق الله العظيم.

تمتم بكلماتٍ بما يشبه الدعاء، ثم رفع رأسه وقال متمتمًا كما يحدِّث نفسه، ولكن بنبرة مسموعة رصينة:

- النظر إلى المحارم حرام.. حرام، كل مسكرٍ حرام، والنظر إلى المحارم حرام كالخمر.

توقف برهة، ورفع رأسه كمَنْ يهيئ نفسه للانقضاض، فجاء بحديثٍ جديد وقال يهزُّ سبابته كالمتوعد:

- إلَّا تعلمون ما عقاب الشارب؟ شرب الخمر شيء مكروه جدًا مبغوض نهى عنه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، حتى يروى أن أحد الصحابة قطع إصبعه بعد أن وقع عليها قطرات بل رذاذ من النبيذ.

وأطلق رصاصة العقاب، فقال بصوتٍ هادر هذه المرة:

- الجلد بالسياط.

سكت كمَنْ شعر بوهن بعد الصرخة، لكنه ما لبث أن عاد بحزم:
- هذا عدا عذاب الآخرة، فهو أكبر من عذاب الدنيا، فالخمر يورث فقدان العقل والدين، لا أدري.. كيف يسعى في جنونٍ من عقل؟!.

ثم صعَّد من صوته وشدد قبضتيه، وصاح كمَنْ يتوعد:
- مروا أمام النادي، واشتموا الرائحة المنبعثة منه والمحلقة في فضائه والمنتشرة في أطرافه، جيفة، رائحة الجثة المنتنة، وهؤلاء اشتروا دينهم بدنياهم فلن يربحوا، اعلموا أيها المؤمنون أن ازدياد رواد النادي مؤشر كارثي، فنصف هؤلاء تركوا المسجد بعد انتهاء الحرب فهؤلاء هم المنافقون، طالما زال الخوف أداروا ظهورهم لربهم واستغنوا عن حمايته وحراسته وحفظه، إن لم يكن هذا نفاقًا وانتهازية.. فماذا إذًا؟ ولكن فليعلموا أنهم سيضطرون إلى العودة لاستماع الكلمة الطيبة وإلى العزاء وإلى المواساة، وطلب الحفظ والحماية من الله من الحرب التي ستشتعل عمَّا قريب نتيجة غضبه وسخطه سبحانه، ومَنْ يقل إن الوضع آمن مستقر؟ فيا أحبتي وإخوتي في الدين لا يغرنكم الهدوء والسلام الزائف، إنه والله هدوء قبل العاصفة.

صمت يحدق في الوجوه يختبر مفعول أقواله بفخرٍ، وفجاة وكمَنْ تذكر أمرًا هامًا مال صلاح إن شاء الله إليه جنبًا وهمس إليه ببعض الكلمات، وبعدما اعتدل صلاح إن شاء الله صوَّب الإمام نظره إلينا، وقال على عجل:
- لن أطيل عليكم أهل الحارة الأحباء، وكما قلتُ فقد اختصرتُ هذه المرة بسبب عملٍ طارئ، أختتم من هنا وأوصيكم خيرًا والسلام.

وانفضتْ الجلسة بسرعة، اندفعتُ إلى الخارج كالسهم يلاحقني صاحبي الذي أمسك بي وهزني متسائلًا:
- إلى أين؟
- إلى الملعب.. هيا.

فتذكر واعتذر، خرجنا بصعوبة من بين الحشد المندفع عبر بوابة المسجد، ونحن نسير صوب السياج الشائك للملعب القريب من حينا حان منِّي التفاتة إلى الوراء، فرأيتُ صلاح إن شاء الله من بعيد يمشي خافض الرأس وراء ملا نور ومجاميع من الناس على إثرهما ناكسي الرؤوس ينظرون إلى الأرض ترضيةً للملا نور الذي وصاهم بغض البصر لدى مرورهم في الطرقات، وأعمدة الدخان تتصاعد من أفواههم كدخان المداخن في فصل الصقيع، وعندما بلغنا منتصف الطريق شاهدتُ بعض علامات عدم الرضا على وجه صاحبي، فقلتُ له متسائلًا:
- ما بالكَ صامتًا؟

قال بفمٍ مزموم:
- إلَّا ترى أنه خير لنا أن نعود إلى الشارع؟

رفضتُ اقتراحه وشجعته على المضي قدمًا معلِّلًا ومختبرًا، فقلتُ له بمكر:
- هناك في الملعب سنلاقي فتيات كثيرات.

برزتْ مقلتاه، ولوَّح بيده الصغيرة إلى الأمام:
- هيا إذًا.

ونحن نسلك الطريق الترابي، قال لي:

- أتعرف أن خالي صلاح دلال للملا نور الدين؟

تساءلتُ بفضولٍ:

- كيف؟.. هل يبيع ملا نور الطرشي والتوابل في سوق المدينة؟

ضحك صاحبي بقوة، ثم وضح:

- لا إنه يمشي ويجول قبيل صلاة الجمعة، أي: من الصباح في شوارع الحي - حي السكة - يحث الناس على زيارة وأداء صلاة وخطبة الجمعة في جامعه الإمام نور الدين، ويوقف المارة ذاكرًا فضائل الملا والموضوعات الهامة الإرشادية والاجتماعية الهادفة التي يتناولها في خطبه، أتعلم.. لماذا؟.

وأجاب بنفسه:

- لأن كثيرًا من أهل الحي، أي: حيهما حي السكة، يأتون إلى جامع ذي المئذنتين الكبير في حينا وإمامه ملا عبد الحكيم وأبي من ضمنهم رغم إعجاب أبي بملا نور.

قلتُ له، وأنا لا أكاد أركز:

- دعكَ من هذا وأسرع.. هيا بسرعة.

أخذتُ أسحب من كُم قميصه بقوة خاصةً بعد أن وصل مسامعنا صياح المتفرجين يعلو من الساحة، قلتُ له وأنا إلى الركض أقرب:

- يبدو أن نادي البرق سجل هدفًا، قلتُ إنهم هم الأقوى.

• • • •

(٧)

في تلك الليلة نقلتُ فراشي إلى الغرفة الصغيرة المقابلة ذات النافذة الكبيرة المطلة على الشارع، أو كما يسميه البعض شارع النادي والجامع، والدنيا والآخرة، والشباب بشارع الجميلات.

كان هناك سرير مشابه لسريري الحديدي الأسود ذي المسند العالي، فلم أجد صعوبة في النقل مجرد نقل الحشية، ولم تكن هناك حاجة إلى لحاف أو غطاء بسبب الحر القائظ، وذلك من باب حب الاستطلاع؛ لأنني ومنذ زمنٍ بعيد لم أسمع صوتًا منبعثًا من الشارع، في الحقيقة أردتُ اختبار كلام ملا نور، وكذلك مراقبة تحركات وكالة العجوز، فمنذ ذلك اليوم الذي رأيتُ العينين من فرجة الباب، شعرتُ برغبة للتأكد ممن يكون.

لم أنم إلى منتصف الليل، ولم أكد أغفو إلَّا جفلتُ لصوت فتح أو إغلاق باب خفيف من الخارج من جهة بيت وكالة وصوت قهقهة مكتومة، قمتُ بسرعة ووقفتُ وراء الستار أنظر من فرجة بين الطرفين، فلاحتْ لي هيئة رجل في وسط الظلام أشبه بهيئة ملا نور، تجمدتْ الدماء في عروقي.. ماذا يفعل في هذا الليل هنا؟ تذكرتُ أنهما أقارب كما سمعتُ ذلك منها مرة أو مرتين.

أصغيتُ السمع، وركزتُ بصري أحدق في الظلام، كان يقف تحت المدرج الذي كان عبارة عن دكة متدرجة تحت الباب الأسود، أما

هي كانت تقف بصورة جانبية وراء الباب وبميلان إلى الأمام بحيث لا يرى المرء إلَّا نصفها.

تفحصتُ هيئته بدقة، فتأكد لي أنه هو وقد ربط شالًا حالكًا حول رأسه وعنقه، سمعتُ ضحكاتٍ مكتومة خافتة، فرحتُ أسأل نفسي مرة أخرى:
- لماذا في الليل وفي هذا الوقت حيث لا تُرى فيه سوى القطط المتحركة؟!

تبادلا بعض الكلام، ومكثتُ أنظر بدقة وحذر؛ كي لا تفوتني أيَّة حركة إلى أن تحرك ملا نور من موضعه، وتقدَّم بضع خطوات غير متوازنة إلى الأمام، وهو يضحك ضحكًا مسموعًا سمعتُ صداه في مكانٍ ما في الشارع لم أتبينه.

كل ما علمته عن العجوزة أنها كانت أرملة، وزوجها المتوفي اسمه عبد القادر يكنى بـ "عبقدر" وأن ملا نور قريب لها يزورها في الشهر مرة حسب اعتقادي، وحتى تلك الليلة لم أره إلَّا نادرًا يطأ بقدميه عتبة دارها.

التفتُ إلى الجهة التي توارى فيها الملا نور، فاستطعتُ وبصعوبة أن أبين شبحه من بعيد تحت المصباح القائم مقابل بيت صفية اليهودية، ورحتُ أُتابع سيره الحثيث إلى أن توارى عن أنظاري وابتلعه الظلام المحيط.

تثاءبتُ وسرعان ما عدتُ إلى الفراش، وصرتُ للتو أسير نوم طويل ثقيل، واستيقظتُ من الفجر لا على صوت أبي يناديني

لصلاة الفجر هذه المرة، بل بسبب أصوات رجالية عالية صاخبة من الشارع يتخللها سعال شديد وبصاق، وصوت ينادي من بعيد:
- انتظر انتظر لي.

قفزتُ من فراشي، ونظرتُ من خلال الفرجة في الستار بحذر حابسًا أنفاسي، فشاهدتُ عددًا من الرجال يبتعدون بسرعة، ومن ورائهم الحاج عبدالله صاحب المحل بكوفيته الرمادية، وسلواره البالي وقامته القصيرة ووجهه الداكن يحث الخطى؛ ليلحق بهم في طريقهم إلى الجامع، وهو يناديهم ويهيب بهم صاخبًا:
- انتظروا توقفوا كي نذهب معًا إلى الجامع.

• • • •

(٨)

من كل المناظر والمشاهد التي رأيتها في الأيام القليلة الماضية، كان منظر فريدة الأكثر حضورًا في مخيلتي وأمام عيني، وقد أثارت خطبة ملا نور اهتمامي وفضولي، ومنظر صلاح إن شاء الله استيائي وإشفاقي، ومنظر ملا نور مع وكالة هانم في الليلة المظلة ارتيابي، أما فريدة فقد أثارت كل حواسي بل زلزلتْ كل كياني وبعثتْ في أوصالي ارتعاشات غريبة لم آلفها من قبل، فمنذ ذلك اليوم لم تبرح ولم تفارق بظهورها بهذا الشكل المفاجئ مخيلتي، يدها تمسك بالروب من الوسط تفتح وتباعد بين الشقين قليلًا؛ لتكشف عن وسطها الرشيق وصدرها المرتفع، ثم تغلقها كما تفعل بالنافذة.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي من زياراتنا للملعب بعد خطبة ملا نور بتثاقل لم أعهده من قبل، وكانت هذه المرة الثانية التي أستيقظ فيها منذ الفجر الباكر والمظلم حيث نادتني أمي للصلاة، صوتها الرخيم لا يزال يطن في رأسي كالبعوضة التي لسعتني في المنام، وكأنني سمعتها في الحلم وأجبتها في الحلم: "سأنزل في الحال".

ولكنني سرعان ما نسيت بل تناسيت وعدت إلى النوم، والذي أيقظني هذه المرة كان الديك المشاكس، والأنكد رافق صياحه الضجيج الذي أحدثه صوان ـ ساج ـ خبز أمي التي اعتادت أن تخبز في تلك الساعة المبكرة من كل يوم سبت.

حركتُ رأسي بتثاقلٍ بالغ، وحاولتُ النهوض فلم أقوَ عليه ولا على الجلوس باستقامة، وأعدتُ رأسي إلى الوسادة الخالية المصنوعة من ريش البط، فعاودني خيال فريدة وحركاتها السينمائية المغرية من جديد، وأخذت أسأل نفسي بشغفٍ وخوف غامض.. ماذا تنوي من وراء كل ذلك؟ ولماذا هذا الرداء الشفاف؟ فشعرتُ في تلك الصبيحة بنشاطٍ غريب في هرموناتي الجنسية، وزاد من هياجها صوت دجاجتي الصائحة تحت الديك.

احترتُ ماذا أفعل؟ كان الصبح أصعب مرحلة من نهاري، فيه وجدتُ نفسي دائمًا في موضع الصعود على هضبة عالية بمشقة وإرهاق على عكس الأمسيات حيث الهبوط والراحة، أما راحتي الكبرى فكانت في المرحلة الأخيرة من اليوم الليل حيث الراحة والانبساط والانشراح لا صعود فيه ولا هبوط، الليل بدا لي كأرضٍ منبسطة مستقيمة مسطحة كساحة كرة القدم.

في غمرة قرقعة أواني أمي وهمسات تارا وصياح الديك وصلوات أبي في غرفته (كهف مصطفى) وجدتُ نفسي أمد يدي إلى ديوان الشاعر الملقب بـــ (أدب) ذي الغلاف الرماني، كنتُ أضعه دائمًا فوق مجلتي المفضلة (صحتك حياتك) ذات الباب المفضل (الغذاء لا الدواء) بجانبي على الأرض الجرداء تحت السرير، قرأتُ القصيدة الأخيرة بغرض حفظها وحينها أكون قد فرغتُ من حفظي للديوان كاملٍ، وذلك بعد مرور أربعين يومًا من البدء في عملية الحفظ، لكن سرعان ما وقع الكتاب من يدي غلبني النعاس، ولم تعد لي رغبة في الحفظ، ولم تطاوعني ذاكرتي في حفظ سطرٍ واحد،

فأعدتُ الكتاب إلى مكانه فوق المجلة، وأخذت أحدق شاردًا خلال الشباك الصغير الصدئ إلى غصنيات الليمون المتحركة المداعبة لقضبانها القصيرة الدقيقة، ورحتُ أنقل بخيالي وذاكرتي مرة أخرى إلى الأحداث التي مرتْ بي في الأيام الأخيرة الغريبة بل الأغرب في كل حياتي، وفجأة طفر سؤال إلى ذهني.. ماذا لو عرف أبي بلقائي بفريدة؟ وهو الذي أبدى تحفظه كثيرًا وشكوكه في حسن سلوك هذه الفتاة الجارة، لكن عزائي كان هو أنه دائمًا يختتم انتقاده لها بعبارة: "ورغم تبرجها وحريتها التامة، فإن سلوكها أو تصرفاتها لا بأس بهما لحد اليوم...".

في غمرة هذه الأفكار المتشابكة والخيالات والأطياف المتحركة، سمعتُ فجأة صوت ارتطام ووقوع على الأرض بعنف أتى من غرفة الطبخ، أدركتُ أنه ساطور أمي الذي وقع على قطعة العظم بعد أن انتزعتْ اللحم عنه، واستنتجتُ أنها تنوي صنع الثريد من العظام، أما اللحم فكانت تصنع منه كفتة أو *دولمة* غالبًا، عضني جوع لا يقاوم، تبين لي أنها تضع اللحم على النار ثم تعود إلى الخبز؛ لأن الرائحة الصاعدة من غرفة المخبز كانت رائحة الخبز الذي تحمره بد تارا على الصوان الهائل المحدب كقبة السماء، تخيلتها الآن تقبع بجانب الصوان الحديدي، تمسك بيدها القضيب الخشبي منكمشًا متكومًا تقلّب الخبز تارة على هذا الطرف وتارة على الطرف الآخر، وتفعل ذلك حتى يتم التحمير والتخبيز، وتتخذ الأرغفة لونها الأحمر وقوامها الصلب الرقيق.

في تلك اللحظة هبطتْ بقة مزعجة عنيدة على ساعدي فصفعتها بمجلتي فأرديتها قتيلة في الحال، أول حادثة قتل في حياتي فلم أفلح إلّا هذه المرة في قتل ذي روح.

شعرتُ بنشوة النصر، سأبدأ يومي بثقة أكبر... دغدغتْ مناخيري رائحة الرطوبة من النباتات الصاعدة من الحديقة تحت، فشعرتُ من جرائها بانتعاش وزال الصداع الطفيف، لكن الهواء كان حارًا جافًا ففتحتُ أزرار قميصي، وتمددتُ على فراشي مادًا رجلي إلى أقصى مدى حتى التصق بالمسند الأمامي، وأخذت أتأمل الشعيرات الناعمة الراقدة على صدري العريض بهدوء، ربتُ عليها بأصابعي فداخلني شعور الفرح والفخر، وقلتُ في نفسي:
- حتى فريدة عاملتني معاملة الشباب لا الصبيان، وإلّا لِمَا كشفتْ لي عن ساقيها وصدرها، ولِمَا أغرتني بهذا الشكل الذي لا يليق إلّا بالكبار.

ومن باب الفضول، توجهتُ إلى الغرفة المقابلة التي شهدتْ أحداث ليلة أمس، فرأيتُ العجوز (وكالة الأنباء) تمشي في الشارع، كانت تسحب رجليها القصيرتين سحبًا وهي تدب تحت الأسيجة دبيبًا إلى جهة غير معلومة، مشيتها هذه سميناها بمشية البطة، كان هناك تقوس ظاهر في عظام رجليها، القصر والتقوس معًا جعلاها تمشي كما تمشي البطة مباعدة بين ساقيها، مما أضفى على قامتها قصرًا إضافيًا، وفي نفس اللحظة جلجلتْ ضحكتها المكتومة لملا نور في راسي، فأخذتُ أحدث نفسي من جديد:

- ماذا كان يفعل في تلك الساعة من الليل؟ ولماذا رأى الورقة ولم يلتقطها كعادته أثناء مروره نهارًا في شارعنا؟ والكل قد عرف أنه لا تقع عيناه المجهريتان على أصغر قطعة ورق في مياه المجاري إلَّا وينحني ويلتقطها ويضعها في كيسه النايلون أسود اللون، ثم كلماته في خطبة العصر: "نحن يجب أن نغض من أبصارنا، وشرب الخمر حرام وعقوبة شربه عذاب اليم".

كان الوقت لا يزال باكرًا جدًا لمثل هذه الملاقاة، واختفتْ كل الصور لتحل صورة سلمان محلها، وأخذت أسأل نفسي:
- هل زيَّن لحيته اليوم؟ وهل يقول توبة أم خلاص؟ ماذا سيسمعني أيَّة نغمة؟

وفجأة لاحتْ لي صورة فتاة شبه عارية على غلاف مجلة ملقاة على وجهها بعيدًا عن السرير، لم أتنبه إليها طوال الوقت تعجبتُ.. كيف لم يقع بصري عليها؟! يبدو أنها وقعتْ من فوق كومة المجلات التي كنتُ أضعها أحيانًا على حافة النافذة قبل إخفائها في داخل طيات الملابس في الخزان الخشبي في الركن المقابل للسرير، كانت صورة فتاة شبه عارية إلَّا من لباس وصدرية (بيها)، حسناء تتمدد على شاطئ بحر مياهه زرقاء صافية رقراقة هادئة، سرتْ رعشة خفيفة في أوصالي وارتفعتْ درجة حرارة بدني، في نفس اللحظة وقعتْ ذبابة على دقائق من الجبن المتساقط على الأرض، فألهتني عن الصورة فأخذتُ أتأملها ثم طردتها بيدي، وعادتْ عيناي إلى الصورة التقطتها ورفعتها أمام وجهي، وأخذت

أنظر إليها طويلًا بنهمٍ ورغبة وبكل حواسي إلى أن أخذتني سنة لا تقاوم، واستسلمتُ أخيرًا لنومٍ عميق دام طويلًا.

حلمتُ، احتلمتُ احتلامًا، رأيتني في منامي أني كنتُ متمددًا بجانب الحسناء في الصورة، أحطتُ ساعدي حول خصرها الدقيق وصدرها البض وألصقته بصدري، كنتُ على وشك أن أقبلها كما فعل جيمس بوند مع الحسناء في الفيلم، ولكن غشيني فجأة خوف رهيب بسبب ما قد ينتج عن المحاولة من صفعة على خدي، ثم تذكرتُ أن الغربيات يضاجعن حتى الغرباء قبل الزواج، أوروبا حرة ـ كما قرأتُ وسمعتُ من صاحبي نقلًا عن أبيه ـ طرتُ معها إلى عالم الحب والمتعة، الجوع ألح علي وكان جوعًا من نوعٍ آخر هذه المرة، فرائحة اللحمِ هذه كانت تختلف عن رائحة كباب وثريد أمي، فار الدم في عروقي واهتز كل عصبٍ وعرق في جسدي المحتر المهتاج، نسيتُ من جرائها داء الخوف فأخذتُ أعض على اللحم اللدن الطري الطازج لنهديها أقضمها قضمًا، فكنتُ كمَنْ يلتهم لحمًا طريًا غير مشوي على البلاج، لكن هذا اللحم اتخذ اللون الأحمر تدريجيًا بفعل الشمس الحارقة ـ كما الأوزة المشوية.

وما هي سوى لحظات إلى أن شعرتُ بأن جسدي قد تحول إلى جمرة، إلى موقد.. نار حامية، وفي غمرة الهياج الشديد وفي اللحظة التي كدت أن أبلغ الذروة معها أيقظني وهزني صوت قوي حاد يناديني من تحت وبتكرارٍ وإلحاح مشوبًا برائحة لحم أمي الصاعد من الطباخ، رفعتُ رأسي المثقل وأصغيتُ السمع مليًّا، كان الصوت صوت أبي الآتي من الممر تحتي هذه المرة:

- انزل للحديقة..!

جفلتُ وتنهدتُ وشكوتُ في قرارة نفسي:

- ما هذا القاسي الذي يأمر أبي بأن يفسد علي حياتي ثمنًا لما بعد مماتي..!

• • • •

(٩)

في اليوم التالي جرتْ الأمور كما أشتهيها، خرجنا إلى العراء نمشي على الأرض الصلبة مرورًا ببساتين الخضروات والنباتات الصيفية كالبطيخ والخيار، أسرني منظر النباتات الناعمة الزاحفة على الأرض والتي تحمل ثمارًا بعدد أوراقها، وخاصةً البطيخ بكل أنواعه وألوانه الزاهية: أخضر، أصفر، برتقالي، أبيض، أسود، رصاصي وغير ذلك، ومن بعيد رفع صاحب الحقل ملوِّحًا ورددنا السلام، كان ممتدًا على حصيرة والدخان يتصاعد فوق رأسه، وقد أسند ظهره إلى كومة من الملابس والبطانيات، وقد بدا أنه لف فراشه واتخذ منه وسادة، لم نتوقف إلى أن بلغنا أعمدة الكهرباء الضخمة ذات الضغط العالي، والتي نهاني أبي أكثر من مرة من الاقتراب منها، كانت هذه الأعمدة تنقل الطاقة من مدينة كركوك وبغداد إلى مدينتنا عالية شاهقة مريعة، وقفنا تحت إحداها وأمسكنا بقاعدتها الحديدية بعد تردد والوجل يملأ قلبينا، هل يصعق أم لا؟ كان سلمان قد زيَّن لحيته وبدا أنه عاد إلى حقيقته، قلتُ له وأنا أقرع الحديدة بعصبية:

- هل صليتَ البارحة؟

نظر إلي شزرًا، وقال باقتضاب:

- نعم.

بدا عليه التعب والخمول، سألته عمَّا به أجاب بيأس:

- لا أدري.. ماذا يحدث لي بعض الأحيان؟ أخاف أن يكون قد حدث شيء لدماغي.

قاطعته بعد أن لاح على وجهه حزن شديد، وقلتُ له مشجعًا:

- لستُ بأحسن حال منكَ.. لستُ وحدكَ.

قعد على الأرض وقعدتُ بجانبه، مدَّ رجليه في سرواله المفضفض ومددتُ رجلي أمامي بموازات رجليه، كنتُ أرتدي قميصًا أزرق مائي مع بنطال سرج رصاصي مائل للسواد، أما لون سرواله فكان فتحًا بين الخضرة والصفرة، انتشرتْ حفر من مختلف الأنواع والأحجام حولنا، خرجتْ سحلية صغيرة ومدتْ لسانها مرات متتالية ونظرتْ إلينا بعيون جاحظة كمَنْ يستفسر عن سر تواجدنا إلى جوارها، غرز صاحبي يده في التراب جمع قبضة وألقاها على الدويبة، وسرعان ما عادتْ من حيث أتت، الطيور تحلق بأنواعها وتشكّل أسرابا بأشكال هندسية جميلة، ثمة غراب يميل في طيرانه كمَنْ يستكشف أمرًا أو خبرًا لثبات صحته أو عدمه، وأخيرًا استقر على الصارية الواطئة للبرج الهائل فوقنا، طيور بلون التراب تلتقط شيئًا من الأرض ثم تختفي، الأشواك من حولنا تنتشر بصورة متفرقة، كانت المنطقة تبدو قبل أشهر كبساطٍ أخضر مستوي، السنابل المتراقصة والسنونو المحلقة وزهور الهيرو - زهر بري عالي رفيع بلون البنفسج أو النيلي خاصةً، يبرز رأسه فوق السنابل العالية، فيبدو من بعيد كرأس إنسان يرفع رأسه فوق أقرانه؛ ليرى بفضول ما يجري، اشتقت لتلك الأيام وتمنيتُ لو كانت كل الفصول ربيعًا، قلتُ لصاحبي وكان غارقًا في بحر التأملات، كانت أحلام اليقظة تستبد به غالبًا:

- بماذا تفكر؟

قال بأنة مكتومة:

- لا أدري.. ما سر هذه الشرارة في مؤخرة رأسي كلما وجدتُ نفسي أمام منظرٍ مثير؟.

ربتُ على كتفه، وقلتُ له على سبيل المداعبة:

- إنها رجات كهربائية، قد تكون عمودًا كهربائيًا دون أن تشعر.

سكتُ أستطلع سريرته، فلاحتْ ابتسامة صغيرة على شفتيه الغليظتين، أضفتُ قائلًا متشجعًا:

- لو وضعتُ مصباحًا كهربائيًا في فيِّكَ لاشتعل وأنار.

فجأة وكزني سلمان في خصري طالبًا منِّي السكوت، وهو يشير إلى بعيد قائلًا بتهدج وروع:

- إن له مشية خالي.. أسرع.

ثم بنفسه:

- ولكن.. إلى أين؟ إنه رآنا.

التقط حجرًا ضخمًا من الأرض وغرز رأسه المدبب في الأرض، ثم ناولني حجرًا آخر والتقط آخر لنفسه، ثم تراجع وتراجعتُ معه إلى الوراء، وأنا أعرف أي لعبة اختارها صاحبي، وجعلنا نتراجع إلى الوراء خطوات سريعة انفعالية إلى أن توقفنا على بعد عشرة أمتار، وهناك أشار إلي أن أرمي وجعلنا نرمي على الهدف المنصوب، وكل منا يحاول إسقاط الحجر هناك، عين على الحجر وعين على الشخص الذي كان يتقدم بتؤدة وهدوء إلينا، همس صاحبي بصوتٍ مرتج:

- إنه صلاح خالي بالتأكيد.. ارمِ.

ورميتُ وأصبتُ الحجر، صفق بيده بشرود ثم أخذ يمسح عرق جبينه الضيق بظاهر كفه، ثم التفتَ إلى القادم وتظاهر أنه يراه لأول مرة، ولوّح له مناديًا بعد أن وصل إلى مسافة عشرين مترًا منا:
- مَنْ خالي؟ هل صحيح ما أرى؟
تسمر صاحبي في مكانه تسمرتُ أنا بدوري بجانبه، نراقب مشيته السريعة العجيبة، فقد كان يمشي رافعًا قدميه وثانيًا ركبتيه كالسائر في الماء، وجّه إلي السؤال بغتةً فاجأني به، وبدون أن ينتظر ردًّا منّي قال منتقلًا إلى شأنٍ آخر بعيد فسرّني:
- أراك كبرتَ رجل بشوارب - ما شاء الله.
ثم حدق في عيني، وقال كاشفًا عن أسنانٍ بيضاء عدا نابيه المصفرين، وقال لي بنبرة رصينة:
- أعلم يا ولد أن أباكَ من أكثر الرجال تمسكًا بالدين الحنيف ورع تقي ومثال الرجل الصالح، وأرجو أن تكون على سيرة أبيكَ.. يا ولد.
كم أحببته لوصفه إياي رجلًا كبيرًا بشوارب، وكم كرهته لوصفه لأبي في تلك اللحظة، وفي ذلك الزمان والمكان بحيث دبتْ الشكوك إلى قلبي، وأخذت أتساءل مع نفسي: هل أنا أمام محاضرة من أبي بالنيابة؟.

لحسن الحظ لم يحدث ما خشيتُ ولكن الذي حدث كان أغرب، فقد أحنى عنقه الطويل بغتةً وأشار إلى الأرض بسبابة أشبه بعودٍ من الخشب، وأخذ يتحدث إلى الأرض تحته بصوتٍ ينبع من الجمجمة:
- أرض أرض أينما نذهب سندخل جوفكِ، أنت مأوانا ومنزلنا، فبماذا نزهو ونفرح والحزن أقرب؟! وسنرقد تحتكِ والتراب مأوانا

فلا تفتك، نحن تراب وأرخص من ترابٍ، سنعود إليك قريبًا، يا تراب يا تراب فلا تعتب، فكن رقيقًا رفيقًا بنا لا تسلِّط ديدانكَ وعقاربكَ علينا ولا تغضب، نحن ضيوفكَ إلى يوم يحشرون، فهل تقبلنا ضيوفًا عندكَ؟.

ثم انحنى انحناءة وركع ركوعًا بخشوع الأنبياء، وقبَّل الأرض ومكث للحظاتٍ طوال على هذه الصورة العجيبة في نظري، كدتُ أتجنن أنقل عيني بين صاحبي وخاله، صاحبي بدا معتادًا على ما رآه بعينيه، فلم يقدِّر مقدار خوفي وهلعي أمام المشهد، كل ما أردته في تلك اللحظة أن يذهب أو تبتلعه الأرض حالًا.

رفعتُ رأسي أدعو الله أن ينتهي كل شيءٍ بسرعة وينصرف هذا الثقيل، وقررتُ إن طال بقاؤه أن أعود إلى البيت، لكنه سرعان ما واصل سيره بعد أن طبع قُبلة على جبين سلمان قائلًا له:

- لا تنسَ الصلاة في أوقاتها، وكما قلتُ لكَ: أرض الله واسعة، الله ييسر ولا يعسر، لو لم تجد ماءً فستجد ترابًا طهورًا.

ثم مضى في سبيله دون أن يرفع رأسه إلي بالتوديع، ظللنا نشيعه بأعيننا إلى أن اختفى وراء الكثبان، التفتُ إلى صاحبي فوجدته يضحك ملئ شدقيه:

- خال مجنون، ربما أكون مجنونًا مثله يقال ثلث الولد على الخال - لا سمح الله.

ثم أشار لي بفمٍ مزموم وبهدوءٍ بأنه حان الوقت كي نعود، فعدنا أدراجنا بمزاجٍ حامضي، وفي الطريق قال لي:

ـ خالي يقول: "إن ملا نور ـ دامت بركاته ـ ولي الله وله كرامات، وأنه تعلَّم منه كثيرًا.. ومرتبة الولي لا يصل إليها أحد إلَّا بالخلوة والصلوات وبعد جهدٍ جهيد، وبعد أن يترك الدنيا وما عليها".

كانت الشمس قد مالت إلى الزوال، هبَّ هواء عليل بارد جفف العرق من على وجوهنا وأعناقنا، عرقي كان مبعثه الحر مضافًا إليه الانفعال لكل الأحداث الغريبة التي مرتْ بي خلال يومٍ واحد، وأخذت أحث الخطى، ولم يجد صاحبي بدًا من أن يحذو حذوي وأن يفعل بالمثل، أردتُ العودة إلى البيت بسرعة كمَنْ يهرب من الأشباح، تراءتْ لي مخلوقات غريبة وديدان وعقارب تخرج من الأرض تحت أقدامي.

وطالما وطئتْ أقدامنا الشارع العريض من نهايته الجنوبية حتى طلب منِّي أن أقرأ عليه أبياتًا من شعر (مصباح) كان هناك في الجوار موقف باص، فأشرتُ إليه أن نجلس قليلًا، فجلسنا على كرسيين صغيرين من الحديد البارد ملاصقين، وحينها وخزته بمرفقي وسألته:

ـ أريد أولًا أن أسمع منكَ شيئًا عن خالكَ، فأنا أراه لا يشبهكم في شيء.

هزَّ رأسه، وقال بعجلٍ:

ـ ليس الآن.. ليس الآن، سأخبركَ كل شيءٍ في حينه، المهم أن تعرف أنه إنسان معقد جدًا.

ـ أعرف.

قلتُ له وأضفتُ:

- ولكن.. ما سبب تعقيده هذا؟.

اهتم سلمان وظهر على وجهه البشوش تقطب جلي، ثم سحب نفسًا وقال:

- تراه حتى لا يشبهنا في الملامح.

ثم تدارك:

- كان جذابًا وسيمًا جدًا، لكنه على عكس أمي بلا حظ.

- كيف؟ (سألته بفضول)

أجاب وقد لاح على وجهه مسحة من الضيق، فقلتُ في نفسي هذا آخر سؤال، أجاب وهو ينظر إلى الحائط المقابل:

- أصابه مرض فجائي فصار طريح الفراش، جرب جلدي - كما سمعتُ من أمي - والأطباء في مجملهم قالوا: "إنه مرض نفسي أثر على نفسيته".

سكت هنيهة وسحب نفسًا وطال صمته متفكرًا منتقيًا، ثم أضاف:

- تقول أمي: "السبب يعود إلى الإمام الذي كان يتلقى الدرس على يديه؛ يخوفه عذاب جهنم ويغريه بالجنة، فترك الدنيا حتى زهد في الدراسة" بأذني سمعتُ أبي تلبيةً لرغبة أمي ينصحه ليل نهار ويذكر له فضل الدراسة، كان ذلك منذ أكثر من ثمانية عشر عامًا، فإذا به يشير فجأة إلى الأرض: "أرض أرض ستبلعني أخيرًا فما جدوى دراستي وسعيي" كاد أبي أن يتجنن وهو يهمس لأمي التي بكت عليه: "إنه غسل دماغه، هذا الإمام حرَّم عليه الدنيا؛ كي يتمتع هو بنفسه.. لماذا لم يزهد هو بسيارته وقصره وزوجتيه؟" وحينها انفجر أبي وصبَّ جام غضبه على هؤلاء الدجالين.

طال تجوالنا هذا اليوم وامتد ساعة إضافية، فشعرنا بأن أقدامنا أصابها الكلل ودبَّ فيها الألم، فتوقفنا لتحية الوداع وكان الوقت يقترب من المغرب، وفجأة ارتجت الأرض ارتجاجًا تحت أقدامنا، انطلقنا نركض في اتجاه الحشد المتجمع في وسط الشارع، والذين كانوا بدورهم يركضون ويؤشرون في اتجاه النادي حيث ارتفع دخان أسود والغبار والأوراق الممزقة إلى عنان السماء، كانت تارا واقفة بالباب عندما وصلتُ إلى البيت، كانت عيونها تدور في محجريهما في رعب ترتجف كالمحموم، ثمة نسوة وفتيات في وسط الشارع تقوم كل منهنَّ بدورها في تقديم تفسير وتكهن عن سبب الانفجار، ارتفع صوت زوجة إبراهيم القصَّاب سروة خانم اللحيم والتي أصابت برأيي:

- إنه انفجار قنينة الغاز.

التفتُ إلى جهة منزل فريدة، فرأيتها تقف مع أمها في الباب تلوِّح لي من بعيد كأنها كانت تراقبني وتنتظر هذه الالتفاتة منِّي، لم أرَ كاكه هادي كعادته، فقد كان ضد الاختلاط والتجمع إلَّا أنه كان لابد من ذلك.

- أين أمي؟ (سألتُ تارا)

أجابتْ، وهي إلى الموت أقرب:

- فوق السطح.

رفعتُ رأسي لم أرَها، وفي نفس اللحظة دوى صوت من فوق رؤوسنا، فارتفعتْ الأعين جميعها إليها، وكالة هانم كانت تمسك بجهاز مكبر صوت صغير بين يديها كمَنْ كانت تفعل في مثل هذه

الحالات، اتجهتْ الأنظار إليها جميعًا، كانت تقف على عتبة باب بيتها الأسود فوق السلالم الخشبية، كانت تزعق وتصرخ بصوتٍ أشبه بالنعيق:

ـ يا أهالي حينا الكرام لا تقلقوا ولا تخافوا كل شيءٍ مر بسلام، لا مقتول ولا مجروح ولا إصابة ولا لي شيء.

وارتفعتْ أصوات هادرة من الشارع المقابل:

ـ فماذا حدث إذًا؟ أنبئينا يا وكالة الأنباء.

وجاء صوتها الأغن ببرود هذه المرة:

ـ لقد تفجرتْ قنبلة يدوية خلف أسوار نادي الموظفين.

كانت هذه القنبلة أخف وطئًا وأقل أثرًا من القنبلة التي أعقبتْ هذه، ففي اللحظة التي كنا نتأمل الدخان المتصاعد من على أسوار النادي البيضاء، لفتت نظري أمي في عباءتها السوداء تهرع صوب المحل وبيدها دجاجة، وللتو وجدنا أنفسنا ننطلق كالريح صوب المحل، اقتربنا منها فإذا هي دجاجتي الشقراء وقد تدلى عنقها فوق صدرها في حالة مزرية، ارتعتُ لِمَا رأيتُ، سألت أمي بارتجاجٍ وأنا أنحني وأتأمل الدجاجة متفحصًا:

ـ ما الأمر؟ وماذا حصل؟

أجابتْ أمي بصوتٍ مرير:

ـ وضعتْ بيضة بصفارين، فتمزقتْ مؤخرتها من جراء ذلك ـ كما أظن.

انتقلتْ عيني تلقائيًا إلى الخلف، فرأيتُ خيطًا من الدم اليابس منحدر من تحت ذيلها، والآثار واللطخ الحمراء منتشرة على ساقيها، وبيضتها كانت ملطّخة بدمها.

- يا للمسكين!

لفظتْ أمي العبارة الأخيرة والغصة تعترض حلقها، دنوتُ منها وانحنيتُ عليها، وقلتُ لأمي:

- سنداويها، أمي.

قالتْ لي بشفتين ملتويتين:

- لن ينفع، ابني.

قلتُ لها بإصرار:

- بلى سينفع.

التفتُ إلى صاحبي فلم أجده، وبدلًا رأيتُ صاحب المحل يقف في مكانه، وبحثتُ عن سلمان هنا وهناك فلم أجده، سألت أمي فطأطأتْ برأسها، وقالتْ:

- لا أدري.

تكلّم العجوز أخيرًا:

- ذهب من هذه الناحية.

وأشار إلى الشارع الذي يمر أمام بيتنا إذا عاد إلى البيت، قلتُ في نفسي متعجبًا مذهولًا:

- في حياته لم يتركني قبل أن يقول كلمة الوداع.

طَردتُ سلمان من رأسي، فأنا أمام حالة يجب معالجتها بسرعة تبادلتُ أنا وأمي النظرات، وقلتُ لها أهيب بها:

- هيا إلى البيطري.
ولم تتحرك أمي، انحنى العجوز وأخذ يقلِّبها بين يديه، وبعد النظر الدقيق رفع رأسه، وقال بلهجة الواثق العارف:
- إنها على وشك الموت (تحتضر) إن لم نفعل شيئًا فلا علاج ولا لحم.
فأخذتُ أصيح رغمًا عنِّي:
- لا لا لا..
طارتْ عيني بين عيني أمي الفزعتين المترجيتين وعيني الدجاجة المغلقتين بغشاءٍ أبيض رقيق، فتأكد لي أنه لا حل سوى الذبح، أغمضتُ عيني عندما عاد العجوز خارجًا من داخل المحل، وبيده الساطور:
- بسسسسسم الله.
قرأ العجوز البسملة بـ (سين) طويلة جدًا، عندها كنتُ قد برحتُ المكان طائرًا لا أدري إلى أي مكان.

• • • •

(١٠)

استيقظتُ على صوت ضجيج، هزات، صيحات، وقع أقدام، ركض، ارتطام.. ماذا حدث؟ ومن كل الأصوات كان صوت أبي أرفعها وأعلاها، أصغيتُ السمع تارا كانت معهم إذا عادتْ، آثرتُ الانتظار، كثيرًا ما نصحني أبي أن لا أتدخل في الأمور إلّا بعد أن يطلب هو بنفسه منّي ذلك... نهضتُ بتثاقل وصداع في رأسي شديد، ألقيت نظرة من خلال النافذة إلى الخارج فكانت أشعة الشمس غامرة لكن الحرارة كانت قد خفتْ كثيرًا، فاستطعتُ أن أدرك أن النهار في طريقه إلى الزوال، وقفتُ متكأً على مسند السلم فوق، تأكد لي أن الأصوات كانت آتية من غرفة تارا، كان أبي يتحدث إلى أختي بعنف وأمي تطلب منه الهدوء، سمعته يقول بنبرة حادة مخنوقة كمَنْ يضغط على حنجرته:

ـ وصلني خبر أنكِ زرتِ السينما مع تلك الفتاة ابنة هذا الزنديق، لا أسمح لكِ بزيارة هذه الأماكن إنها دور الفسق والفجور.

فغر فاي من العجب.. هل يعني أبي حقًّا ما يقول؟... قرَّبتُ رأسي أكثر ثم هبطتُ السلم درجتين، وهناك سمعتُ تارا تدافع عن نفسها بصوتٍ تخنقه العبرات والتنهيدات:

ـ لم نشاهد فيلمًا من النوع الرديء كانت مجرد مخترعة، رأيتُ فتيات أخريات من بنات حارتنا ومدرستنا في الصالة.

ارتفع صوت أبي ممزوجًا بنداءات أمي التوسلية بالهدوء:

ـ الخبر يقول: "إنكِ شاهدتِ فيلمًا لهذا المطرب المخنث" لا أدري ما اسمه.. فيلم سخيف كله قُبلات، عناق، وكلام فاحش لا يليق بإنسان شريف خلوق مؤمن، مشهود له بالخلق الرفيع وصاحب مبادئ محافظ على التقاليد مثلنا، عيب، عيب.
اشتدتْ دهشتي.. كيف عرف الفيلم؟ علمتُ أنه كان فيلم باسم (الخطايا) للمطرب المصري عبد الحليم حافظ، وكان في نيتي مشاهدته مع سلمان في اليوم التالي لعرضه، والفكرة لا تزال سارية المفعول لحين يستعيد صاحبي توازنه المختل، الذي لا أعرف سبب اختلاله هذه المرة، هل رؤيته لأخته بهذا الإغراء والأباحة أصابته بصدمة، أم تأثر بموت الدجاجة، أم نفخ خاله فيه جرعة جديدة من جرعات الحرام والحلال والتخويف بالموت وعذاب القبر؟ كيف عرف أبي، كيف درى؟ منْ أخبره؟ تساءلتُ باحثًا في خزان ذاكرتي عمَّن يكون المخبر، قد يكون أحدهم تطوع وذهب يستخبر ويتجسس لحساب أبي، ولكن كل ذلك لم يخرج من باب الشكوك والتكهنات.
صمت تام ساد الجو العام تحت تنفستُ الصعداء، قلتُ في نفسي:
ـ هدأتْ الزوبعة هذه المرة أيضًا بأقل ضرر والحمدلله.
لكن سرعان ما خاب ظني ورجائي، ارتفع صياح أبي من الجهة الأخرى ووقع أقدامه مهرولًا في الدهليز (الممر) تحتي، يبدو أنه ذهب للمطبخ وعاد، الحيرة القاتلة تسارع نبضي حتى صرتُ أسمع دقات قلبي كقرع الطبول في صدري، نزلتُ درجة أخرى من السلم متهيأً للتدخل مهما كانت العواقب إن اقتضى الأمر، لكن صراخ أبي جمدني في مكاني:

ـ انظري يا ملعونة...

وفي نفس اللحظة انطلق صوت أمي كزئير الأسد تصرخ وترعد:

ـ لا.. لا.. اترك هذا، دعه يا مجنون عيب عليكَ تهديد فتاة مسكينة بالساطور، المسكينة لم تقترف ذنبًا.

حان دوري للتدخل إذًا، فقد وصلتْ إلى الساطور والحلق والذبح، وهل هناك أمة على الأرض تملك أعدادًا من السواطير بقدر أمة محمد؟.. هبطتُ السلم بأقصى سرعة مرتعبًا، وجدتُ أمي تمسك بيد أبي وتنتزع ساطور اللحم الكبير من يده دون مقاومة من أبي، كانت أمي لا تخاف أبدأ في أوقات الشدة، ثم أخذت بيد أبي الذي بدا عليه الإرهاق الشديد وكان العرق يلطخ وجهه، وقد وقعتْ نظارته منه، وقد تبعثرتْ أزرار قميصه الطويل على أرضية الغرفة جراء جرها له في حالة عصبية هستيرية، جذبته برفق وهي تهدئ من أعصابه بالكلام اللطيف وعبارات من قبيل: أذكر الله، اقرأ الشهادة، أنت مسلم والمسلم يكظم الغيظ، رفعتْ رأسها فلمحتني واقفًا في باب المدخل، فإشارات لي بغمزة من عينيها أن أبتعد، ففعلتُ مهمومًا محسورًا.

في الليل عندما هدأ كل شيء وغطّ والدي في نومهما، تسللتُ إلى غرفة تارا بعد أن تأكدتُ أنها لم تكن نائمة، ثمة ضوء خافت يتسرب من خلال الجزء الزجاجي العلوي من باب غرفتها، طرقتُ الباب طرقًا خفيفًا، وصلني صوتها وهو لا يكاد يسمع:

ـ أدخل لقمان.

كانت مستلقية على سريرها في ردائها الأصفر الطويل، لفتَ شعرها بغلالة بيضاء تمتد إلى منتصف صدرها، الدموع المتجففة

لا يزال لها أثر تحت وجنتيها، إنها بكت حديثًا، أمامها تمسك بيديها مجلتها المفضلة تتظاهر بالقراءة ولم تكن تقرأ بل تفكِّر، وتحت المنضدة الصغيرة صحن السُمَّاق مملوء إلى نصفه، قرآنها الصغير معلق في كيسه الأخضر من الحرير الناعم فوق رأسها، كان هناك خزان ملابس ذو ثلاثة أبواب مصنوع من شجر الصاج (الساج) منتصب في الركن الكائن خلف الباب، مسحتْ دموعها بكم ردائها وهي تلحظ دخولي وجلوسي على الطرف الأقصى من السرير في صمتٍ وحزنٍ بالغين، كانت ممتقعة الوجه، فقد زادتْ شحوبًا على شحوب ونحولًا على نحول، أنستُ على مسحتها تساؤلات وعلامات تعجب عدة من باب: لماذا؟! وكيف؟! فذاب قلبي لها، شعور جامح انتابني ونزعة غامضة حثتني لأن أهجم على أبي، لكنني استطعتُ أن أكبح انفعالاتي وأسيطر على أعصابي، فسألتها دون أن أنظر إليها وبكل لطفٍ ورقة:

- سمعتُ أنكِ شاهدتِ الفيلم.. أليس كذلك؟.

أومأتْ برأسها في صمتٍ.

- وزرتِ السينما بدون إذنٍ من أبي وإذني.

حينها رفعتْ رأسها وركَّزتْ عينيها على وجهي، ولكنني تجاهلتُ نظراتها النارية، وفي نفس الوقت أحسستُ أني أسمع صوتها المكبوت في سريرتها:

- ومَنْ أنت حتى استأذن منكَ؟

- ومع فريدة، ومع فتيات كثيرات من أهل الحارة والمدرسة؟

- نعم.

أجابتْ بصوتٍ مخنوق، فقلتُ لها وقد ارتفع صوتي قليلًا:

- تارا، الأمر الذي يدهشني أنني لم أسمع منكِ يومًا أنكِ تحبين السينما هكذا، وبهذه الشدة بحيث تورعتِ وتحديتِ إرادة أبي.
تنهدتْ ثم ألقت بالمجلة على الأرض، وأدارت بوجهها إلى الحائط، وقفتُ بجانب السرير وقلتُ برصانة المسؤول:
- اسمعي تارا، لقد قُبض عليكِ بالجرم المشهود وعليكِ الاعتذار.
فجأة نزلتْ عليَّ فكرة استوحيتها من تبدُّل تصرفات سلمان، فقلتُ لها مستدرجًا إياها وأنا أتكلف اللطف إلى أبلغ درجة:
- أكنتما وحدكما أم كان هناك ثالث معكما؟
كان لسؤالي هذا مفعول الجمر على الجلد، فاستقامتْ واستدارتْ بعنف، ورمقتني بنظرة مفترسة وهي تكشر عن أسنان كأنها أنياب:
- الويل لكَ.. بأي حقٍّ توجه لي مثل هذا السؤال السخيف؟.
ثم أدارتْ وجهها إلى الجهة المعاكسة - كومضة برق أضاءتْ لحظة وتلاشتْ بومضة عين - أحنتْ ركبتيها وسحبتهما إلى صدرها وغرزتْ رأسها بين ركبتيها، ومن اهتزازات كتفيها وظهرها أدركتُ أنها تبكي وتبكي بحرارة ومرارة، مرتْ ثوانٍ عصيبة، وأخيرًا قالتْ دون أن ترفع رأسها لي ولكن بنبرة تحدي مبطنة:
- ألَا تخرج أنت للسينما مع صاحبكَ؟
قلتُ لها:
- بلى، ولكن أبي لا يسمح لكِ ومن ثمَّ إن أردتِ يمكنكِ الذهاب معي، فكثير من الأسر المحافظة يصطحبون بناتهنَّ وأخواتهنَّ ويرافقونهنَّ إلى الأماكن العامة.
ارتفع نحيبها:
- إنها المرة الأولى.. ما كفرتُ.

وجدتُ نفسي في موقفٍ صعب، فآثرتُ السكوت والتهدأة، وضعتُ يدي برفق على كتفها، وقلتُ كمَنْ يشاركها آلامها ملقيًا اللوم كله على أبي:

- تذكري إذا وصل الأمر إلى حياءٍ وشرف يستحيل أبي إلى غول رغم كونه مسالمًا طيبًا، ثم لا تنسي فضله وتضحياته الجسام من أجلنا.

تنهدتْ ولم تنبس، وأضفتُ:

- كان عليكِ أن تقولي لنا وتخبرينا أولًا.

أجابت وهي ترفع رأسها وتنظر إلي بإشفاق وعيون تضاهيان الدم حمرة:

- لقد كانت صدفة، مناسبة سعيدة، ففي السوق انتهينا من شراء ما نحتاجه من الملابس، ثم رأينا بعض الزميلات يذهبنَّ إلى السينما فراق لنا أن نجرب.

ثم بعد تردد:

- لا تنسَ أن فريدة لا تحب السينما كثيرًا وأنا كذلك، لكن زرناها لمجرد تبديل الجو ولقاء صديقات وزميلات لم نلتقِ بهنَّ منذ تعطل المدارس.

سكتُ أُفكِّر ومن باب الفضول قلتُ لها:

- أتدرين أن فيلم الخطايا فيلم يناسب الفتيان أكثر من الفتيات.

صبرتُ ريثما يأتيني ردها ولم ترد، وأفضتُ بنبرة عتب وتأنيب:

- وأن فيه من القُبل والعناق الكثير.. فيلم رديء.

تأوهتْ ولم تنبس.

• • • •

(١١)

كان باستطاعة المرء أن يراها من بعيد، كانت الغابة تقع في الطرف الغربي من المدينة، وكانت تبدو للناظر من بعيد ككتلة مستديرة من الخضرة.
الغابة هذه كانت المكان المفضل للعشاق ولنزهة العوائل في أيام العطلات وفي المناسبات، وذلك لجمالها وأشجارها والماء الجاري في سواقيها والهواء النقي، سلكتُ الطريق القصير الترابي وسط البيوت، كانت تفصل بيني وبينها محلتان شعبيتان ذات كثافة سكانية عالية، ولو كنتُ اخترتُ الطريق المبلط لامتدت المسافة إلى الضعف، في ساعات الظهيرة كانت هذه المحلات الشعبية تكتظ بالأطفال والنساء، وكانت الشوارع تتحول إلى ساحات كرة القدم، والنسوة الملتفحات بالعباءات السود كنَّ يتربعنَّ على عتبات منازلهنَّ، ويخضنَّ في دردشات صاخبة، ويتبادلنَّ أخبار الساعةَ والنكات والإشاعات حديثة الانتشار يتخللها شرب الشاي وأكل الجرزات، مثل: حبة عباد الشمس، وحبات الكوسا (شجر - باللهجة العراقية) المحمصة، وبين الفينة والفينة يلقينَّ نظرات عجال على أولادهنَّ الحوافي في الشارع.

كنتُ أكره المرور في طرق كهذه لكن الرغبة والسرعة عاملان هامان، حاولتُ قدر الإمكان تلافي والابتعاد عن الأماكن المزدحمة المكتظة بالسكان، ولهذا السبب توقفتُ في البداية وقررتُ العودة إلى الطريق الخالي الطويل، وتراجعتُ إلى الوراء حينما لاح لي

من بعيد أطفال ونسوة لكنني سرعان ما بدلتُ رأيي لكسب الوقت، وبعد خروجي بشق الأنفس من الزحمة والضجيج أخيرًا وأنا أسير في طريقٍ مستقيمٍ هادئ نوعًا ما، رجعتْ إلى مخيلتي كلمات سمعتها من كاكه هادي الذي لم أره منذ زمنٍ بعيد لكثرة مشاغله كما سمعتُ من فريدة وسلمان: "الحياة قصيرة يجب استغلالها أفضل استغلال، وليس هناك خير من التمتع واللعب واللهو لكن في حدود المعقول والاعتدال" كنتُ أحبه رغم الإشاعات المنتشرة حوله، من ضمن هذه الإشاعات أنه منذ عودته من الخارج ضعف إيمانه ويتفوّه بأشياء غريبة، ويقوم بأفعال عجيبة، حتى ذهب بعضهم بعيدًا وزعم أن به مس من الجنون، حتى ذهب أحدهم مذهبًا أنه دنس كافر لا لشيء سوى أنه كان يومًا يحمل جروًا بين يديه ويضمه إلى نفسه.

تزاحمتْ الأفكار في رأسي، فماذا لو رآني أحد أسير في ذلك الاتجاه؟ فصرتُ أمشي محاذيًا لأسوار المنازل تحت الأشجار الظليلة، وبعدما قطعتُ الطرقات الضيقة وجدتُ نفسي أسير على الشارع العام المزدحم بالمواصلات، وهناك ومن بعيد تراءتْ لي الغابة الخضراء المسيجة المحاطة بسياجٍ من الأسلاك الشائكة، وتنفستُ الصعداء وأحسستُ بهدوءٍ مشوبٍ بالحذر، عبرتُ الشارع وصرتُ أمشي مرة أخرى في طريقٍ ترابي امتد على جانبٍ منه صف من البيوت المبنية حديثًا وأنصاف البيوت، ومن هناك لاح لي باب الغابة فتسارعتْ دقات قلبي.. أحقًّا سألتقي فريدة هناك؟ أأنا.. أنا الخجول؟ يا لي من عديم الحياء! هل علمني أبي مغازلة فتيات الحارة؟ أبدًا لكن.. أليس هو الذي قال إنكَ رجل الرجال لا يخجلون

ولا يخافون، ألستَ في السادسة عشر من العمر؟ لم أغفُ من تساؤلاتي إلّا بعد أن وجدتني أعبر البوابة الحديدية الكبيرة المزنجرة (الصدئة) وبعد أن اجتزتها بدأتُ أمشي خلال أشجار السرو والصنوبر الملقيتين ظلالهما المخروطية على قارعة الطرق الضيقة الترابية وسط خرير السواقي والجداول الصغيرة الصافية. دغدغتْ خياشيمي رائحة الأغصان الطرية والعشب العالي الذي كان يغطي المكان كله، كانت الأشجار كثيفة متقاربة بحيث لو جلس أحدهم خلف شجرة من هذه الأشجار الملتفة حول نفسها لن يحس بوجود شخص آخر إلّا إذا صدر من هذا صوت أو حس أو حركة، أكثر من مرة تعلّق ذيل بنطالي الطويل الجارلز - موضة الزمان - بأشواكٍ ناتئة من تحت أشجار الصنوبر، وأحدثتْ فيه خدوشًا مختلفة الأحجام بيضاء اللون في معظمها، سرتُ وأنا ألتفتُ وأنصتُ بكل انتباه مستكشفًا المكان بدقة بحثًا عن أشخاص موجودين أو عشاق آخرين.

المكان المتفق عليه كان يقع في أقصى الغابة، المكان المفضل لدى العشاق بعيدًا عن أعين الفضوليين، وفجأة تذكرتُ أنني قد نسيتُ شيئًا، عدتُ وبسرعة وصلتُ إلى الباب الكبير قبل فوات الأوان وجلستُ عند أول مصطبة، الخوف غلبني كان المكان مكشوفًا، وقد رآني كل مَنْ مرَّ خلال الباب إلى الداخل، فعملتُ المستحيل كي لا يتعرف علي أحد، تارة بالتظاهر بقلع الزهور والأعشاب من الأرض، وتارة بالتظاهر بطرد الذباب والبق المتطاير من فوقي وحولي.

انتظرتُ ربع ساعة عين على الساعة وعين على الطريق، تذكرتُ كلمات أبي في جلسة الشايِ مع أمي، إنه يفتخر بي كابنه وتمنى لو كانت أختي هي الأخرى ابنًا لا بنتًا، شعرتُ بنوعٍ من الازدواجية نحو أبي، لماذا كل هذا التخوف والمعاملة القاسية؟ لماذا سمح لي بزيارة السينما وأخرج ساطورًا كبيرًا في وجه أختي؟.

انتبهتُ بغتةً لصوتٍ رقيقٍ عذب من ورائي، تلفتُ تلقائيًا إليها، كانت تتلفع بعباءة سوداء تغطي كل بدنها وفرعها الفارع، تسمرتُ في مكاني لا أقوى على النهوض، واكتفيتُ بتفحصها بدقة وهي تمشي بسرعة مبتعدة عنِّي تشق طريقها وسط الغصينات الشائكة دون وجل ولا توقف، أهي هي؟ ومن مكاني ناديتُ وراءها:

- فريدة؟

أخرجتْ معصمها بأساورها الذهبية من كُم العباءة، وهتفتْ بي بصوتٍ مكبوت كمَنْ يتكلَّم تحت اللحاف:

- اتبعني من بعيد.

ففعلتُ... سارتْ في ممرات الغابة الضيقة بسرعة، لم أوفق في مجاراتها حتى كدتُ أفقد أثرها أكثر من مرة، كانت طويلة الساقين مثلي، سرتُ وراءها إلى أن أتينا فسحة دائرية تحيط بها شجيرات السرو والصنوبر إحاطة السوار بالمعصم، وتحت إحدى الأشجار كانت تنتصب مصطبة عتيقة متهرئة، وإشارات إلي بالجلوس ففعلتُ ودقات قلبي تطغى على صوت الرياح المارة فوق أسطح الشجيرات الخضراء، ألقت نظرة في الأرجاء ثم جلستْ على الطرف البعيد من المصطبة، انتزعتْ أولًا حجابها ثم ملاءتها

(عباءة) إلى النصف بحيث استطعتُ أن أرى وجهها وصدرها وبطنها ويديها إلى المعصم، وهذا كان كافيًا لي، لم تكن فريدة تضع مساحيق ألبتة ولم تهتم كثيرًا بزينتها، ولكن ذلك لم يقلّل من جمالها بل أضفى عليها جمالًا طبيعيًا، قلتُ لها وهي تضع حقيبتها الصغيرة بجانبها وتستعيد أنفاسها:

- أمتأكدة أنه لم يرَكِ أحد؟

أومأت ولم تنبس وسحبتْ نفسًا طويلًا، وقالتْ:

- إنه أفضل مكان، لكن علينا الحذر من خالي أخاف من أنه يظهر لي من تحت الأرض.

ثم لمعتْ عيناها وصررتْ على أسنانها:

- لا أخاف منه لأنه رجل، وخالي.. لكن أخاف عليه من تلويث سمعتي.

قلتُ لها مطمئنًا:

- لن يفعل وإن فعل فإنه بهذا سيلوث سمعته نفسه أولًا.

قالتْ:

- إنه معقد.. أعتقد أنه لا يشبهه سوى سلمان.

أحسستُ بغيرة لصاحبي، وقلتُ مفندًا زعمها:

- لا يشبه سلمان في شيء، سلمان يلعب ويلهو ويستمع إلى أشعاري.

هزتْ رأسها موافقة بالإيجاب، وتمتمتْ بألفاظٍ لم أفهمها، ثم اقتربتْ منّي وقالتْ وحرارة نفسها وطيبها تهف على وجهي الشاحب من الهواجس والخوف:

- دعك من هذا، فخير لنا أن لا نضيع وقتنا بخالي وأخي أو أبي.

ساورني ارتباك وحيرة.. ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟ حرتُ جوابًا، وفي نفس اللحظة وجدتُ نفسي فجأة في فيلم رأيته مع سلمان، فقلتُ في نفسي:

- ربما تكون الخطوة الأولى هي وضع يدي في يدها، والضغط عليها.

ذعرتُ لهذه الفكرة.. أنا؟ في إحدى الأفلام تلقى الفتى صفعة بدل القبلة فلا أنتظر، أحسستُ بحركة منها بطرف عيني اليسرى شاهدتها تزيح العباءة من خصرها فبان جسدها الرشيق المتتلئ، تدفقتْ الدماء الحارة في عروقي وشراييني، ستبادر هي إذًا ظلتْ لثواني تبتسم في وجهي كاشفةً عن لآلئ متراصة رصًا دقيقًا أنيقًا، سحبتْ نفسًا ثم قالتْ لي وهي تضع يدها الناعمة في يدي، وسألتني سؤالًا لم أتوقعه:

- هل رأيتَ الفيلم؟

هززتُ رأسي بالنفي.

- كان فيلمًا غراميًا رائعًا.

قالتْ وهي تسحب نفسها لتقترب منِّي أكثر، قلبي يحترق، أنفاسها تلهبني وجهها صار على قيد متر من وجهي، قالتْ وهي تزيد الضغط على يدي:

- طبع قبلات طويلة عدة مرات على فم الممثلة.

ثم وهي تتأوه:

- قبلات طويلة، وظلا متعانقين متلاصقين كجسدٍ واحد.

- تارا رأت القبلة إذًا؟ (سألتُ)

مالتْ برأسها الجميل إلي فسقط شعرها الذهبي الطويل على صدري وكتفي، وقالتْ بصوتٍ ساخر وساحر:
- لا تارا أغمضتْ عينيها في تلك اللحظة، قالتْ: حرام حرام، ثم همستْ في أذني في ظلام الصالة: متى ما انتهتْ اللقطة نبهيني، والقبلة لم تنتهِ ودام انتظارها، وهي تسألني هامسةً في أذني: خلاص؟ فأجيبها: لا بعد، ثم مرة أخرى: خلاص؟ ليس بعد.

يا للمسكينة.. يا للمكدودة! عبرت لحبيبي بهذه الخلاصة خلاصة معاناة تارا.

اقتربتْ منِّي أكثر حتى التصق كتفها اللدن بكتفي، فداعبتْ رائحة زكية من تحت إبطها خياشيمي، غمرني شعور بنشوة غريبة، فجأة رأيتُ شفتيها البضتين تقتربان من شفتي، وقالتْ بشغفٍ وقد راق لها الكلام عن الفيلم:
- في المرة الأخيرة وقعتْ في الفخ.

برزتْ مقلتاي، هدأتني بعصر يدي قائلةً وهي تكبتُ ضحكة مكتومة:
- في المرة الثانية، وقبل أن تصل القبلة إلى نهايتها سألتني: خلاص؟ قلتُ: نعم، فرفعتْ يديها من على وجهها ونظرتْ إلى الشاشة وهي تفرك عينيها، وما هي إلَّا لحظة وتارا تطبق راحتيها بكلتا يديها على وجهها من جديد، وهي تكبتُ سخطها وتطلق عبارات الويل والثبور في أذني، وبلغ الحنق بها مبلغًا أن قامتْ بقرصي ثلاث مرات بقوة في إبطي، قفزتُ من الألم حتى أنتبه لنا

مَنْ حولنا في الظلام، أعادتْ يدها إلى وجهها وهي تغمغم مع نفسها كمَنْ اقترفتْ جريمة أو إثمًا مبينًا: عيب حرام، عيب حرام.
أردتُ أن أقول شيئًا محذرًا إياها أن لا تشجعها على مشاهدة مثل هذه الأفلام فهي لا تناسبها؛ لأنها ليستْ لها الحرية مثلكِ، فمثل هذه المشاهد ستضرها وتحدث إحباطا في نفسها شديدًا، إلَّا أن فمي انغلق خُيِّط خياطة رقيقة لا بالإبرة بل باللحم، لحم طري طازج بضٍّ ناضج ورضاب، وشيء كاللسان انسل بين ثنايا أسناني كدتُ أعضه عضًا وأطبق عليه أسناني، لكنها أحاطتني بذراعيها ثم شدتني إليها وأطبقتْ صدرها على صدري، التويتُ الضمة كانت قوية ومفاجأة فوقعتُ على ظهري على المصطبة الخشبية، وألقتْ بنفسها علي واستدتْ مائلةً بجنبي صدرها فوق صدري ساقيها فوق ساقاي مطبقتان كجرمين متصلين متلاصقين حتى اختنقتْ أنفاسي، تركتُ شفتيَ لها، خفتُ أن أصيبها بعطب فالنشوة كانت عارمة، وصرتُ نهمًا أقضم وأمص، حسبتُ نفسي في مشهدٍ من ذروة الاحتلام، بعد ثوانٍ تباعدتْ الشفاه والحر يتصاعد منها كالدخان من الجمر، واستقمنا في جلستنا ونحن نلهث بعنف كمَنْ انتهى للتو من سباق مائة مترِ عدو، تلاحقتْ الأنفاس لخرق جدار الصمت السائد حتى الطيور توقفتْ عن التغريد، من زاوية عيني اليسرى لمحتُ وجهها المتورد وهي تسترد أنفاسها، وبعد أن استعادتْ توازنها وسوتْ ما تشعث من شعرها اعتدلتْ في جلستها، وقالتْ لي وشفتاها أقرب من أنفي إلى فمي:
- قل لي حاجة.

نظرتُ في عينيها الواسعتين الصافيتين، وأردتُ أن أسألها.. ماذا تقصد بهذا الطلب؟ فرمقتني بنظرة تتطاير شررًا وإصرارا وارتفع صوتها بلهجة آمرة:

- قل: نول* لي حاجة

نول لي حاجة

أي حاجة، أعد

أي حاجة

نول أحبك، أعد

نول أحبك

لا يا فطير، قل أحبك أحبك، بلى قل

قل أحبك

لا لا أحبك أحبك

أحبك

طبعتْ قبلة خاطفة على خدي ارتجف لها جسدي، ورأيتُ أنها تتلذذ بارتجافي وتأثري بقبلاتها، في تلك اللحظة كدت أن أحلف أنا في حلم.

- قل كرهتكِ، أعد

هنا تناولتُ يدها لأول مرة مبادرًا، وقلتُ في حيرة:

- أنا أحبك لا أكرهكِ.

---

* نول باللهجة المصرية تعني (قل).

ضغطتْ على يدي تعصرها، فانبعثتْ رنة خفيفة من أساورها وألحتْ:
- قل كرهتك
قل كرهتك
كرهتك، بس كرهتك
كرهتك

ثم فقدتُ أعصابي، وصحتُ:
- لا كفى..
ونهضتُ أحدق في عينيها، وبحركة من يديها سحبتني من يدي وأجلستني بالقوة إلى جانبها، كان الميني جوب التي كانت ترتديه تحت العباءة السوداء قد انحسر تمامًا عن ساقيها في تلك اللحظة، وعادتْ هذه المرة تغني باللهجة المصرية، وتحرك يديها وأظافرها الحمراء بحركة مَنْ يقف وراء المايكروفون:
- ئول لي حاجة، أي حاجة، ئول أحبك، ئول كرهتك، ئول ئول، ئول لي ما يهمكش حاجة ئول أحبك ئول كرهتك...

أومأتُ لها مستحسنًا، وصفقتُ لها بكلتا يدي بدون إصدار صوت عالي، أطبقتْ بسبابتها على شفتيها عموديًا، وقالتْ وهي تبرز عينيها وتحذرني بصوتٍ خافت:
- هششششش! لا يسمعنا أحد.

ثم أضافت مأخوذة بنشوة الأغنية:
- هكذا كان المطرب يغني لفاتنته في الفيلم.

بادرتها بسؤالٍ خطر لي:

- وهل تجيد تارا الغناء مثلكِ؟

قالتْ ومرتْ سحابة قاتمة مر السحاب على محياها اللطيف:

- تارا، تارا.. يا للمسكينة!.

سكتت وهي تهزُّ برأسها هزاتٍ خفيفة كالمهمومة، ثم انفرجتْ شفتاها ولكنها لم تنبس، قلتُ لها وأنا أحاول استدراجها:

- هل تحسين بأن هناك ميلًا ما من سلمان تجاه تارا؟

ردتْ للتو:

- هو صديقكَ ربما أنت تعرف أكثر.

ثم بعد تفكير:

- أعتقد أن سلمان لا يحب المحجبة كما أظن ولكَ أن تسأله.

ثم أضافت وهي تحدق في وجهي بشيءٍ من البرود:

- تارا إنسانة كتومة ليس من السهل معرفة ما بقلبها، وعمومًا ألاحظ هذه الأيام أنها ليستْ سعيدة، هناك شيء ما بداخلها ربما تريد الإفصاح عنه ولا تفصح لأسباب ربما تعرف أنت بعضها..

أحسستُ بلدغة زنبور في بعبارة (أنتَ تعرف بعضها) لزمتُ الصمت متشتت الأفكار ، لاحتْ لي صورة تارا أمام عيني وبدا لي التناقض بين هذه التي تجلس بجانبي، وبين تلك التي تستمع إلى أغاني شادية أغاني نسائية لا رجالية صونًا لشرفها ولعفافها، وهي تلتف في ردائها الرمادي الطويل، فلم أجد أي نقطة تشابه أو التقاء بين الفتاتين، بل كان شبه أختي بـ (وكالة) - بهيجة قاله قوره - أقرب من شبهها بفريدة.

أردفت بعد أن وضعتْ رأسها على صدري، وهي تتنهد:
- لكنها تحبني حب عبادة.

وبغتةً ترامتْ إلينا أصوات تقترب مسرعة كمَنْ يبحث عن شيء، أصوات وصيحات متداخلة واستفسارات من قبيل: أين؟ متى؟ ولغط وأصوات غصينات تتكسر وأقدام، تجمد الدم في عروقنا ألقينا بأنفسنا دون وعيٍ في ثنايا أشجار الصنوبر الشائكة بحيث اختفى كل الجسد إلى الرأس، نتقصى بأعيننا ونشم بأنفينا ونسترق السمع ونبضات قلوبنا تكاد ترتفع فوق أنفاسنا المتلاحقة المتسارعة، وبين الفينة والفينة كنا نتبادل النظرات في رعبٍ وفزع وترقب، وطار اللون من وجوهنا وغدونا كالأموات لونًا وهمودًا، لحسن الحظ لم تقترب الأصوات واللغط أكثر، وتبين لي أنهم يدورون باعتباطٍ وبلا وجهة معينة باحثين عن شيءٍ مفقود من غير تحديد اتجاه معين، أي: تفتيش عشوائي، همستُ لها وقد مرتْ الثواني ثقيلة كالساعات:
- أاستطعتِ تمييز صوت مما سمعتِ.

لم تجب وبدلًا أخبرتني خبرًا للاطمئنان:
- سلمان مسافر اليوم إلى القرية.

سكتت ثم بتلعثم وتقطع:
- أما الآخر يعني خاله صلاح فلا أعرف.. كل شيءٍ جائز.. لا أدري.. لا لا.. لا أعرف.. قلما يأتي إلى هنا.. لا..

انقضتْ خمس دقائق قبل أن تسكن الأصوات تمامًا، فخرجنا من المخبأ ننتزع الأشواك العالقة بملابسنا والمنغرزة في أيدينا وأرجلنا، عدنا إلى مكاننا نجلس في صمتٍ مطبق كمَنْ استفاق من

كابوسٍ رهيب، لحظات طوال مرتْ وطعم القبلة لا يزال عالقًا على شفتي، ولكن فقدتُ كثيرًا من حلاوتها بعد ما حدث، وقد قضى الخوف والوجل على رغبتي وأملي في ترقب وتوقع المزيد من هذه الحلاوة، رأيتُ أن أمد الصمت طال، فقلتُ لها وأنا أجتهد أن أبدو الرجل الذي لا يهاب:

ـ فريدة يجب أن لا تخافي ما دمتُ أنا بجانبكِ.

جهرًا ومع نفسي مغمغمًا:

ـ معكِ رجل، وبشهادة أبي وأمي وأختي وخالكِ المعقد.

وفعلًا لم أكن أهاب شيئًا، الخوف لم أعرف ما معناه وأعني بالخوف الخوف الحقيقي مستثنيًا من ذلك الخوف من العار أو الفضيحة، كنتُ أخاف من ألسنة الناس، ومن التهم، ومن أبي لا من شيء آخر.

ولكي أُريها أنها مع رجل بدأتُ أنا بالمبادرة هذه المرة، فأحطتُ خصرها الدقيق بساعدي وضممتها إلي بقوة تأوهتْ من جرائها، لم تتجاوب كثيرًا ولم تطمأن إلى اطمئناناتي، فتبين لي أنها فقدتْ قليلًا من الحماس، ورغم ذلك لم أرَ على وجهها ما يدل على خوف أو تأثر كبير، قالتْ وهي تداعب شعرات صدري النواعم:

ـ خالي مصدر قلق لي أكثر مما هو مبعث خوف، فقد علمني أبي أن لا أخاف من شيء حتى من كلام الناس، لكن لا أريد إثارة سخط خالي.. إنه مريض وله مشاكل جمة فلا أريد أن أضيف مشكلة إلى مشاكله العائلية.

الموضوع أثار فضولي، فرحتُ أستزيدها وأحدق في عينيها كمَنْ يستكثر، فهمتْ ما يدور في رأسي فراحتْ تسترسل في الحديث عن نفس الموضوع:

ـ خالي لديه مشاكل مع زوجته هذه الأيام، وربما لحسن الحظ.

توقفتْ وجالتْ بنظرة يمينًا وشمالًا ووراءً وأمامًا، فلم تجد سوى ممراتٍ ضيقة تشق عباب شجيرات السرو والصنوبر المتداخلة ـ كما الموج يفعل بالبحر، ثم واصلتْ براحة:

ـ زوجة خالي زينب لا تحب من كل ما في الدنيا سوى المال، بذخة مسرفة وتطلب حاجات وأشياء ليس في مقدور خالي توفيرها لها، فهو رجل له راتب موظف بسيط وأحيانًا يعمل لوقتٍ إضافي في عيادة طبيب الأسنان كمنظف، لا يمر يوم إلَّا يحدث نقار بينهما، فهي تنعته بصعلوك متسول وتهينه، وبأذني سمعتها تقول له ذات مرة: لو كنتُ عرفتُ أنكَ معدم وصعلوك ومتسول لما تزوجتكَ، خدعني أهلكَ وكذبوا علي وقدموا أوراق رسمية تشهد على أنكَ تملك عقارًا ودارًا وسيارة عندما تقدمتم لخدمتنا وخطبتنا، ثم تبين أنها كلها كانت أباطيل، نصبوا لي شركًا وفخًا فوقعتُ فيه، والسبب هو غباء أهلي ودهاء وخداع أهلكَ.

تنهدتْ ثم واصلتْ بشيءٍ من المرارة:

ـ شغفها بالمال والثروة والإنفاق لا يوصف بلسان ولا بقلم، نعم إنفاق هوايتها الإنفاق، المهم عندها أن تصرف وتدفع ولا يهمها ماذا تشتري.. هي من صنف اللواتي اتخذوا من التبذير هواية.

وضعتْ رأسها على كتفي، ثم قالتْ بصوتٍ ضعيف كمَنْ تخشى أن تسمع وقربتْ فاها من وجهي أكثر:

- إنه حتى يقال - لستُ على يقين - إنها تذهب إلى ملا نور إمام الجامع الصغير للاستدانة، فيا للعار إن صح القول، لا لا أنا أستبعد ذلك.

ثم وهي تنظر في شرودٍ إلى الأمام:

- ثقته في هذا الخطيب عمياء لقد غسل دماغه، وملا نور هذا غمز لي أكثر من مرة في طريق عودتي من المدرسة وحيدة، ولو حلفتُ الآن فسوف لا يصدقني أحد إلَّا أبي، وأكون أنا التي ستلام أنا التي غمزتُ له لا هو لي.

جفلتُ وحدقتُ في عينيها الواسعتين الخضراويين اللامعتين، فلم أجد سوى الإصرار، فقلتُ لها بانفعال:

- لا أعتقد أنه إنسان صادق في إيمانه، أنا لي شكوكي.. احذريه.

أومأت بالإيجاب، مرتْ لحظات فإذا هي وبدون سابق إنذار تلقي بصدرها الناهد على صدري، وتطبق بشفتيهاعلى شفتي لنغيب في قبلة طويلة، وكانت هي التي تمص وأنا الممصوص - حسب تعبيري، ارتجت لهذه القبلة الشهية هذه المرة كل أوصالي وأخذت أرتعش كمَنْ أصيب برجة كهربائية، وبعد أن رفعتْ شفتيها عن شفتي وانفصلتْ عنّي عادتْ ترتب شعرها من جديد، وهي تمصمص بشفتيها.

غمرني في تلك اللحظة شعور غامض، فقلتُ لها ويدي تعبث بخصلات شعرها الذهبي الكثيف مبهورًا بالقبلة والطريقة والجودة:

- أرى أن قبلاتكِ قبلات مجرب خبير، فمن أين تعلمتِ قبلة الفم للفم؟.

ضحكتْ بمرح، ثم أوضحتْ بفخر:
- تجارب إنها نتيجة تجارب.
- ماذا قلتُ تجارب؟ ماذا تقصدين؟

سحبتْ نفسًا وأغمضتْ عينيها كمَنْ تستذكر الأحداث، ثم قالتْ وهي تبتسم ابتسامة مغرية في وجهي:
- نعم تجارب، لقد جربناها أنا وتارا أيضًا.

وقعتْ الكلمات علي كالصاعقة، وفجأة وجدتني أمسك بمعصميها وأقول لها بنوعٍ من الحدة:
- ويحكِ.. ماذا تقولين؟.

ثم أخذت أحدق في وجهها طالبًا الإيضاح، لكنها قابلتني بابتسامة مرحة ساحرة، فضحكتُ رغمًا عنّي ظنًا منّي أنها تمزح، فإذا بها تضحك بالمقابل ولكنها ومن دهشتي أجابت مؤكدة الخبر:
- هل تريد أن تسمع القصة؟

لم تنتظر الجواب، فواصلتْ كلامها:
- الحقيقة أننا لنا في البيت رأس تمثال رأس لامرأة سوداء من الجص مصبوغ باللون الأسود الغامق، معلق على أحد الحيطان في غرفتي، وراودتني يومًا فكرة بدافع الفضول أن أطبع قبلة على شفتيه الملونتين بلونٍ أحمر قان، وذلك لا لشيء إلّا لكي أتعلم طريقة قبلة الفم للفم كتجربة واختبار - كما قلتُ لكَ، ولمجرد فضول.

ثم وهي تلف عنقي بساعديها وسط ذهولي، قالتْ لي بكل ثقة والابتسامة الساحرة لا تفارق ثغرها الشهي:
- فلولا التجربة لعضضتُ على شفتيكَ بدلًا أن أقبلهما.

بقدر ما أعجبتُ بكلامها بقدر ما اندهشتُ، فقلتُ لها مداعبًا وأنا لا أخفي إعجابي:
- يا ماكرة، يا شيطانة، إنها فكرة ممتازة لتعلُّم القبل سأحاول أن أجد مثل ما لديكِ.

هي سارعتْ بالقول:
- لا داعي رأسي أفضل من رأس تمثال على أيَّة حال، أليس كذلك؟.

احمر وجهها من الغيرة - كما أظن - وعاجلتها بسؤالٍ قفز إلى رأسي للتو:
- وتارا.. ما دخل تارا بالأمر؟ أليست هذه بنظرها حرام؟.

فأجابتْ مبررة مفسرة وهي تزداد التصاقًا بي:
- نحن فتيات وليس معنا فتى فلم نجربها مع فتى، وقبلة الأنثى للأنثى شيء يختلف كما تعلم، فالأنثى ليستْ حرام، ومن ثَمَّ فهي لم تفعل شيئًا كل ما حصل هو أنني أخبرتها يومًا ونحن نتحدث فوق سور السطح بالفكرة فأعجبتها كثيرًا، وحينها أخبرتني أنها تتقن نوعًا آخر من القبل: القبل الهوائية، فأرسلتْ لي قبلة شفهية بطريقة متقنة رائعة، طبعتْ أولًا قبلة على راحة يدها اليمنى ورمتها باتجاهي بيدها تلك والتي تلقفتها أنا من جهتي براحة يدي، وفعلتُ أنا بدوري الشيء نفسه وطبعتُ قبلة على يدي ثم أرسلتها عبر الهواء إليها فوق سور السطح، فتمتْ القبلة الشفهية بنجاح، ثم

عبَّرتْ لي عن رغبتها في تعلُّم القبلة؛ لأن كل شخص لابد أن يتعلمها للمستقبل عند الزواج.

لم أصدق هذا التوضيح المبهم الغريب تمامًا رغم ثقتي بها، فحدقتُ في عينيها اللتين كانتا تومضان ببريقٍ غريب، فقلتُ لها في دهش:
ـ أأختي قالتْ كذلك؟ أهذه الفتاة الغيورة والدينة الفقيرة المسكينة تحدثتْ وأبدتْ رغبتها في تعلُّم القبل؟! لا أدري.. كيف أصدقكِ؟

ومن ثمَّ شعرتُ بحرارة تدبُّ في داخلي، فرميتها بسؤالٍ وبنبرة أقرب إلى الحدة:
ـ أنت السبب فبعد أن شرحتِ لها قصتكِ مع رأس التمثال للمرأة السوداء، حدث في نفسها هذا الخلل في التوازن وفقدتْ حشمتها ووقارها وصارتْ تهذي.
ـ وما في الأمر قبلة على جص؟

فقلتُ لها مبينًا قدر الإمكان وجهة نظر أبي وبكل هدوء:
ـ أنت مخطئة فريدة وأنكِ تعرفين أبي جيدًا، أتدرين أنكِ تثيرينها هكذا؟ وهل تعلمين ماذا سيحدث إن رأى أو سمع أبي بهذا؟.
في اللحظة ذاتها تراءتْ في خيالي صورة أبي وصديقي معًا، يرنوان إليَّ بعدم رضا كلاهما يمسك في يديه سبحة وترفرف شفاهه بالدعاء، وعلى وجهيهما شيء من السخط والعتاب، وبصورة تلقائية وبدون وعيٍ منِّي امتدت يدي إلى ثوبها القصير أسحبه إلى أسفل بشيءٍ من القوة، وبدون تفكير وجدتُ نفسي أقول لها:
ـ أريدكِ أكثر احتشامًا.

جفلتْ ورنتْ إلي بعينين متساءلتين ولم تنبس، وأضفتُ:
ـ هكذا أجمل، هكذا أحبكِ أكثر.
ـ كما تشاء.

قالتْ وهي تلملم أطراف عباءتها وتحيط بها خصرها، ثم طوقتْ عنقي بذراعها وظللنا هكذا لثوانٍ دون حراك ولا كلام، وأخيرًا همستُ فيَ أذنها:
ـ لا رأس من الجص ولا تمثال، من الآن فصاعدًا أنا رأس التمثال فهمتِ.

هزتْ رأسها بالإيجاب وهي تدفن راسها في صدري، شعرتُ في تلك الأثناء كأن دمي يمر بعملية تصفية وتطهير مما تعلَّق به من أدران وأوساخ متراكمة عبر الزمن، أحسستُ أن الدنيا كلها وبما فيها تحولتْ إلى فراشة زاهية لعوب مرفرفة فوق وجودي تحلِّق فوقنا وتبارك حبنا، لصقتْ شفتيها بأذني وقالتْ بصوتٍ ملائكي:
ـ أحبكَ، أنا أحبكَ وأذوب في حبكَ.
ـ ولكن عليكِ أن تعديني إلَّا تخبري تارا بهذا اللقاء.

همستْ في أذني:
ـ أعدكَ.

ردتْ هامسةً كذلك.

ومنذ ذلك اللقاء الرومانسي في الغابة، أصبحتُ أشك في تحركات ملا نور الدين، نقلتُ فراشي بعد عودتي من الغابة إلى الغرفة المقابلة الصغيرة الحارة، ازداد فضولي لمعرفة ما يجري في الليل

في الطرف الآخر من الشارع، وحدث شيء لفتَ نظري في أول ليلة بعد انتقالي.

ففي منتصف الليل سمعتُ صوت بابٍ آتٍ من الطرف الآخر، فنهضتُ ووقفتُ مختبأً وراء الستار أرقب، رأيتُ شبح الملا نور يمسك بيد رجل وهما غارقان في مناقشة خفية هامسة حادة وراء الباب الأسود، وكانت وكالة تمسك بيد امرأة تلف جسدها لفًا محكمًا بعباءة سوداء تمس قدميها وتتحدثان أيضًا بهمسٍ وبإشارات منفعلة من اليدين، وكانت وكالة تحيط بساعدها خصر تلك المرأة التي بدا على تحركاتها الغضب والعصبية، كل ذلك حدث وراء الباب.

بعد دقيقة انفتح الباب وخرج منه الملا نور مع الرجل الذي لم أتبين شكله بسبب الظلام وبسبب طاقيته الطويلة، وسارا في اتجاه بيتنا على الشارع بسرعة فتبعتهما بنظراتي إلى أن غابا عن الأنظار، أما المرأة فسارتْ باتجاه المنعطف المفضي إلى المحل، من حركات شفتيها ويديها عرفتُ أنها كانت تشتم وتسب، احترتُ للأمر وأخذت أسأل نفسي:

- ما سر هذه اللقاءات الليلية المتأخرة؟

أضاف هذا الحادث ظنًا إلى ظني ورفع من حدة فضولي، وجدتُ صعوبة كبيرة في النوم في تلك الليلة، وبعد كل هذا الصخب والأحداث العجيبة ظللتُ أتقلب في فراشي الساخن تحت السقف الساخن، وأخيرًا وقعتُ في سباتٍ عميق جراء الإرهاق، وحلمتُ حلمًا لم أرَ له شبيهًا.. كانت فريدة في أحضاني غارقين في قبلة طويلة، امتدت الحرارة إلى سائر بدني، كلما طالتْ القبلة كلما

أطبقتْ بفيها بطريقة أعنف وأقوى على فمي، فجأة لاحتْ لنا صورة تمثال من الجص بوجهٍ أسود وشفتين حمراويتين غامقة الحمرة، فها هي فريدة تزيح بجسدها عنِّي تنهض وتقترب من وجه التمثال المعلق فوق الحائط ببطء، وبعيون غامضة تفتح فاها ثم تطبق بشفتيها البضتين على شفتي رأس فتاة التمثال وتغرقان هكذا في قبلة طويلة، وأنا لا أكاد أصدق عيني ظنًّا منِّي أني أحلم ـ حلم في حلم ـ وأنا أكاد أتميز من الغيظ، احترتُ وتساءلتُ وصحتُ بها أن تعود إلي، ازداد الضوء الخافت الذي كان يضيء غرفتها توهجًا ـ حزمة ضوء ساطع انبعث من مصدر الضوء ـ اتجهتْ عينانا جميعًا إلى الضوء مبهورين، فإذا بطيف تارا وهي تشق الظلام بكلتا يديها، ثم تمشي بتخبطٍ في داخل حزمة الضوء الذي شق العتمة من حوله، اقتربتْ منا بتؤدة وبخطى ثابتة وهي تبتسم لنا بوجهها الشاحب وترفل في فستانها الزاهي الطويل الأبيض، كانت حاسرة الرأس والقدمين وشعرها الأسود تتدلى وتمرجح فوق كتفيها وذؤابات كستنائية لامعة متفرقة تخفي نصفًا من جبينها، وقفتْ على بعد ثلاث ياردات منا، وجعلتْ ترنو إلينا برهة كمَنْ لا يعرفنا بعدها رمتني بنظرة نارية حارقة خارقة شلتني عن الحركة والتنفس، بعدها ألقت بنفسها في أحضان فريدة التي بدورها استقبلتها بالأحضان وضمتها بين ذراعيها، ودون أي اعتبار لوجودي طبقتْ بفيها على فم تارا واختفتْ شفتا تارا الرقيقتين في ثنايا شفتي فريدة المتلألأتين.

• • • •

(١٢)

كان حنيني واشتياقي لرؤية سلمان تجاوز الحد، سؤال واحد شغلني كل الوقت منذ اللقاء الرومانسي مع فريدة في الغابة، وهو: أين سلمان؟ مسافر كما قالتْ فريدة إلى جهة معينة، ولكن.. لِمَ كل هذا الاختفاء؟ فلا يعقل أن تلهي قراءة قصص المغامرات أو سفرة صديق عن صديقه الأول كل هذا الوقت، لقد اختفى باختفاء دجاجتي الشقراء ومنذ ذلك اليوم الذي هوى ساطور صاحب المحل على عنقها الدقيق الطويل، ولكن السؤال ظل بلا جواب طوال الوقت، كنتُ أهبُ وأتهيأ في كل لحظة محدِّثًا ومشجعًا نفسي:
- أين سلمان؟ يجب أن أراه مهما يكن وبأي وسيلة وسأطرق بابه.

ولكن حينها تلوِّح فريدة بكل تألقها أمام ناظري، فأفقد الرغبة في ملاقاة أي أحد عداها، فهي لم تكن أنيستي في الغابة فقط بل صارتْ تشاركني حتى الفراش ولا تفارق أحلامي.

كانت الساعة تقارب الحادية عشر قبل الظهر، نهضتُ متثاقلًا من فراشي ألقي نظرة إلى الشارع الخالي الساكت عدا عن تراطم وقرقعة أواني أمي المعدنية تحت الحنفية الجارية تحت، وأنا أردد مع نفسي نفس السؤال الملح:
- ماذا حدث له؟ ألمجرد شعور بالذنب والخطأ يتجنبني؟ أي خطإٍ وأي ذنب؟

وتختفي صورة سلمان لتحل محلها صورة فريدة بحلاوة شفتيها العسلية، التي لم يزل مذاقها باقيًا حتى بعد تناول الأكلة الدسمة في الليلة الفائتة.

طوال الليل كنتُ أُفكِّر في اللقاء الحميم وأسأل نفسي باستغراب:
- أحقًّا ضممتُ فريدة بين أحضاني؟ أحقًّا قبَّلتُ ثغرها؟ أأنا الخجول قمتُ بهذا الفعل المشين في غُرف الأتقياء؟ لا لا يبدو أنني كبرت.

أبي يعرف، امتدت أصابعي تلقائيًا إلى شفتي أتحسسهما بنهمٍ، وفي نفس الوقت كان هناك هاجس خفي مزيج من الخوف والشك يملأ كياني:
- ماذا يرى أبوها وأخوها رغم معرفتي والضمانات والتأكيدات التي قدمتها فريدة؟ ومن ثمّ.. ماذا لو تسرب نبأ اللقاء المحظور إلى تارا عن زلة لسان من فريدة؟.

استدرتُ بفتور صوب باب غرفتي الخشبية الزرقاء الباهتة، كانت ثمة فكرة تتحرك وتدور في رأسي في تلك اللحظة والتي راقتني، فشرعتُ في تنفيذها على الفور؛ لأن كلماتها لم تزل ترنُّ في أذني ورنتْ طوال الليل في رأسي، وسهرتُ لوقتٍ طويل بسببها: "وملا نور هذا غمز لي أكثر من مرة في طريق عودتي من المدرسة وحيدة".

شعور بالمرارة طغى على حلاوة القبلة، بدلتُ ملابسي تناولتُ فطورًا بسيطًا، كانت تارا مع أمي في غرفتها، وكنتُ أسمع أصواتًا خافتة ونقاشًا طويلًا آتي من غرفتها، أبي كان في مكانه المعتاد على البقعة المصلى تحت أيكة الأعناب الأربعة، فتشتُ وكر

الدجاج أولًا كعادتي، والتقطتُ البيضات من الكارتونات التي وضعناها فوق دكة من الخشب مرتفعة في زاوية من الوكر كمكان مناسب لتبيض الدجاج فيه، ووضعتها بتؤدة ورفق في السلة وحملتُ السلة إلى الثلاجة ووضعتُ فيها البيضات متحسرًا؛ لأنني لم أعد أرى بين البيضات بيضة دجاجتي الكبيرة رمانية اللون ذات الصفارين، كان الوكر نظيفًا فقد كانت أمي أو أختي قد تكفلتا بالأمر، عدتُ ووقفتُ بالباب المطل على الحديقة الخلفية الشاسعة، وألقيتُ نظرة إشفاق على رفيقي في الحزن الديك وعلى رأس أبي المستور بطاقيته البيضاء المنقطة بألوان سوداء، وغادرتُ البيت دون أن يحس أحد، استدرتُ يمينًا على عكس الاتجاه على شارعنا المكنى لدى الشباب خاصةً بشارع الجميلات لكثرة عدد الجميلات فيه، لا أدري.. هل ضمتْ القائمة أختي؟ وهل عُدَّتْ مع هؤلاء أم كانت استثناء؟.

أبعدتُ الفكرة، فقد كانت تارا على قسطٍ وافر من الجمال رغم نحافتها، عيونها - سمعتُ من أكثر من شخص - واسعتان كعيون الحور ساحرتان تصيب سهامها الفؤاد، لكنها حسب رأيي كانت دون صفية اليهودية ودون نهلة المسيحية ودون ثريا ابنة إبراهيم القصّاب ودون فريدة ودون نهال التركمانية جمالًا ورشاقة وتأثيرًا. وطالما وطئتْ قدماي إسفلت الشارع تفاجأتُ كثيرًا لأجد صفية جالسة على عتبة الباب في ردائها القصير الأبيض وفخذيها البيضاوين البضتين المنفرجتين، طالما رأتني ابتسمتْ في وجهي وأعدتُ الابتسامة بأرق منها، ولم تبدر منها أيَّة محاولة كي تعتدل في جلستها وتضييق الفرجة بين ساقيها، أو تسحب الثوب إلى أسفل

كما كانت تفعل البنات الأخريات لدى مرور شخص، فالتصقتْ عيناي برجليها المنفرجتين رغمًا عنّي، كان جسدها لا يقاوم، سلمتُ عليها عند مروري بها فردتْ بأحسن منه، فلاح لي لباسها الأحمر بلون الدم ولم تكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها أجزاء حساسة مثيرة من جسدها، كانت اعتادتْ منذ الصغر أن تجلس أمام الباب هكذا بلا تحفظ؛ لتنال بذلك الإعجاب من الشباب والرجال المثقفين أمثال كاكه هادي ورواد النادي الليلي، وسخط المارين من المتوجهين إلى الجامع، حتى اختلف حولها الطرفان في البداية هذا يدعوها بالشيطان وهذا بالملاك، حتى إن بعضهم أخذ يتناقش في الموضوع ويتجادل، وقد كانت هذه النقاشات أحيانًا تصل الذروة والعراك، وفي مرات نادرة تصل إلى تبادل الضربات واللكمات، المتشددون رأوا فيها فرصتهم الذهبية فسموها "فتنة وشر" بل إن قسمًا منهم ذهب أبعد إلى عمق التاريخ منددًا بهم: "إنهنّ فتنة كما كانوا في المدينة المنورة، فلا فرق بينهنّ وبين فتيات بني نظير وبني قريظة".

هذا كان في البداية، وكانت المناوشات تتكرر يوميًا إلى أن خفت حدة التوتر، وصارتْ سيقان صفية أمرًا طبيعيًا ومن البديهيات، رغم ذلك اعتبرها الكثيرون محكًا وامتحانًا للمسلّم وتمييزًا بين المسلِّم الحقيقي والزائف، فمَنْ لم يلتفت إليها حصل على درجة النجاح، ومَنْ نظر إليها رسب، لم تكن هذه الوضعية من صفية متكلّفة مصطنعة بل كانت عفوية ـ كما رأى ذوي العقول والحكمة، ولم يكن هناك مَنْ يمنعها أو ينهرها، الأب كان طوال الوقت منهمكًا في أعماله التجارية والأم في أعمال البيت، وأختها ريحانة قد

تزوجتْ وخرجتْ من البيت، وتلك كانت آية في الجمال حتى قيل إن ملا نور أرادها ولم تقبل، وأرادها الكثيرون إلَّا أنها آلت إلى أن تتزوج برغبتها ومَنْ تريد، فوقعتْ في حبِّ فتًى وسيمًا يعمل معها في الدائرة، وأمهما سميرة كانت ربة بيت لا تتدخل في شيء هادئة وديعة، ولكنها كانت في منتهى الدهاء والذكاء.

والتصقتْ عيناي بها للحظات، ولكنني تداركتُ بسرعة وحررتُ نفسي من طلسمها، فأدرتُ وجهي إلى الجهة الأخرى مقررًا في قرارة نفسي:
- فريدة لن أخونها!

ماء المجرى كان أحمر اللون هذه المرة، فعرفتُ أنه يخرج من تحت باب إبراهيم القصَّاب، وكانت تتناثر فيه قصاصات الجرائد ممزوجة مع أشياء أخرى وملتفة حول قبضات صغيرة من القش والتبن، فقلتُ في نفسي:
- إنه لم تصله جرافة الملا نور بعد.

ومما لفتَ نظري أن الماء الجاري في الطرف المقابل لبيت صفية كان خاليًا من أيَّة قصاصات ورق، اجتزتُ صفية بسلام وبلغتُ باب مسكن إبراهيم القصَّاب، فوردتْ إلى مخيلتي ذكرى هروب إسماعيل بن إبراهيم القصَّاب، فيومًا ما قبل عام غضب منه أبوه ولاحقه بسكين، وهو يردد ألفاظ من قبيل: أذبحكَ أذبحكَ سأقدمكَ قربانًا للآلهة.

هذا الخبر وصلنا من وكالة أولًا، ولم يصدقها أبي واعتبرها مصدرًا غير موثوق به، والخبر ضعيف يحتاج إلى إسناد، ثم جاء

الإسناد وتواردتْ الأنباء تؤكد صحة الخبر متواترًا، ولم يعد إسماعيل أبدًا، وجاء خبر آخر بعد أسابيع أن أباه قد تمكن منه أخيرًا وقام بذبحه متهمًا إياه بالعقوق، الخبر جاء من وكالة وبعد أيام جاء خبر آخر مضاد مؤداه: "أنه يعيش وأنه قد تزوج وأنجب، وأن الله رفعه وآتاه الملك والثراء والمرتبة الرفيعة" وهذا الخبر صدقه أبي فورًا؛ لأنه مطابق للكتاب الذي علقه في كيسه الأبيض في كهفه فوق رأسه.

سرتُ لا ألوي على شيء باتجاه سكة الحديد للقطار، فوصلتُ إليها في زمنٍ قياسي عبرتها إلى الطرف الآخر حيث يقع الجامع الصغير ذو المنارة المئذنة اليتيمة، ومنها انحرفتُ إلى جهة اليمين ومضيتُ أمشي في زقاق فرعي إلى أن وصلتُ إلى باب بيت عرفته، وأدركتُ أنني بلغتُ مسكن صلاح إن شاء الله، وجدتُ الباب مفتوحًا على مصراعيه، توقفتُ لحظة أتظاهر بشد قيطان حذائي المبلّل بالماء والوحل، في تلك اللحظة وصل مسمعي صوت نسائي رخيم، رفعتُ راسي فإذا بامرأة شابة بالغة الجمال تقف بالباب، نهضتُ وقدمتُ إليها نفسي، قالتْ بصوتٍ رنان وتحملق فيّ بعيون واسعة مكحلة ترمش كالسهام لدى أيّة لفظة تتلفظها بثغرها الصغير:

- مرحبًا بكَ، لا تتعب نفسكَ فأنا أعرفكَ.

كانت ترتدي ثوبًا طويلًا بين الصفرة والخضرة شفاف لا يخفي شيئًا عن جسدها الناعم الممتلئ اللدن، غضضتُ من بصري، وأنا أتمتم كما يفعل أبي وكما يفعل ملا نور أمام الناس: أستغفر الله،

وفي نفس الوقت تذكرتُ كلامَ فريدة في كل ما قالتْ عن هذه المرأة لابد أن يكون صحيحًا، ولمِ أصدق عيني بسهولة وأنا أجد نفسي أقف أمام امرأة شبه عارية، زوجة لرجل محافظ متشدد لا يفارق ذكر الله شفتيه ويدعو الناس إلى التوبة والخوف من الله والخوف من عذاب القبر، تناقض ومفارقة لم أتمكن من حلحلتها أو هضمها، ولا حتى إلقائها في حافظتي.

في وهلة ما شعرتُ بأن خطبة الملا نور محمد أثرتْ علي قليلًا فيما يخص غض البصر أمام المحارم، ولكن غض البصر عندي كان عادة متوارثة أبًا عن جدٍ، وكنتُ أؤمن به وأستحسنه كونه جاء عن قناعة أنه لكل شخص شرف و*ناموس*، ولكنني في نفس الوقت لم أرَ بدًا من النظر إلى الفتيات وغير المتزوجات من النساء، فقد استثنيتهنَّ عن القاعدة، وسرعان ما اختفى هذا الشعور؛ ليحل محله ملا نور الذي يرمش لفريدة في طريق عودتها من المدرسة.

كان المجرى يسير فيه الماء ضئيلًا نظيفًا يخلو من أي أثر لشيءٍ عالق أو متناثر أو ملتصق أو عائق، باستثناء البقعة الواقعة تحت قدميها فكانت قذرة تتراكم فيها العلب والصفائح الفارغة والأوراق المهلهلة.

انتظرتُ طويلًا قبل أن أسمع ردها، فسمعتُ صوتها من على عتبة الباب الخشبي:

ـ كما تقول يا أيها الولد الجميل.

هزتْ أعصابي بوصفها لي بالجميل، قلتُ لها بخجلٍ:

- ما رأيكِ في ملا نور الدين؟ وما هذه المهام الشاقة اليومية؟ ولِمَ لم تنظف هذه المجاري القذرة؟

أجابت وهي تضحك ضحكة مجلجلة:

- إنه قديس يمشي ولا يرفع رأسه حتى كاد يصطدم بالمارة، ولولاه لغرقتْ الشوارع بالماء القذر، إنه فاعل خير كل ما يفعله لوجه الله وأجره على الله.

ثم فجأة جعلتْ تتفحصني بعينين حادتين، وسألتني بنوعٍ من الفضول:

- ولماذا تسأل هذا السؤال؟

ترددتُ، ماذا أقول؟ ثم تشجعتُ، وقلتُ بحذر خشيَّة أن ينزلق لساني:

- إن بعض الناس يرون ما رأيتِ وبعضهم يرى العكس، وأبي محتار بين الطرفين.

جفلتْ لِمَا قلتُ فسارعتْ بالدفاع عنه، وقالتْ وهي ترفع يدها ومعصمها المرمري وتشير ببنصرها المحاط من قاعدته بخاتم نفيس من ذهب إلى جهة المئذنة الشبيهة بالقلقة:

- أعتقد أن غالبية الناس يرون ما أرى فيه حتى إن بعضهم يأتون إليه لصنع أدعية، إنه سيد.. سيد.

رفعتُ راسي، والتقطتُ صورة خاطفة لوجهها الجميل المدور الأبيض وعينيها السوداويين الواسعتين وصدرها المرتفع ونهدين وحلمتين كحبتي رمان حمراء قانية، متعلِّلًا ومطمئنًا نفسي أن النظرات الخاطفة ليستْ حرام، ثم فجأة تذكرتُ أمرًا هزني:

- أليستْ فريدة من المحارم؟ وأنا الذي قبَّلتها على الفم وضممتها وشفيتُ غليلي منها، وأقنعتُ نفسي مرة أخرى أنها زوجتي المستقبلية، وليستْ زوجة لأحد إذ أنها حلال لي - لي وبس.

وبدون وعيٍ منِّي وجدتني أختلس نظرات خاطفة منها، رفعتُ رأسي فإذا زينة قد اختفت، ولكن صوتها ارتفع من وراء الباب فجأة، ثم خرجتْ لتقف مرة أخرى على أول درج من المنصة الخشبية، وواصلتْ بشغفٍ:

- حتى العشاق يرجون من يده الدعاء للتسهيل، وتليين قلب المحبوبة.

قالتْ هذا، ثم أغلقتْ الباب بقوة في وجهي.

عدتُ مسرعًا تدفعني وتحدوني رغبة عارمة في اللقاء بصديقي والسؤال عن صحته، سلكتُ الطريق الترابي المختصر بين الزقات الضيقة المتربة وبين صياح ولغط الأطفال وصياح الباعة المتجولين وثرثرات وضحكات النساء المجلجلة المدوية الحادة، قطعتُ الطريق إلى النادي في ربع ساعة والأصل نصف ساعة، وعند مقربة بيت القصَّاب إبراهيم وصل مسمعي لغط وأصوات أشبه باستغاثة، تجمدتُ في مكاني توقفتُ لأسمع وأرى، رأيتُ وكالة تقف بقامتها القصيرة العرجاء ومؤخرتها الناتئة إلى الوراء أمام باب حزقيل بن جو تتحدث إلى صفية وأمها سميرة هانم، وتقول بصوتها الأغن الرجالي:

- بسيطة بسيطة سأوصل الخبر إلى ملا نور سأبلغه، وهو إنسان طيب كما تعرفوه ولا يرفض لي التماس، هو الوحيد القادر على إخراجه من السجن.

فقدتُ صوابي:

- ماذا حدث؟ مَنْ هو في السجن؟

اقتربتُ أكثر بحذر، فلم يروا ولم يحسوا حتى بوجودي لانغماسهنَّ في الكلام الصاخب يخالط كل هذا نشيج مكتوم، رميتُ نظرة خاطفة على النسوة ورأيتُ صفية وأمها تبكيان بحرارة وتمسحان دموعهما بطرف منديل أبيض مبلل، لم ألبث طويلًا ومضيتُ في طريقي بقلبٍ مكسور لِمَا رأيتُ وسمعتُ، بكى فؤادي بلا دموع لصفية وأمها الجارتين الطيبتين.

وقفتُ أمام باب بيتنا، وأنا أتلافى النظر إلى مصدر البكاء واللغط المتداخل، ونظرتُ يمينًا فوجدتُ مجرى الماء المار أمام دار فريدة تنتشر فيه قصاصات الجرائد والمجلات المصفرة الممزقة، ومما لفت نظري وأثار عجبي أنها كانت كلها بنفس اللون ونفس الحجم كأنها قصتْ من جريدة واحدة وبيدٍ واحدة وبمقصٍ واحد لشدة تناسبها وتطابقها، ثم نقلتُ بصري ونظرتُ أمامي فرأيتُ ما صعقني لأول مرة تناثرتْ قطع الجرائد الممزقة على حافتي المجرى قُبالة بيتنا، فقدتُ القدرة على التنفس.. ما هذا؟ هل هناك مَنْ يقوم بأعمال شغب؟ ربما مَنْ فعل هذا الشقي صمود، صرتُ أحلل وأعلل، كان صمود المعقد اللوطي هذا ابن المشرف التربوي لطفي، وكان معروفًا بمثل هذه الأعمال العدوانية العدائية والانتقامية.

اندفعتُ إلى الباب في حالٍ من الارتباك، فتحتُ الباب بعنف ولكن لم أكد أخطو أولى خطواتي إلى الداخل حتى ترامى إلي صيحات وصراخات أبي المدوية، كان الصوت بعيدًا من غرفة تارا البعيدة، هرعتُ إلى الداخل هلعًا وأنا محتبس الأنفاس.. أُنصت.. وأرتجف، صدق حدسي فقد كان أبي وأمي في غرفة تارا، أمي كانت تمسك بيد أبي تريده أن يخرج، وتقول له:

- كفى لقد فهمتْ تعليماتكَ وستطبق أوامركَ.

أما أبي فكان يعترض وقد تطاير اللون وجهه:

- ومَنْ يضمن لي أنها لا تقوم بحماقة أخرى، وتذهب إلى السينما مع هذه الفتاة المتبرجة.

- اهدأ إنها لم تكفر ولم تقترف ذنبًا بزيارة السينما.

- اخرسي..

هدر صراخ أبي يكاد يمزق حلقه من الغيظ، كانت تارا جالسة في ملابسها المدرسية الرمادية الطويلة على حافة السرير تكفكف دمعها وتتأوه، ذبتُ من المرارة والألم لها قررتُ أن أتدخل، وفي اللحظة ذاتها سمعتُ أبي يقول:

- ولماذا تخرجين مع فريدة؟ فبإمكانكِ الخروج مع أخيكِ.

ثم استدار يتساءل مستطلعًا:

- أين هو؟

فوقعتْ عينيه على عيني، جفلتُ أديتُ له تحية عسكرية، وهتفتُ باحترامٍ وخشوع:

- أمركَ أبي.. هل من خدمة؟.

اقترب منّي ووضع يده على كتفي، وقال وابتسامة صغيرة تعلو ثغره اليابس الرقيق، وقال يخاطب تارا مشيرًا إلي:
- هذا رجل البيت فاعتمدي عليه، إنه يحميكِ ويقيكِ.
ثم وهو يداعبني:
- كبر وطال وعَرُضَ ونمت شواربه، رجل يعتمد عليه حقًّا.
ثم خفض صوته ومال إلي يهمس في أذني:
- يا لكَ من شقي، لستُ جاهلًا بمغامراتكَ يا عفريت.
شعرتُ بالخجل يدبُّ في أوصالي كتيارٍ كهربائي واحمر وجهي، قلتُ له بتلعثمٍ طفيف وأنا أنقل بصري بين الوجوه الثلاثة:
- حسب علمي تخرج كل فتاة مع الصديقة التي تعجبها مرافقتها، وعادةً تخرج الجارة مع الجارة إلى السوق.
تأفف أبي، ورماني بنظرة يتطاير منها الشرر وعلامة استسلام في طور النشوء لاحتْ في ملامحه المنقبضة، ابتعد عنّي كالخائب يزم شفتيه، وعاد إلى تارا وأمي التي جلستْ بجوارها تحاول تهدئتها، وقف أمامها كالطود الشامخ، وخاطبها وهو يحرك سبابته الصلبة في وجهها كرقاص الساعة:
- لحسن حظكِ أضاف ابني صوته إلى صوت أخته.
ثم صمت لحظة يفكّر ويهز رأسه، ثم صوَّب وجهه الضيق إلى وجهي ثم إلى وجه تارا، وقال بنبرة كالرياح العاصفة:
- قلتُ أنكِ تريدين الذهاب برفقة الفتاة الجارة من أجل شراء قرطاسية ولوازم المدرسة لا شيء غير ذلك لا سينما ولا نزهات.. أتعدين؟.

ولم ينتظر الرد وبدلًا من ذلك نظر إلي وقد لانتْ نبراته قليلًا:
- أفهمتْ لقمان إنها تذهب إلى السوق لشراء لوازم المدرسة؛ لأن المدارس اقترب افتتاحها.. وأنتَ تعرف ذلك وسوف تذهب أنت بدورِكَ وتشتري لوازمكَ المدرسية، كنتُ فضلتُ أن تخرجا معًا لكن يبدو أني قهرتَ، هذه المرة أسمح لها لكن بعد أن آخذ منها ميثاقًا غليظًا أن تعود حال ما تنتهي من شراء ما يلزمها، وعدم التجوال في الشوارع تحت أنظار المراهقين والعاطلين والشباب الضائع الفاسد.

ثم وجَّه نظره الحاد في وجه تارا، وأخذ يسألها بصوتٍ عالٍ:
- هل تعدين؟ هذه آخر مرة وآخر عفو، لو خالفتِ أمري سأحبسكِ في البيت لا خروج ولا مدرسة.

لم ترفع تارا رأسها.. نصف شعرها كان قد انزاح الغطاء عنه وبدا مشوشًا مشعثًا وبقي النصف الآخر مكسوًا، نقلتُ بصري إلى أبي فدهشتُ لهيئته، فقد كان أبي حافيًا ولم يكن يرتدي رابطة العنقَ التي اعتاد عليها، ثم انتقلتْ عيناي إلى أختي فلاحظتُ أنها نسيتْ أن تسد زرين من أزرار ردائها الطويل، فبانتْ بقعة بحجم الرمانة من الثوب الداخلي الوردي الشفاف في الشق الفاصل، غمرتني مشاعر الحزن وفي نفس الوقت العزم متمتمًا مع نفسي في زهوٍّ:
- أنا الرجل ووكلتْ إلي مهمة حماية أختي من رئيس الدرك.

بعد أن خرجتْ تارا صعدتُ إلى غرفتي لأراقب.. ماذا يحدث في الشارع؟ وعزمتُ أن أنزل بعد دقائق للذهاب والاستفسار عن صديقي، لم أجد شيئًا غير عاديٍ وألقيتُ نفسي في الفراش أُفكِّر في

فريدة وأسترجع مذاق شفتيها.. أين هي؟ ماذا تفعل؟ اشتقت إليها، بغتةً وأنا في خضم التأملات والخيالات الحلوة إذا بصوتٍ أبي الخافض على غير عادته يناديني من تحت السلم:

- لقمان انزل بسرعة.

هبطتُ السلم، فدعاني إلى الجلوس في غرفته، نادرًا ما حدث وأن جلستُ في غرفته إلّا لأمرٍ يخصنا نحن الاثنين، هناك تحدّث لي في جلساتٍ سابقة حول المني ومخاطره وعن الأخلاق والخلق والدين والإيمان بالله والخوف من الخالق، ونهرني عن النظر إلى بيوت ومحارم الناس، وأمرني بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الحلال والإنصاف والابتعاد عن الخمر والموبقات، أتذكر أول درس له كان عن الصلاة، تلاه تفسير كلمة (اقرأ اقرأ) ومناسبة نزول الآية، وعبارات من قبيل (بسم الله والحمد لله وإن شاء الله) حينها كنتُ صبيًا صغيرًا في السابعة من العمر، وشرح لي تاريخ نشوء الخلق ومن أي شيءٍ خلق الله الإنسان، فقال: "إنه من علق" وفسّر لي معنى العلق مبينًا أنه هو الدم المتخثر، ثم معنى بربكَ الأكرم ومعنى الكرم وعلّم بالقلم، وفسّر لي فوائد القلم والعلم، ثم كان يختتم دائمًا بعبارته المشهورة: "علّمنا جلَّ جلاله كل شيءٍ، فكل شيءٍ هو علّمنا، ولولاه لكنا جهلة لا نفهم ولا نميِّز ولا نرى كالأعمى ولا نسمع كالأطرش، إنه هو الذي علّمنا ما لم نعلم، فعلينا أن نشكر فضله وبركاته علينا نحن الخلق".

توقعتُ من أبي الديِّن جدًا أن يقدّم لي درسًا آخر جديدًا لكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة، كانت مادة الدرس من صنفٍ آخر تمامًا،

كان يرقد على فراشه المفروش على الأرض هذه المرة كذلك ككل مرة، ويضع القرآن في كيسه الأبيض كما في كل مرة، ينهض ويعلق الكيس بالمسمار الطويل الثخين المغروس في الإسمنت فوق رأسه كما في كل مرة، يحمد الله ويبسمل، يلقي نظرة على الخزان الخشبي للملابس على يمينه ومنصة خشبية رصفتْ عليها بطانيات وحشيات ملونة زاهية وأوسدة من كل الأنواع والأشكال، ثم يمرر عينيه السماويتين على نقوش السجادة الأصفهانية النفيسة الجميلة المنقوش عليها شتى أنواع الزخارف والرسوم الملونة مع اللون الأحمر القاني الرماني هو الغالب، والتي تكسو أرضية الغرفة من الجدار إلى الجدار طولًا وعرضًا.

من خلال الستائر كان يتسرب نور النهار الوضاح، فيزيد خضرة أوراق الرمان رونقًا وبهاءً وأغصانها الرفيعة الطويلة المنحنية المثقلة بالرمانات المتشققة من فرط النضج والمتدلية على الممر الضيق المحيط بالمنزل جلالًا وجمالًا، جلستُ أمامه على الأرض بينما مدَّد هو رجليه إلى أمام ونزع نظارته قائلًا لي بصوتٍ فيه صدى الكهوف:

- ابني: سأكلِّفكَ اليوم بأمر خطير، ربما تراه عسيرًا قولًا لكنه بالفعل يسير، كل شيءٍ يهون إن توكلتَ على الله، فبمشيئته كل الأمور تسير.

• • • •

(١٣)

ارتديتُ الملابس التي أعدها أبي لي سلفًا، كانت عبارة عن ملابس تقليدية ونظارات سود وكوفية كبيرة تغطي الجبين والأذنين، وقفتُ في موقف الباص، وبينما كنتُ أقف في انتظار الحافلة فإذا بوجهٍ كريه يلوح من رأس الشارع، وجه صبي اسمه صمود ابن المشرف التربوي لطفي، كان مكروهًا من قِبل جُلّ أهل الحارة معروفًا بمغامراته وأعماله القبيحة وحماقاته، كان يمسك بيده دجاجة تجهد وتقاتل من أجل الخلاص وتصوِّت بين الحين والحين صواتًا حادًا متقطعًا مخرشًا للآذان، اقتربتُ منه بعد أن ألقيت نظرة يمينًا شمالًا للتأكد من عدم قرب وصول الباص الذي كان يمر كل ٤٥دقيقة، توقف الولد وهو ينظر في عيني بمزيجٍ من التحدي والوجل، عرفني حالًا فقد ركلته في مؤخرته يومًا ما وهو يرمي الحجارة على السيارات المارة، قلتُ له مقتربًا وسألته بفضولٍ متزايد:

- ما هذه صمود؟ أراكَ تصطاد الطيور غير الطائرة هذه الأيام.

أجاب بتلعثمٍ واحمر وجهه ينظر إلى الدجاجة المقاومة للقبضة ويربت على عنقها:

- إنها دجاجتي.. وما دخلك أنت؟.

قلتُ له بلهجة أقوى:

- أهي حقًّا دجاجتكَ؟ وأنا أعرف أنكم لا تملكون دجاجًا في البيت.

- لا.. لا.. إنه يكذب، إنها ليستْ له.

ارتفع صوت من ورائي، التفتُ فإذا بولدٍ آخر اسمه سامي يقف وراءنا ويداه على خاصرتيه، كان هذا من الأولاد المعروفين بالخلق والأدب، استزدتُ منه مقتربًا:

- لمَنْ إذًا؟

أجاب محدقًا في وجه صمود الذي كان يتحين الفرص للهروب:

- إنه يسرق دجاجات من أصحاب الحقول والفلاحين ومن بيوت الجيران إن لم يكونوا موجودين، يلعب بهنَّ ويعذبهنَّ.

اشتطتُ غضبًا، فاقتربتُ من الولد الشقي معنفًا إياه رافعًا يدي في وجهه:

- يا ملعون هدها اتركها وأعدها لأصحابها حالًا، وإلَّا حطمتُ أسنانكَ.

فلم أكد أكمل تهديدي إلَّا أرخى يده من تحت جناحي الطائر، وهرب كل منهما في اتجاهٍ معاكس لبعضهما، أطلق صمود ساقيه للريح فزعًا، شيعناه إلى أن توارى وراء الكثبان في العراء حينها قال لي سامي:

- صمود هذا يمضي بعض الأحيان بالدجاجة إلى داخل بيته، ولا أعرف.. ماذا يفعل بها؟ قال لي يومًا: أن بعضها يبضنَّ بيضات بصفارين.

انتفضتُ من مكاني هاتفًا متذكرًا:

- دجاجتي الشقراء.. مخلة بالشرف!

وأنا أهتز من الغيظ الذي أثاره الخبر المريب، واهتزتْ أطرافي لمَّا سمعتُ متذكرًا كلمات أمي لأبي بعد الحادث: "إنها ربما كانت جريمة مخلة بالشرف".

كان صمود هذا عمره ثلاثة عشر عامًا، سمعنا عنه نقلًا عن أبي أسامة عن داود ذي الصوت الساحر وعن ابنه سليمان الحكيم عن السيدة بهيجة وكالة ـ حفظها الله ـ الملك الناقل للاتصالات الغيبية وغير الغيبية أن صمودًا هذا شوهد يومًا ملتبسًا بإتيان عنزة جاره أبو سمعان المسيحي، وتعرض أكثر من مرة لابنه يوسف لا لشيء إلَّا لأنه ولد وديع مسالم لا يقوى على الدفاع عن نفسه، في تلك اللحظة انتبهت لصوت توقف الباص، فانتفضتُ من مكاني ملوِّحًا للسائق باشا الذي استقبلني عند ترقيِّ مدرجات الدخول بابتسامة مرحة.

عُرِف عن باشا أنه كان يفتخر بأصله التركي ويمجدهم دائمًا بهذه التصريحات: "أنا ابن الإمبراطور العثماني السلطان سليم، ولولانا لاختفى دين محمد العربي عن الوجود ولما بقي له أثر اليوم" المعروف عنه أنه كان يصلي ويصوم، ويقول: "إنني لا أقوم بهذه الواجبات إلَّا لكون آبائي وأسلافي الكرام العظماء كانوا يفعلون كذلك، أي: حفاظًا على التقاليد المرعية المتوارثة أبًا عن جد".

كان الباص مكتظًا، تنفستُ الصعداء بعد أن وصلتُ الهدف بعد قرابة عشرين دقيقة، نزلتُ في مركز المدينة بالقرب من المقهى الذي وصفه لي أبي، فقد اصطحبني معه طفلًا أكثر من مرة وأنا أُمتع ناظري بالرواد ولغطهم وصياحهم، وهم يلعبون الطاولي

والدومينو، كان هذا أكبر مقهى وأشدها ازدحامًا يقع في وسط سوق مزدحم، اخترتُ مقعدًا منفردًا في زاوية بحيث استطعتُ أن أرى صف محلات بيع القرطاسية والكتب واللوازم المدرسية بوضوح، فقد اعتدنا نحن ـ الطلاب ـ الشراء هناك، في انتظار وصولهما وقلبي يخفق لرؤية فريدة لوحدها، لم أرغب في رؤيتها بصحبة أختي منذ لقاء الغابة.

شعور خفي غمرني، وأنا أقارن بين منظريهما المتنافر إحداهما بفستان قصير والأخرى ملفوفة من فوق إلى تحت، وفجأة ورد إلى خاطري رأس التمثال الجص وقبلات فريدة لي ولشفاه الفتاة السوداء ذات الشفايف الحمراء، والقبلات الهوائية المتبادلة فوق السطح، ورد مسمعي صوت أبي ليمحي الصور: "تارا الكتومة تخفي كثيرًا عنَّا لا يدل ظاهرها دومًا على باطنها" أليستْ فريدة بنفسها اعترفتْ أنها تدربتْ على البوس معها ـ قبلة الفم؟ إنها تظهر شيئًا آخر يختلف عمَّا تضمر ـ كما قال أبي.

أخذتني موجة من أفكار متصارعة وغمرتني شكوك لا عهد لي سلفًا بها، ربما قد جربتها مع سلمان سرًّا؟ كنتُ مشتاقًا جدًا لمعرفة هل سمعتْ فريدة كلامي وارتدتْ ملابس أكثر احتشامًا تغطي الركبة؟ إنهما الآن على المحك، أشعر بغيرة تجاه كل مَنْ ينظر إليها، ربما قد أتخانق مع كل مَنْ ينظر إليها نظرات مريبة ـ الويل له ـ مسؤولية حماية فتاتين على عاتقي الآن، على الرجل الصغير الكبير، طال الانتظار لم أحب جو المقهى أبدًا خِلتُ في لحظةٍ ما أن عيونًا تنصب علي وتتساءل: "انظروا إنه ابن السيد مصطفى.. ماذا

فعل بنفسه وهيئته متنكرًا؟" تمنيتُ لو لم يكلفني أبي بهذه المهمة الصعبة، كدت أن أتخذ قرارًا بالعودة ضاربًا أوامر أبي عرض الحائط لولا خوفي من العواقب، ولولا رغبتي القوية في استقصاء أمرهما وما يفعلان لوحدهما في مكانٍ عام خارج عن عيون أهل الحارة والأهل، وفجأة تراءتا أمامي وبسرعة التقطتُ صحيفة من على المنضدة المبللة بالشاي وتظاهرتُ بالقراءة، كانت حبيبتي ترتدي ثوبًا أحمر يمتد إلى ما تحت الركبة وقميصًا أسود يمتد إلى الخصر، تضع مساحيق قليلة على الشفاه فقط، وبدتْ وجنتاها كرمانتين حمراوبين حمرة طبيعية، في كل حياتي لم أرها أجمل من تلك اللحظة، صدق أبي عندما قال لي يومًا: "الاحتشام جمال دائم يهز المشاعر، أما العري فجمال زائل يهز الغريزة الحيوانية".

ركزتُ كل انتباهي عليهما لا يتحرك منِّي سوى المقلتان، رأيتهما تسيران جنبًا إلى جنب كتفًا لكتف، تتحادثان وتتبادلان الابتسامات الجانبية الخاطفة، تمشيان على مهل وسط سيل من المارة، لم يطل سيرهما فسرعان ما بلغتا المحل المعروف المقصود: محل سيد معروف الزجاج، الرجل الوقور الذي كان معروفًا بخلقه الرفيع وأدبه الجم وطيبته، وصَّانا أبونا أن لا نشتري إلَّا من عنده؛ لأنه يصوم ويصلي ويخشى الله.

ظهر لي أن تارا هي التي وقع اختيارها على هذا المحل ـ كما تبين لي من إشاراتها بأناملها وأظافرها المصبوغة بالصبغ البني الداكن، أطل وجه الرجل المسن وتجاعيده الطويلة العميقة وكوفيته الملتفة المدورة كقلفة مئذنة جامع ملا نور من وراء منصة الخشب

المزدحم بالمواد الكتابية وأدوات صغيرة متفرقة مختلفة المهام والوظائف والأشكال والألوان.

فريدة تحدثتْ عن نفسها ونيابةً عن أختي، وأسعف الرجل طلبهما خلال دقيقتين، وبرحتا المكان بعدها وفي يد كل منهما يتدلى كيس منتفخ طويل وعريض أحمر اللون يصل ركبتيهما، تبعتهما بطرف عيني - كما فعل جيمس بوند - من وراء الجريدة غير المقروء منها كلمة، رأيتهما ينحرفان إلى جهة اليمين في نهاية الشارع، فنهضتُ ودفعتُ ثمن الشاي ورحتُ أسير بسرعة قبل أن يختفيا عن أنظاري أشق طريقي كالباخرة وسط العباب المتلاطم، ألفيتهما تبتعدان سريعًا باتجاه موقف الباص، لحد الآن كل شيءٍ على ما يرام، انتظرتُ واقفًا وراء حائط محل على المنعطف، في مكان كان موقف الباص منه في مرمى البصر، داومتا على المسير بسرعة هذه المرة، وهناك توقفتا وجلستا على المصطبة البيضاء في مقصورة الانتظار بنية اللون، وضعتا الكيسين على الأرض، تنفستا الصعداء، سمعتهما دون أن أسمع: يا للحر القاتل ويا للحمل الثقيل! أخرجتْ كل واحدة منهما منديلًا ورقيًا من حقيبتهما الصغيرة المعلقة بكتفيهما، وراحتا تمسحان بهما العرق من على وجهيهما وتتحدثان وتضحكان على كل شيءٍ ولا شيء، وبين الفينة والفينة تضع تارا يدًا فوق كتف فريدة تهزها هزًّا خفيفًا وفريدة ترد بالمثل، ثم تحيط خصرها بساعدها بكل رفق وحنان وتشدها إليها وتطبع قبلة خاطفة على خدها، وتضحك تارا ثم تضحك فريدة، وأحاول أن أضحك أنا.

لولا أن هاجسًا خفيًّا هيمن علي وزاد من خفقان قلبي، وأنا أتمتم مع نفسي بشرود:
- قبلة؟

كنتُ أقف بالقرب من صباغ أحذية في تلك اللحظة، رفعتُ رجلي ووضعتُ قدمي اليمنى أمامه، وبدون كلام شرع الصباغ في الغسل والتجفيف ثم التصبيغ، استطعتُ أن أرى بصورة أفضل الآن، كانتا متلاصقتين كتفًا لكتف خصرًا لخصر، وقد انحسر ثوب فريدة إلى منتصف فخذيها، هممتُ بالانطلاق إليها لأصيح في وجهها: عيب، ضبطتُ أعصابي إنهما فتيات ولا أحد سوى النساء يقفنَّ أمامهما، وجاء الباص أخيرًا ارتحتُ لوصوله راحة نفسية، هنا تنتهي مهمتي، قلتُ جذلًا:
- لكن ما حصل في تلك الأثناء كان خارج إمكانية الاستيعاب والتعقل والفهم.
وصل الباص، توقف وصعد الركاب ولكن الغريب أني لم ألحظ صعودهما إليه، قلتُ في نفسي:
- إنما حصل ذلك لأنني أقف عنهما بعيدًا.

وغادر الباص، ونظرتُ بكل قواي العقلية والبصرية إلى المكان مستطلعًا وضربات قلبي في تصاعد هائل سريع، وصعقتُ ارتججتُ، جفلتُ لوجودهما واقفتين في الجانب الآخر من المقصورة يدًا بيد، التفتتا يمنةً ويسرةً ثم إشارات تارا بيدها إلى فريدة وانطلقتْ إلى الأمام فانطلقتْ معها فريدة، وبعد مسيرة دقيقتين على الرصيف الخالي تقريبًا من المارة، إشارات تارا كالدليل يمينًا

إلى ممرٍ ضيق يربط الشارع العام بشارعٍ فرعي، وسرعان ما اختفيتا وراء المنعطف، وبدوري اندفعتُ بفردة حذاء مصبوغة ملمعة وأخرى قذرة معتمة، رميتُ للولد ورقة نقدية فئة ربع دينار وانطلقتُ في اتجاه الفتاتين كمَنْ يطارده الشيطان، يلاحقني صوت الفتى الصائح ورائي:

- سيد، سيد، انتظر..

وبعد مطاردة ربع ساعة شاهدتهما من بعيد تدخلان متنزه عام صغير، أسرعتُ الخطى لا ألوي على شيءٍ، وصرتُ أقترب أكثر عاملًا المستحيل في عدم اكتشاف أمري تارةً بالمشي ووجهي إلى الأرض وتارةً بالاختفاء وراء الشجيرات والنباتات والأحراش على جانبي الطريق، لحسن الحظ لم تلتفت أحد منهما كانتا منهمكتين في حديثٍ شيق فقدتا من جرائه الإحساس بالعالم الخارجي.

- ما السر؟ ماذا يحدث حقًّا؟

تساءلتُ في اللحظة التي وطئتْ قدماهما أرض المتنزه بعد اجتياز الباب الكبير، توقفتُ وراء البوابة بعد دخولهما، أترقب المارة خاصةً الشباب، قد يظهر أحدهم ويتوجه نحوهما سأعترض طريقه وأحول بينه وبينهما سألقنه درسًا.

- هذه حبيبتي وتلك أختي.

كانت هناك مصطبة صغيرة مألوفة لدي إذ جلستُ عليها مرارًا للراحة في أوقاتٍ متفرقة، جلستا عليها جنبًا لجنب، وبعيدًا عنها كانت هناك مصطبة أخرى صغيرة تنتصب وراء شجرة صفصاف جلستُ عليها وسحبتُ القبعة ذات المقدّمة الناتئة (الكاسكيت - بيرية)

إلى أسفل فغطتْ جبيني كله وأخفتْ وجهي في ظل المقدِّمة البارزة، ومددتُ رجلي أمامي فصرتُ في موقع أرى فيه دون أن ترينني، في وضع مسيطر تمامًا، كان الماء يتدفق بغزارة وقوة من النافورة القائمة في حوضٍ صغير أمامهما وبزخات وهبات متتالية متواترة منتظمة عالية، لكن أصوات دقات قلبي كانت الغالبة والمسموعة، كنتُ طوال الوقت أسأل نفسي بترقبٍ وريبة وخوف مبطن:
- مَنْ ينتظران.. أعاشقًا؟ مَنْ منهما؟

استبعدتُ فريدة في الحال، هي محجوزة لي، والويل إن كان هذا العاشق عاشقًا لتارا، كانت هذه المتنزهات مرتعًا للشباب والعشاق، أوجستُ خيفة حرارة جسدي أحر من حرارة الصيف، كانتا بين الفينة والفينة تلتفتان يمنةً ويسرةً كمَنْ ينتظر قدوم أحد، تزايدتْ شكوكي وتضاعفتْ مخاوفي، أبي على حق، وفكرتُ كيف أتصرف لو ظهر لهما ولد شقي؟ ماذا أفعل؟ تحسستُ حولي فوجدتُ غصن شجرة أشبه بالعصا ملقى أمامي، تصورتُ وتخيلتُ نفسي أهوى على الشاب الصفيق بهذا الغصن الصلب الغليظ، سألقنه درسًا مضاعفًا، ومرَّ الوقت ولم يظهر أحد لا رجل لا شاب ولا إنسان إلَّا الطيور المحلِّقة المزقزقة والصائحة والصافرة من فوق النافورة القاذفة بالماء إلى أعلى برتابة ملحوظة، مضى خمس دقائق يدي تارا تضغط على يد فريدة، تخيلتُ نفسي أنا جالس مع فريدة في الغابة، وفي حين غفلة ارتفع ذراع تارا ليحيط بعنق فريدة والتي قامت بالمثل بحيث صارتا منطبقتين مضمومتين ككتلة واحدة وكجسد بروحين، التصاق والتحام لم أرهما على هذه الشاكلة منذ معرفتنا بعضنا لبعض، والتصق الخد بالخد واليد دخلتْ اليد،

والخاصرة ضمتْ الخاصرة، والعيون قابلتْ العيون، وضحكات عذبة وقهقهات جذلة رنانة مرحة، ومن غير وعي شعرتُ بسعادة غامرة، انستُ نفسي بإقناع نفسي بأنهنّ صديقات العمر، كما نحن أنا وأخوها أصدقاء، إنها وجدتْ ملاذًا ومتنفسًا لها عند حبيبتي وخلاصًا من تعنت وقيود أبي وشروطه الصارمة وأذاه، نسيتُ قليلًا من حزني ومرارتي لأختي، أنها نفسَّتْ عن نفسها وتفسحتْ، انتهزتا الفرصة السانحة، وحسنًا ما فعلتا.

لم تمضِ جلستهما طويلًا بعد دقائق قامتا وسارتا في اتجاه البوابة، تنفستُ الصعداء وشعرتُ براحة نفسية، الزيارة كانت لمجرد نزهة وتبديل جو إذًا لم يكونا على موعدٍ مع شابٍ عاشق ولا مع شابٍ شقي وإلّا لجرت الأمور على غير ما تشتهي السفن، ولآلت الأمور ربما إلى كارثة وسببها أبي وأداته وواسطته أنا، وتبعتهما مرة أخرى من بعيد خلف الأشجار، واستمرتْ الملاحقة إلى أن وصلتا عائدتين إلى نفس مقصورة الانتظار، وراقبتهما من بعيد إلى أن جاء الباص وركبتاه، حينها استقليتُ سيارة أجرة ـ تاكسي ـ وحسب الخطة للتأكد من وصولهما، عدتُ فورًا إلى البيت فوجدتُ أبي في انتظاري، أخبرته بزمن ركوبهما باص العودة، وانتهتْ مهمتي عند هذا الحد، ولم أخبره بجلستهما في المتنزه حفاظًا على العلاقة بينهما، العلاقة التي لو أصابها عطب لبقيتْ تارا وحيدة بلا صديقات، كانت أختي معقدة وتجد صعوبة في اختيار صديقة، كانت منعزلة إلى أن تعرفتْ إلى فريدة صارتا صديقات بعد أن كانتا مجرد جارتين، والمدرسة الثانوية هي التي قربتهما، وحينها زاد حبي لفريدة.

في المساء سردتْ علي أمي ماذا حدث للجار حزقيل؟ أخبرتني بكل حزن نبأ اعتقاله في الدائرة بتهمة استلام الرشوة والاتصال مع المخربين.

- أي مخربين؟

هتف أبي بعصبية واستياء، ثم خفض صوته بعد أن قرصته أمي من فخذه:

- هؤلاء يريدون تشويه سمعة الشخص أولًا ليبرروا دافعهم السياسي من ذلك إقصاءه من البنك والاستيلاء على إيداعاته ومدخراته.

في الليل وعند منتصف الليل انتبهت لصوت انغلاق باب وكالة أنباء الحارة، فتحتُ عيني وفركتهما بقوة وقفزتُ من سريري، وقفتُ أراقب خلال فرجة بين الستائر خرجتْ وكالة متوجهة إلى بيت حزقيل، ثم عادتْ بعد دقائق مع صفية، الدهشة غمرتني منذ انتقالها للسكن في المحلة لم أجد صفية ولا أمها ولا أباها يومًا يقتربون من بيت العجوز الشمطاء، فما بالهنَّ اليوم؟ انتظرتُ خروج صفية لكنها طال مكوثها ولم تخرج، فعدتُ إلى فراشي فأخذني نوم عميق بعد يومٍ مليء بالإثارة والأحداث الغريبة، نمتُ رغم الأحداث قرير العين، لقد سمعتْ فريدة كلامي، عزز قولها وقرن وعدها بالعمل، إنها تحبني حقًّا وإلّا لما اهتمتْ ولم تلقِ بالًا على رغبتي وخياري، لأول مرة ترتدي ملابس محتشمة تلبيةً لرغباتي.

• • • •

(١٤)

في الصباح قرَّرتُ قرارًا صارمًا أن لا أعود إلى البيت إلَّا بعد أن أشاهد سلمان، الأحداث تلاحقتْ في الأيام الأخيرة، وقد حان الوقت أن نخرج للشارع، اشتقت إليه كما للشارع، وحسب فريدة أنه يمر بفترة صعبة، يشعر بذنبٍ وقلق ويقرأ قصص مغامرات لإلهاء نفسه وقضاء وقته، وآخر خبر عنه سمعته منها في الغابة: "أنه سافر إلى كويسنجق" أزمعت أن أطرق بابه وإن لم يكن هو موجود سأقابل أباه رغم أن كاكه هادي يحب الزيارات حسب المواعيد.

في الوقت الذي وضعتُ رجلي في الشارع سمعتُ صوتًا آتيًا من خلفي يناديني برقة وبصوتٍ خافت كمَنْ لا يريد جلب انتباه الناس، استدرتُ والتفتُ إلى مصدر الصوت وقشعريرة خفيفة تسري في دمي، فإذا بي وجهًا لوجه أمام كاكه هادي، مفاجأة لم أتوقعها أبداً قلما رآه أحد يمشي في الشوارع إلَّا في بعض المناسبات والأعياد، اتجهتُ إليه مسرعًا وبشيءٍ من الخجل والإرباك، واتجه هو بدوره نحوي وبنفس السرعة وهو يمد يده إلي من بعيد، فالتقينا في وسط الشارع تناولتُ يده مرتبكًا، فقال وهو يبتسم بحلاوة:

- كنتُ في بيت حزقيل إنه يوم السبت.

تذكرتُ يومًا قال لي أن الشاباط هو عطلة نهاية الأسبوع عند اليهود وتصادف يوم السبت، وأنه يحترم تقاليدهم فيزورهم أحيانًا في يوم السبت؛ ليقدِّم لهم هدية بالمناسبة حبًّا لهم، ولأن ذلك ما

يقتضيه حسن الجوار، رأيته في عيد المسيح يزور بيت عيسى وبيده صندوق مزيَّن بألوان زاهية.

بعد المصافحة سألني:

ـ لم أركَ منذ زمنٍ.. هل كل شيءٍ على ما يرام؟.

ماذا أقول؟ انتابتني رجفة في أطرافي، هل أبوح له أنني مغرم بابنتكَ؟ سوف لن يمانع إن قلتُ ذلك، لكن.. هل القُبل والعناق والضم يدخل في ضمن المسموحات؟ وأنا في خضم هذه التساؤلات ارتفع صوته:

ـ تعالَ معي.

أشار لي بيده الناعمة، رفعتُ عيني إليه بنوعٍ من الهيبة، فكانت ابتسامته كالملين سهّل التغلُّب على الخجل والحياء، وكأنه عَرِفَ تساؤلاتي وقرأ أفكار ي، فقال وهو يمسك بيدي:

ـ أعرف جئتَ تبحث عن سلمان.

سحبني برفق إلى جانبه، وألقى بساعده على كتفي وجعلنا نمشي على هذه الشاكلة إلى أن وصلنا إلى باب بيتهم، وهناك فتح الباب وأشار لي بالدخول ترددتُ، فدخل قبلي ثم سحبني برفق إلى داخل البيت لأنبهر بأناقته ونظافته لأول مرة أرى البيت من الداخل، وقد كنتُ محظوظًا لم أرَ أو أسمع يومًا من أحد من الجوار أنه دخل بيتهم إلّا قلة قليلة جدًا، ومن ضمنهم وكالة خانم وصلاح إن شاء الله في أيام الجمعة الذي تقلص هو بدوره مرات زياراته لهم، ربما وكما قالتْ فريدة بسبب مشاكله الداخلية، أما أنا فقد قمتُ بزيارتهم لأكثر من مرة منذ انتقالهم إلى الحي قبل ثلاثة أعوام تقريبًا، ولكنني

لم أتخطَ حدود الطارمة - الفناء الباحة المسقفة - في واجهة البيت، باستثناء أنه ولمرة واحدة دخلتُ غرفة سلمان الواقعة في الطابق الثاني المطلة على الحديقة الخلفية.

أشار إلى كنبة منفردة من المخمل الأحمر الفاخر طالبًا منِّي الجلوس، واتخذ هو لنفسه كنبة في الطرف المقابل.

كان يرتدي معطفًا غربيًا من اللون الأسود طويل يمتد فوق بدلته النظيفة، قام ونزع المعطف وعلقه على علّاقة ملابس خشبية في الزاوية ثم عاد إلى موضعه، أمامي أرى صورًا مختلفة الألوان والأحجام، وخزان خشبي بواجهة زجاجية رصت خلفها قارورات الوسكي والكؤوس النظيفة، وفوق الألواح رصت كتب وألبومات وصحون من الخزف كل ذلك بترتيبٍ ونسق أنيق، وفي الوسط ينتصب جهاز تلفاز جديد، الحيطان مطلية بلون بني فاتح، بجانب الخزان جلبتْ انتباهي صورتين أحدهما لفريدة وحدها والأخرى لفريدة مع أختي، فيها فريدة تحيط عنق أختي الملفوفة بشال أحمر بذراعها العاري وهما يضحكان ضحكة عريضة وبمرح، فريدة كشفتْ عن كل أسنانها ولا أثر لأسنان تارا، ومن وراء النافذة المرصوص على حافاتها المزهريات لاحتْ لي الحديقة بأشجارها وورودها التي كان كاكه هادي يهتم بها كثيرًا، وفي وسط الحديقة انتصب كرسيان ومنضدة صغيرة من الحديد وزجاجة عِرق صغيرة فارغة ملقاه تحتها، ثبتُ نظري على صورة لسلمان وهو بملابس رسمية؛ بدلة.. جاكيت وبنطلون، بدتْ أنها تعود إلى بضع سنوات خلتْ.

في الوقت الذي سمح كاكه هادي لي أن أتعرف بحرية على محتويات الغرفة، كان هو يلهي نفسه تارةً بشد رباط عنقه وتارةً أخرى بنقل معطفه الملقى على المقعد ويعلقه على العلَّاقة؛ ليتسنى لي تفحص المكان بكل حرية، ثم عاد وجلس قُبالتي.

كان يرتدي قميصًا جديدًا بني فاتح اللون مطابق تقريبًا للون الحائط وبنطلون كاوبوي أزرق فاتح فاخر جديد، بدتْ عليه أناقة مفرطة، انتقل نظري دون وعيٍ منِّي إلى صورة سلمان، وفي نفس اللحظة رفع رأسه ينظر في نفس اتجاه نظري وأخذ ينظر إلى الصورة، ارتسمتْ ابتسامة مرحة على وجهه الطلق المدور الأبيض، وقال لي معتدلًا في جلسته:
- سلمان لم يكن يرتدي الملابس التقليدية إلَّا قبل عامين، لا أدري.. ما غيَّره؟.

ثم ضحك ضحكة رقيقة:
- منذ اليوم الذي جاء إلي وقال لي أبي إني حلمتُ بفتاة جميلة.

أخذ يضحك بشدة أثار عجبي وحاز على إعجابي، وفجأة كفَّ عن الضحك، فاتخذ وجهه العريض الأبيض ملامح الجد:
- الولد هذا يمر هذه الأيام بحالة غريبة، عرفتُ بعض أسبابها وغابتْ عنِّي الأخرى، إنه شاب ككل الشباب وليس هناك أمر غريب، الأمر طبيعي لولد في عمره لكن ما يقلقني تغيُّر مزاجه.

أومأتُ وأنا أجيل بصري في أنحاء الغرفة منتظرًا ظهور فريدة وأمها، عَرِفَ ما يجول في خاطري فقال موضحًا:
- كان في نيتي أن أطرق بابكم اليوم؛ كي أسلمك رسالةً من سلمان.

دس يده في جيبه وأخرج منها قصاصة ورق، ومما لفتَ انتباهي أنها كانت شبيهة بتلك التي كان ملا نور يلتقطها من المجاري، قمتُ وتناولتها بكل احترام من يده، وانتظرتُ إشارة منه للسماح لي بقراءتها، فجأة انتبهتُ في هذه الغرفة الساكنة الهامدة إلى شيءٍ فاتني الانتباه إليه عند دخولي، وسألتُ نفسي في وجل:

- أحقًّا أنا في حضرة كاكه هادي الأستاذ في الجامعة، ويجمعنا سقف واحد ونجلس لوحدنا لا إنس ولا جنّ؟

وأنا أختلس النظر منه أنقل عيني بين الورق ووجهه الشبيه بالورق وكأنني أراه لأول مرة، نهضتُ من مكاني وقلتُ له معتذرًا عمَّا صدر منّي:

- آسف على الوقاحة، سمحتُ لنفسي أن أجلس هكذا قُبالتكم..

قاطعني بضحكة عارمة اهتز لها بطنه البارز تحت قميصه، وقال:

- التواضع زينة المرء، البروفيسور يذهب إلى الجامعة على دراجة هوائية في عالم الغرب الأوروبي.

تلقائيًا رفعتُ رأسي في اتجاه الحائط، وركزتُ عيني على صورة رجل يقف على البلاج بمايو (سروال قصير) أشار بسبابته الناعمة القصيرة إلى الصورة، وقال يبتسم:

- أتدري.. مَنْ هذا؟

وبنفسه أجاب:

- هذا أنا.

لأنه كان واثقًا بأنه يتعذر علي معرفته، دهشتُ وأنا أردد مع نفسي:

- أكاكه هادي عاريًا؟

سقط من عيني أما هو فقد قرأ فكري مرة أخرى، فقال موضحًا كالمدافع عن نفسه:
- إنه أمر غير عادي هنا أما هناك فهو شيء عادى جدًا حتى لو رآكَ أحد بدون ملابس على البحر.

وكمَنْ يريد قلب الموضوع أومأ لي مشيرًا إلى القصاصة التي اهتزتْ بيدي المرتجفة، وهو يردد:
- أجلس أولًا، أجلس.

نظرتُ إلى نفسي فتنبهتُ أني كنتُ واقفًا، هبطتُ على المقعد الوثير بلا تأخير.
- اقرأ.

رفعتُ الورقة إلى عيني، وقرأتُ بصوتٍ يسمعه:
"بسم الله الرحمن الرحيم: أخي الوحيد لقمان، لأمرٍ ما اضطررتُ إلى السفر إلى بعض الأقارب، أرجو أن التقيكَ في أقرب وقت".

رفعتُ رأسي إليه، فبادرني بالقول قبل أن أفتح فمي بالسؤال:
- أنا نصحته ليذهب ويقضي وقتًا في مكانٍ آخر ويبدِّل الجو.

سكت ثم أضاف:
- ذلك خيرًا له.

وخفض رأسه ذا الشعر الأسود الكثيف، وفكَّر قبل أن يضيف:
- وخير لكَ أنت أيضًا.

جفلتُ مرددًا مع نفسي:
- لي.. وما السبب؟.

عَرِفَ ما يجول في خاطري، وأجاب على استفساري بابتسامة تحمل مغزى:

- ذلك خير لكَ.. أليس لكَ بديل؟.

توسعتْ حدقتا عيني، ضحك ضحكة مقتضبة قوية اهتز لها بطنه الصغير اللحيم، وقال محلّلًا معلّلًا:

- إنكَ تملك مَنْ هو خير لكَ من أخيها هذه الأيام.

ذبتُ من الحيرة والخجل، لو رآني أبي في تلك اللحظة لما تعرف علي، تفطّن إلى ارتباكي فحاول أن يزيل الحرج، فاستطرد يتحدث عمّا يلطف الجو وهو يشير إلى صورة فريدة على الجدار:

- خرجتْ مع أمها في زيارة لأحد الأقارب.

أحسستُ بخوفٍ غريب وقلقٍ غامر، إذًا نحن لوحدنا! رغم ثقتي واحترامي له، لكنه كان لا يزال غريبًا عنّي لشحة اختلاطنا معه وانعدامِ تبادل الزيارات، كانت أمي وأم سلمان تكفيهما إطلالة وحديث يومي فوق الحائط الفاصل بيننا المتاخم، ومما زاد من هواجسي أنه في بعض تصرفاته حاكى أهل الغرب، ولم يكن للتقاليد أي احترامٍ.

بعد سكوتٍ قصير أشار إلى صورة أخرى - سيدة بمايوه على البلاج - ثم قال مغمغمًا كمَنْ يمصمص ليمونة:

- انظر إلى الشقراوات.. أتراهنَّ جميلات؟.

لم أكد أستطيع رفع رأسي، لاحظ خجلي وحرجي فقال لي بنبرة جادة:

- لقمان.. أنت كابني تمامًا، لا تخفي عنّي شيئًا وبح بما يجول في خاطرك وعواطفك.

سكت لحظة وهو ينظر إلي بعينين رماديتين، ثم أضاف قائلًا مؤكدًا:
- أنا أبوك الثاني، لكن من نوعٍ آخر، فلا تتردد أن تبوح لي بما يجول في خاطرك.

عُرِفَ في الحي بمسمياتٍ شتى لا حصر لها، منها: هادي شيوعي، هادي غاندي، هادي نبي الكرد زراده شت، هادي فرنسي، هادي بى دين، هادي يهودي، كلٌّ حسب رأيه وما وجده فيه، أفكاره التسامحية والإنسانية كانت غاندية، ونظرته إلى الأديان والأمور الاجتماعية وعدم تقيده بالتقاليد وانفتاحه وإعطائه المجال بمطلق الحرية لأولاده.
ألقى نظرة جانبية على الحديقة، وقال بدعابة لكن بنبرة حزينة:
- سمعتُ عن دجاجتكَ، والمصير المأساوي الذي لاقيته، والله حزنتُ عليها، على هذه الدجاجة الشقراء الجميلة.

فزعتُ في نفسي طرح نفسه سؤال:
- من أين عَلِمَ بالحدث؟

خرج من الصالة، وعاد بعد دقيقة يحمل بيديه قدحين من الكوكا كولا، وجلس في مكانه وعاد يواصل ما قطعه ويجيب عن السؤال الذي خطر ببالي:
- دجاجتكَ الشقراء اعتادتْ أن تتسلّل إلى بيتنا كل أمسية وأحيانًا أمسك بها بعد جهدٍ جهيد، فبعد ملاحقة طويلة تدخل غرفتي أو

غرفة سلمان، رأيتها أكثر من مرة في غرفة سلمان كأنها تعشقه، كيف دخلتْ؟ لا أعرف على أيَّة حال ربما صار صيد الدجاج هواية ثانوية.

قال ذلك وارتشف رشفة من قدحه، أوجستُ خيفة تمتمتُ في نفسي:
- تعشقه.. ماذا أسمع؟.
شعرتُ بشيءٍ غامض يدبُّ رويدًا رويدًا في داخل مجال عاطفتي وعقلي، شعرتُ أن هناك أمورا غامضة في الأمر، ووجدتني بحاجة إلى معرفة تعليل وتحليل يقدِّمه لي أحد، فقد عجزتُ عن ربط الأشياء ببعضها، السؤال ظل يراود فكري ويهيمن على عقلي.. ما سر غيابه بعد موت الدجاجة؟ أو بالأحرى بعد الجريمة المخلة بالشرف - كما سمعتها من أمي - وما سر اهتمام أبيه بها، وملاعبته لها؟ خفق قلبي بين أضلعي.
علتْ شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:
- دجاجتكَ عوقبتْ بالذبح؛ لأنها اغتصبتْ.

كلام غريب لم أسمعه من قبل، لم أفقه المضمون تمامًا لِمَا فيه من تناقض وغموض، لم يدع سكوتي وحيرتي طويلًا فمن مكانه التفتَ مضيفي إلي، وقال بلهجة مازحة مهدئة، فبدا لي أنه شعر بما يخالج صدري:
- ابني لا تهتم لكَ دجاجات أخر، ولكَ دجاجة شقراء أجمل وأكبر.

فهمتُ.. ماذا يقصد؟ احمر وجهي خجلًا، مدَّ يده إلى صورة فريدة - حديثة:

- شابة متفتحة ناضجة تملك غرائز فطرية، وهذه الغرائز تحتاج إلى منفذ.. فماذا أفعل؟ هل أستطيع سد فوّهة البركان؟ وحتى ولو تمكنتُ من غلقها فلا يزال فعّالًا يظهر ويطفوا إلى السطح بصورة أو بأخرى أو ينفجر.

تنهد ونفخ نفسًا طويلًا وقد تشنجتْ ملامحه قليلًا، وقال بنبرة تشي ببرمه:

- إن الحب والجنس حاجات ضرورية كالطعام والماء، ومتنفسات ومخارج لقاذورات الجسد والنفس كالبكاء والضحك، وهي كمجرى الماء إن سد طريقه انحرفتْ وسلكتْ طرقًا ملتوية.

لحظني بزاوية عينيه الرصاصيتين، فقد كان يتحاشى النظر في عيني بعد أن أحس بارتباكي ومداراةً لي لعدم وجود أحد في البيت سوانا.

صورة البلاج جلبتْ فضولي أكثر من أي شيءٍ آخر، كل هذه الأجساد العارية، ثبتَ نظري لأكثر من مرة على الصورة ذاتها وكأنه قرأ سريرتي مرة أخرى، فقال بعد ان وضع ساقًا على ساق ويشير إلى الصورة:

- أنت بلغتَ مبلغ الرجال أو كدتَ، فلذلك أحدثكَ حديث رجل لرجل.

طرتُ من الفرح، أنا رجل، الرجل لا يخاف ولا يخشى ولا يخجل، وبدون وعيٍ منّي وجدتني أعتدل في جِلستي وأستقيم وأبرز صدري وأحدق في عينيه - كما يفعل أبي وكل الرجال.

استطرد وعاد النظر إلى الصورة:

- كل هذه الأجساد العارية ولا أحد ينظر إليهنَّ، أمر عادي نحن نتحدث أضعاف ما هم يتحدثون عن العري والنساء والجنس، أتدري.. لماذا؟.

ارتجفتُ لكلمة جنس، أما هو فأخذ يحك ذقنه وهو يحدق في الصورة كمَنْ يراها لأول مرة وواصل:
- كل ممنوعٍ مرغوب، ونحن لا نجده على الأرض فنبحث عنه في الخيال، ونعبِّر عنه بالكلمات المنمقة والإطناب والتلذُّذ بالتحدث عنه وبالتفصيل، ونبتغي له الوسيلة.

استغرق في تفكيرٍ طويل، ثم نظر إلي كمَنْ وجد شيئًا ثمينًا للتو:
- أعتقد هو هذا السبب، أعني: الكتمان والكبت يكمن وراء كل هذه الآراء والمدونات العربية حول الحرام والحلال والحور والغِلمان، ومجلدات عمَّا يجوز ولا يجوز وما هو مباح وممنوع، وكل هذه القيود والشروط والأصناف من جائز وممنوع ومسموح، حتى يخيل إليك وأنتَ تقرأ كل هذه المدونات أنك إن قاربتَ فتاة غريبة لحدثتْ الحرب العالمية الثالثة بسببها، بينما لم يُكتب شيء عن هذه الموضوعات عند أهل الغرب فقد اجتازوا هذه المراحل، فتراهم لا يضيعون دقيقة عليها، وبدلًا انصب اهتمامهم على البحث والاختبارات والاكتشافات بعدما شبعوا من هذا الشيء اللذيذ الممنوع المرغوب، وأخذوا يركزون تفكيرهم على الأهم.. العلم والعمل.
- الشيء اللذيذ.

غمغمتُ في نفسي احمر وجهي، وسرعان ما غيَّر الموضوع ووجَّه لي ودون أيَّة مقدمات سؤالًا أنفذ من الرصاصة:
- قل لي.. إلى أين وصلتَ مع عشيقتك؟

عقدتْ الدهشة لساني:
- أيقصد بالعشيقة ابنته فريدة؟

وكعادته نظر إلى بعيد، وقال:
- كم تريد الإجابة بدلًا عنِّي.

وفي نفس الوقت رفع الإحراج عنِّي:
- أمل أن لا تتجاوز العلاقة حد القبلة.

ثم وبعد تفكيرٍ قصير علتْ محياه ابتسامة كالحة معبِّرة عن مرارة وإشفاق:
- حلال عليك القبلات، وحبذا لو كان لابني المسكين.

انقطع صوته وامتدتْ يده عفويًا إلى صورة سلمان في بدلته الرسمية، وأضاف:
- إنه يعاني محتار.. أي الطرق يختار طريقي أم طريق خاله؟ خاله نموذج حي للمجتمع الذي نعيش فيه، المجتمع المتناقض مع نفسه وغيره، مجتمع الأسرار والظلام، مجتمع فيه كل مساوئ أوروبا وأكثر من لواط وشذوذ سحاق ووووو.. كل ذلك تحت البراقع وخلف الكواليس خلسة ولا يعرف أحد، ثم كل هذه الشتائم للغير، إنهم سبب انحراف شبابنا وعزوفهم عن الدين وما إلى ذلك، علمًا بأنه ما يحدث هنا من اعتداء وهتك للقيم والأعراض وغالبًا تحت اسم الشرع والقانون، أضعاف ما هنالك.

توقف وسحب نفسًا عميقًا قصيرًا، ثم علَّق بصره مرة أخرى على ابنه:

- مسكين، إنه بركان هائل لا يعرف.. أين يفرغ كل هذه الحمم؟ أخشى عليه من عاقبة وخيمة؛ عقدة أو انحراف أو جنون، أنت تعرف ابني.

آنستُ لمعانًا متحركًا بطيء التكوين في زاوية عينه اليسرى، فعرفتُ أن دمعة كبيرة ترقرقتْ هناك، وقال يبلع ريقه:

- سأزوجه طالما ينهي المرحلة الإعدادية.

تذكرتُ قول الطبيب في مجلتي (صحتك حياتك): "الزواج المبكر هو الحل الأمثل للشباب في عالم الإسلام".

ثم وهو يسلِّط عينيه على الصورة بشغفٍ كمَنْ يشتاق إلى صاحبها:

- وخاله.. يا للمسكين! هذا الولد حظه السيء شاء له أن يكون له خال اسمه صلاح إن شاء الله، ويا له من خال!.

توقف يحدق في وجهي كمَنْ يستطلع ويتأكد من أن الجالس أمامه ما هو إلَّا فتى لم يبلغ الحُلم بعد، بعدها عاد ينظر إلى الصورة ليواصل ما قطعه:

- محنته بدأتْ قبل فترة طويلة، فبعد طرده من المدرسة كان يأخذ بيده المصيادة ويرشق بها زجاج نوافذ المدرسة بالحجارة، تعقَّد من المدرسة وملأ الحقد نفسه، غدر به الزمان فأصبحتْ هوايته المفضلة إلحاق الأذى بالمجتمع بشتى الوسائل، لم يهمه أي إساءة أو ضرر المهم أن يؤذي الناس وأسرته، ساء حاله فاضطر أبوه - رحمه الله - أن يأخذه وتحت ضغط أخته (أم سلمان) إلى جامع الحيِّ

الذي كنا نسكن فيه، كان إمامًا خلوقًا صادقًا أمينًا يعلِّمه ويلَين قلبه بزرع حبِّ الخالق في قلبه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كم كانت سعادتنا كبيرة عندما تحوّل بعد أسبوع من وحشٍ عدواني شرير إلى إنسان وديع محب للخير، لكن لم تدم فرحتنا طويلًا فقد بدأ إحساس خفي يدبُّ في نفوسنا إنه، أي: صلاح، لم يتحول إلى إنسان وديع فحسب بل بُدل إلى إنسان معقد متحفظ متطرف، كان أحيانًا لا يعود ليلة أو ليلتين متتاليتين يقضيهما في الجامع للعبادة والخلوة والتراويح، صار متدينًا خائفًا من خالقه حتى صار لا يلفظ كلمة إلَّا كانت الثانية اسم من أسماء أو عبارة من عبارات التمجيد والاسترحام والدعاء والتضرع، واتخذ السبحة الطويلة بدل القلم أداته ووسيلته في الحياة وتحقيق الأمنيات واللحية الطويلة زينته الوحيدة، قلنا: "إنه تجنن" وكلما تقدَّم الوقت كلما تشدَّد في الدين وترك الحياة إلى أن فكرتُ يومًا أن أعود إلى الإمام الطيب وأتوسل منه أن يعيد سيرته الأولى، وأقول له: "الشقي صلاح كان خيرًا لنا من التقي صلاح، كسر الزجاج كنا نستطيع تعويضه للمدرسة، ولكن.. مَنْ بإمكانه إعادة سبك شخصية الولد إن تهشمتْ وصارتْ فتاتًا وحطامًا؟".

توقف يتفحصني، وكنتُ أنا مشدودًا إلى القصة وأحببتُ أن أظل طول النهار جالسًا مستمعًا إليه، ولحسن الحظ كان بحرًا لا ينضب، قام بعد قليل وجلب كاسين من العصير من المطبخ، وبعد أن وضع كأسًا أمامي عاد إلى مجلسه، ارتشفتُ رشفتين عاجلتين كي أرطب حلقي الذي جف، ثم استقمتُ جالسًا بانتظار سماع المزيد، جففت

شفتيه بمنديلٍ ورقي وعاد يخاطبني بصوته الصافي الواطئ البطيء:

- تحسَّن حاله بعد الزواج نسبيًا، لكنه ظل يعاني من مشاكل كبيرة ومن نوعٍ مختلف هذه المرة، فعاد إليه تطرفه، أعتقد أن ملا نور محمد كان له دور هام في عودته إلى التشدُّد والتطرف، ولسوء حظه وحظنا تقع داره بالقرب من الجامع ذي المنارة - المئذنة الواحدة - الجامع الصغير، لا أدري.. كيف غسل دماغه؟ وشخصيًا أراه رجلًا غير صالح، براني.. ملا نور يبحث عن شريكة حياته بنفسه، لا أعترض عليه من هذه الناحية، فأهل الغرب لهم نفس الطريقة في اتخاذ شريكة حياتهم، ولكن هذا الإمام الشاب مسكين ينطبق عليه المثل: يشتهي ويستحي.

توقف يلعق شفتيه الحمراويين بطرف لسانه ثم رماني بنظرة خاطفة، وقال وهو ينظر من خلال زجاج النافذة كمَنْ يريد أن يتأكد من عدم وجود أحد:

- أنا أُلاحظ هذه الأيام أن هناك منافسة ما بين النادي والمسجد، يتنافسان منافسة خفيَّة لكن قويَّة، أُلاحظ أنه بعد تحسُّن أحوال المعيشة للناس تزايد بل تضاعف زبائن وزوار النادي على حساب زوار الجامع الذين تقلص عددهم بدرجة ملحوظة، إنهم يرونها قضية دين وإيمان واعتقاد، وأنا أراها قضية ربح وخسارة - تجارة.

ثبتَ بصره علي، ثم أشار إلى صورة كلب صغيرة - أبيض وأسود - كان يعلِّقها في زاوية بعيدة من الهول (الصالة) وقال وابتسامة عريضة تعلو محياه الأحمر:

ـ الصورة هذه أُخفيها كلما جاء خال سلمان هنا للزيارة، يقول: "إن وجوده يطرد الملائكة عن البيت".

ارتفعتْ ضحكته حتى بلغتْ مسامع الناس في الخارج، ثم وهو يعتدل:

ـ هذا الكلب كنتُ قد جلبته معي من أوروبا لأُجابه بسيلٍ هادر من الاحتجاجات والاعتراضات، ومن كل جهة: "إنه نجس، إنه قذر، حرام.. وما إلى ذلك من نقدٍ ومن لاذع الكلام" والهجوم الأكثر إيلامًا شُنَّ من أقرب المقربين إلي في داخل هذا المنزل تحت هذا السقف، فأم سلمان خيرتني بين الكلب وبينها هي، لم تخمد الانتفاضة ضد الحيوان المسكين، فاضطررتُ أخيرًا إلى صرفه مضطرًا تخلصتُ منه.

ثم وهو يتنهد:

ـ والذي يؤلمني هو أن هناك مفاهيم متعارضة متناقضة متنافرة، وإلّا ما معنى أن محمدًا بن حاجي عبدالله البقال يغتصب إتانا ويتزوج من قاصرة في عمر ابنته؟ ثم بعد ذلك يذهب إلى الجامع.

وكمَنْ تذكر شيئًا بغتةً شع بريق من عينيه المائيتين، وقال بمزيجٍ من حزنٍ ورثاء:

ـ سلمان يحتاج إلى راحة نفسية، وقد تأثر كثيرًا بموت دجاجتك التي كانت تقفز من على الجدار، كنتُ أراها أحيانًا تمرُّ من أمامنا نحن ـ الأربعة ـ ولم تقف عند أحدٍ منا، ويتوجه إليها كأنها كانت تعرفه.

قفز فؤادي من هذا الخبر للمرة الثانية يعيد أبو صديقي الخبر:

ـ لغز؟

ما معنى أنه كلما جاء الكلام على سلمان ذكر دجاجتي؟ أردت أن أسأله سؤالًا ظل يراودني كثيرًا في الآونة الأخيرة، ترددتُ أولًا ثم تجرأتُ أخيرًا، فقلتُ له بمنتهى الأدب:

- أسمح لي أن أسألكَ: هل تظن أن هناك علاقة بين اختفاء سلمان وموت الدجاجة؟ ربما تجد السؤال تافهًا، فأعتذر لذلك.

فأجاب بكل صراحة وهو يبتسم ابتسامة أبوية:

- ابني إنه لا علاقة بين الأمرين، كل ما في الأمر أنني أردت أن أطرد عنه وساوس هذا الشيطان الذي يعد نفسه ملكًا، أبعده ولو إلى حين عن هذا الخال المعقد، وكان متحمسًا للسفر جدًا.

وعاد يضحك ويهز رأسه، ثم قال وهو يثبت عينيه في عيني:

- قل.. ما في رأسك يا فتى يا جيكل؟.

ثم بعدما رأى سكوتي عاود الكَّرة، وقال بإلحاحٍ:

- قل لي كل ما يدور في خلدكَ، فأنتَ حُر كما قلتُ لكَ في البداية.

وقلتُ بتلعثمٍ خفيف:

- سمعتُ من أمي شيئًا من قبيل مخلة بالشرف، وذلك في حقِّ دجاجتي.

هزَّ رأسه كالمستهزئ:

- هل هناك جريمة اسمها مخلة بالشرف؟ وهل هناك شرف؟ وما معنى الشرف؟!

سكت وزم فمه ولواه كالممتعض، ثم قال وقد ارتفعت نبرة صوته:

- الشرف شيء وهمي، ما عندكَ مشرِّف عندي مذِّل، إنه شيء نسبي، أتعلم أن عبارة "مخل بالشرف" تعني اعتداء جنسي.

نهض فجأة وهو يرمقني بنظرة خاطفة، وقال وهو ينهض قائمًا على عجلٍ:
- نسيتُ عليا حضور اجتماع بعد نصف ساعة من الآن.

صافحني وصاحبني إلى الباب، ثم وأنا في طريق العودة إلى بيتي سمعتُ بوق سيارته من بعيد، ولمحتُ ابتسامته دون أن أسمعها.

• • • •

(١٥)

ألقيتُ بجسدي بقوة على سريري، ولكن لم تمضِ دقيقة إلَّا وأصوات غاضبة تقترب تدريجيًا وتعلو، وثبتُ إلى الأرض ومضيتُ نحو الباب، وقفتُ فوق السلم أنصتُ مذعورًا، ضجيج الأبواب تنفتح وتنغلق، وقع أقدام سريع، ارتطام، الصوت العالي استحال إلى صياح، غضب أبي في تصاعد مستمر، الصوت كان متحركًا لا يثبت في مكان، أبي كان هو المتكلِّم وأمي كانت تتدخل في ردود مقتضبة، يبدو أنهما في كهف مصطفى، لا يجب أن أتدخل إلَّا إن كان هناك سبب، والسبب هو إن ناداني هو بنفسه للتدخل، كانت تلك أوامر أبي لا محيد عنها قيد أنملة، الصوت انتقل إلى الهول، لم أسمع حسًا من تارا يبدو أن الأوامر اقتضت أن تكتفي بالاستماع فقط، أبي حانق سمعته يقول:

- وكالة تقول: "تارا عمرها خمسة عشر عامًا، إنها مؤهلة للزواج".

جمدتُ في مكاني وارتعشتْ أطرافي:

- زواج.. تارا! لمَنْ؟.

جاء صوت أبي وقد خفت حدته قليلًا:

- (إنه لا يزال يعيش في عصر الصحابة والجاهلية) هذه المرة سأطرد هذه العجوز المكارة إن دخلتْ بيتي، هذه الثرثارة إن جاءتْ مرة أخرى بمثل هذه العروض السخيفة سأطردها.

رددتُ في نفسي وأنا لا أكاد أصدق أذني:

- يعني بذلك وكالة.

وقفز إلى ذهني سؤال ملح:

- مَنْ تقصد تارا؟ أحقًّا؟ ربما لم أسمع جيدًا.

فتحتُ فمي ونزلتُ درجتين من السلم، كان أبي يقول بارتجاج:

- لعنة الله عليها وعلى مهمتها القذرة.

- مهمة أم مهمات؟

تساءلتُ، فملا نور كما سمعتُ من الناس أن مهماته ووظائفه لا تعد ولا تحصى، فربما هي تشاركه في تحقيق وتنفيذ جُل أو بعض هذه المهام.

خمدتْ الأصوات هنيهة، ثم تلا ذلك بعض الهمسات والهمهمات والنحنحات، ثم أخيرًا سكت الصوت نهائيًا، فلم أعد أسمع أي حسٍ ولا حسيس، تخيل إلي أنني سمعتُ أنَّة منبعثة من غرفة تارا، ربما توهمتُ لبثتُ لدقائق معدودة أفكِّر فيما علي فعله، هل أعود إلى غرفتي - وهذا هو الخيار الآمن - أم أنزل وأستفسر وأقدِّم ما باستطاعتي من دعم ومساعدة؟ ألم يعترف أبي بنفسه أنني رجل؟ أخيرًا وصلتُ إلى قرار، يجب علي أن أعرف الحقيقة وبلا تأخير، على أطراف أصابعي هبطتُ السلم والفضول يدفعني إلى معرفة ماذا؟ ومن باب المدخل ألقيت نظرة خلسة خاطفة إلى الداخل، فرأيتُ أبي واقفًا في الظلام يشد بيدين مرتجفتين رباط روبه الطويل، كان يتهيأ للخروج إما إلى الجامع أو إلى الدكان ليس إلَّا، نقلتُ بصري إلى غرفة تارا الملاصقة، كان بابها مغلقًا بإحكام كما تهيأ لي، لا أثر حتى لفرجة بحجم سم الخياط مطبقة، وفي الوقت

نفسه كانت أطباق أمي تصدر أصواتًا مزعجة في المطبخ مهيجة تتناسب مع الهياج العام الذي أثاره أبي، مشيتُ على أطراف أصابعي عبر الصالة وبخفة وخيفة اللص وعلى وجهي أكثر من علامة استفهام، طرقتُ الباب وانبعث صوتها خافتًا من الداخل تقول:

ـ ادخل.

ودخلتُ واقتربتُ منها، وأنا في بجامتي الزرقاء المفضفضة، كانت هي تستلقي على ظهرها فوق السرير مسندة رأسها وشعرها الأشعث على المسند الخلفي، وتنظر إلى السقف في إعياء وشرود حين أحستْ بدخولي رفعتْ رأسها ونظرتْ إلي بأسى وترقُّب ولهفة كأنها كانت تنتظر قدومي، على وجهها أمارات الانقباض والاستياء تشوبها ملامح حزينة، وقبل أن أتمكن من فتح فمي قالتْ بصوتٍ كئيب النبرات:

ـ ملا نور أرسل وكالة لطلب يد أختك.. تارا!

هتفتُ بعصبية وأنا من الغضب في نهاية:

ـ ماذا تقولين.. ملا نور؟ ولكن لمَنْ.. إليه؟!

هرعتُ إلى أمي فوجدتها في المطبخ جالسة على الحشية تنظر بشرود وهم إلى الحائط أمامها، وسألتها:

ـ أماه.. هل صحيح ما سمعتُ؟.

اومأتْ بنعم وثبتت نظرها علي بإشفاق، تنهدتْ ومسحتْ دموعها الجافة بطرف سبابتها من زاويتي عينيها، ثم قالتْ بصوتٍ حزين مرتج:

- ابني أنا أخاف من هذا الرجل.

أطرقتُ وقلبي يخفق بشدة ورغم ذلك حاولتُ تهدئتها، فقلتُ لها بارزًا صدري إليها:

- لا تخافي إن معكِ رجل.

مدتْ يدها إلي وأمسكتْ بيدي الممدودة إليها، جذبتني برفق إليها واحتضنتني وقبَّلتْ راسي، قلتُ لها وأنا أجلس لصقها:

- أمر غريب لا يعقل أبدًا، لا يمكن إنها في عمر ابنتها أو حفيدتها لو كان لها ابنة أو ابن.

ظلتْ صامتة واقفة متشابكة اليدين على بطنها، الصور دارتْ أمام عيني ملا نور ينحني وينظر إلى الفتيات من خلال شاله الشفاف، ولا أستبعد أنه نظر ما بين فخذي صفية بنت جو بحجة شدِّ القيطان، قالتْ إحدى السيدات: "إنه يبحث عن جميلات".

- أملاك أم شيطان؟!

سألت أمي، وجاء جواب أمي أبرد من الثلج وأحر من الجمر:

- ليته كان شيطانًا فنحذر منه ونتوقاه، لكنه شيطان في زي ملاك، والويل لنا..أخاف.

كان للخبر وقع غريب مفاجئ علينا جميعًا، في نفس اليوم دعا أبي أمي حال عودته من الجامع وكلَّفها أن تذهب فورًا إلى وكالة، وأن تخبرها أن هذا الأمر لن يحصل، وأن ابنتها صغيرة على الزواج وأنها لا تزال تلميذة، خرجتْ أمي بعد أن لفتْ نفسها بعباءتها السوداء الطويلة، وعادتْ بعد خمس دقائق.

كانت زيارات أمي للأرملة العجوز قصيرة لا تتجاوز في بعضها الوقوف على عتبة الباب والتحدُّث لخمس دقائق، أما تارا فإنها لم تخرج طوال اليوم من غرفتها، وقد أغلقتْ الباب على نفسها.

أبي كان لا يطرق بابها أبدًا، فكُلِفَتْ أمي أن تستطلع عنها ففعلتْ وخرجتْ بعد قليل تطمأنه بأن تارا بخير، رغم توترها وأنها تعد كتبها ودفاترها استعدادًا للمدرسة، حسب علمي لم توجد طالبة تكُّن الحب للمدرسة بقدر أختي، كانت تحلم بالعودة وغالبًا ما أعلنتْ عن تذمرها ومللها من العطلة الصيفية الطويلة.. لا عمل ولا أصدقاء: "وحدة قاتلة" كانت تشكو أحيانًا عندي، بالنسبة لرأيي الشخصي كانت المدرسة لأختي المتنفس الوحيد والمتنزه الوحيد والسينما الوحيدة التي سمح أبي لها بالزيارة، هفتْ بي رغبة كامنة في ملاقاتها والتحدُّث إليها، فظلَّلتُ في ذلك اليوم في البيت إلى أن خرجتْ أمي للسوق وغادر أبي إلى الجامع، طرقتُ الباب في وقتٍ يقارب الثانية بعد الظهر، فجاءني صوتها الخافت:
- أدخل لقمان.

كانت تنتظرني، في الآونة الأخيرة لم أرها حتى في المطبخ، فقد آثرتْ العزلة، دخلتُ وسلمتُ فنهضتْ ومدتْ يدها إلي فتصافحنا كالضيوف.
- اشتقت إليكِ.

قلتُ لها وجلتُ النظر حولي، كانت رائحة الكتب والدفاتر الجديدة المتناثرة في أرجاء الغرفة تملأ المكان، جلستُ على كرسي من الخشب بعد أن تمَّ لي الجلوس على كرسي متطابق في النوع الذي

هي تجلس عليه، كانت أكثر شحوبًا وإنهاكًا وأكثر انقباضًا، تجاهلتُ موضوع ملا نور ظللنا نجلس هكذا لبرهة في صمتٍ كالغرباء، منذ اليوم الذي زارتْ السوق والمتنزه لم أقابلها وجهًا لوجه إلّا عبورًا ومرورًا عابرًا من وإلى الحمام أو المطبخ، حتى خِلتُ أنها قد أحستْ بمراقبتي لها، أردتُ تلطيف الجو وسألتها بمرح مداعبًا:
- ألم تسمعِ بالرياح الهوجاء من حولكِ؟

أومأت وقالتْ ببحةٍ غريبة في صوتها:
- بلى، ومرتْ بسلام.

وجدتُ في عينيها بريقًا لم آلفه من قبل، وما شدَّ انتباهي أن صورة كبيرة لفريدة زيَّنتْ الحائط فوق رأسها، كانت فريدة في الصورة ترتدي ثوبًا مؤلفًا من قطعة واحدة يمتد إلى منتصف ساقيها ويضيق عند منطقة الأرداف بشكلٍ مغري، وشعرها الذهبي الحريري ينتشر على جبينها وينسدل على كتفيها لامعًا تحت أشعة الشمس، فبدتْ كمَنْ تقف على البلاج ولكن لم أجد سوى أرضٍ معشبة تحت قدميها، وكانت تضحك ضحكة عريضة سعيدة تكشف عن أسنانٍ ناصعة وتشير بيدها إلى بعيد، خفق قلبي وأنا أنظر بكل جوارحي إلى معبودتي، شعور بالرهبة سرى في كياني:
- ما دعاها إلى لصق الصورة، وفي هذا الوقت بالذات؟

قامتْ تزيح بعض ورق التجليد من الأرض وتضعها على المنضدة، ردائها الأصفر الطويل صار عريضًا وكبيرًا على بدنها الضئيل بمرور الزمن، قلتُ لها بادي القلق محاولًا تلافي نظرات فريدة على الصورة:

ـ لقد هَزُلْتِ تارا.

ضحكتْ وقالتْ:

ـ كأنك تراني وأنا عائدة للتو من رحلة الحج.

نكتة لاذعة، كانت قليلة الكلام ولكن إن تكلمتْ لسعتْ أحيانًا، ثم أردفتْ وهي تحدق في عيني:

ـ أنا محظوظة بهذه الرشاقة، فالأجنبيات يحلمنً بجسدٍ وقوامٍ كقوامي.

لا لا تارا تبدَّلتْ، هل بدلتها المجلات أم الأخبار على الهواء؟ أحسستُ أنها تفهم وتعلم كثيرًا، صوت فريدة صداه في أذني: "تارا غامضة كتومة في عواطفها، أنا أقرب شخصية إليها ورغم ذلك لا أفهمها كثيرًا، وربما تخفي الكثير".

قلتُ وأنا أعود إلى صورة الجدار:

ـ يا لجمالها وفتنتها!

احمر وجهها، وقالتْ مسرعة:

ـ لقيتها في طيات كتبي مطوية من أيام الدراسة العام الفائت.

ثم تنهدتْ وزفرتْ زفرة حادة، وقالتْ بصوتٍ خافت دافئ:

ـ إنها الوحيدة التي تفهمني، الوحيدة التي تحبني، الوحيدة التي أضع ثقتي فيها.

توقفتْ تتفحص وجهها بعينين تشعان حبًّا وحنينًا:

ـ لولا فريدة لكانت حياتي أصعب بكثير.

رثيتُ لحالها ووخزة ذنب تحزُّ فؤادي، وكأنها أحستْ بنظراتي قامتْ فجأة وجلستْ على حافة السرير ترتب ما تشعث من شعرها، وهي تحدق في صمتٍ في الحائطِ المقابل، ثم قالتْ بصوتٍ خافت:

- فريدة دائمة التحدُّث عنكَ.

أشرتُ إلى صدري بإصبعي:

- فيَّ أنا!

- ليس غيركَ بالتأكيد.

أثارتْ فيَّ بواعث الشوق والخوف.. هل تعرف كل شيءٍ؟، سألتها بفضول:

- هل التقيتِ بها بعد ذلك اليوم، اليوم الذي ذهبتما معًا لشراء القرطاسية؟

أجابت على عجلٍ:

- نعم، فوق السطح.

سكتت ثم عادتْ تقول:

- إنها لا تنفك تتحدث عنكَ.. فما السبب؟.

هززتُ رأسي، وقلتُ في نفسي:

- هل هي غبية لدرجة لا تعلم؟ ألم تقل لي يوم انكسرتْ البيضة ذات الصفارين إنها تحبني؟ أخاف إن أخبرتها بالقُبل كذلك.

قلتُ لها بشغفٍ مستطلعًا:

- ماذا قالتْ لكِ عنّي بعد؟

أجابتْ بعد أن رمقتني بنظرة خاطفة:

- اعذرني، هذا ليس من شأنكَ.

سمعتُ نفسَها المتسارع، وهي تنظر إلى النقوش على البساط الفاخر الأصفهاني، صفعة على خدي، إنها لا تعلم بتجسسي عليها ورغم ذلك هذا العتب المبطن، فكيف لو عرفتْ؟ رفعتُ رأسي إليها وقد توردتْ وجنتاها، وعيناها السوداوان لا تزالان تجولان فوق الطيور والفراشات الطائرة فوق الزهور المنقوشة على البساط المزخرف، شعرتُ بتعاطفٍ غريب تجاهها.

الشيء الملفت في وجهها وجنتيها إجّاصة مدورة بيضاوية الشكل مرتفعة، وكأنها سئمتْ من المجلس قامتْ فجأة وجلستْ على الأرض، عاودتْ عملها في تغليف وترتيب الكتب في مكتبتها بأناقة بالغة وهدوء، اختفيتُ من أمامها لم يعد لوجودي شيء لقد تلاشيتُ:
- مَنْ أنا؟ وماذا تحسبني؟ أأنا الرجل وأخوها الأكبر المأمور الرسمي للسيد أبي؟

علب مختلفة الأحجام والألوان، أقلام زاهية، أوراق مزركشة، أدوات لا أستطيع تسميتها كانت منتشرة على الأرض حولها، كانت تشم رائحتها تحب أدواتها المدرسية ودفاترها الجديدة وكتبها، تضمها إلى صدرها بشغفٍ ونهمٍ غريبين.

• • • •

(١٦)

تجرأتُ في تلك اللحظة على خرق قرار أبي وشرطه الذي رأيته مجحفًا، وقمتُ بالمجازفة لم أتمكن من رفض طلب فريدة التي إشارات لي أن أصعد إلى السطح، وخاصةً أن هذا الطلب جاء بعد زيارة وكالة إلى بيتهم، رغم الخوف الذي اعتراني من أنه قد يراني.. وقد لا يراني، طمأنتُ نفسي متعلقًا بهذا الاحتمال لكن وخزة انغرزتْ في نفسي:

ـ ألم أعاهده عهد الرجال؟ في ذلك اليوم الذي وضع فيه يده في يدي وقال لي بفخر: أنت رجل.

كان ذلك في بداية العطلة الصيفية، لا أزال أذكر كلماته: "السطح للنساء لا للرجال، أعني: الصديقات طالبات المدارس، تارا لها حرية الاختلاط بالصديقات، ولها حرية محدودة في الخروج من البيت" ثم مدَّ يده إلى تارا وتحدَّث إلى أمي: "ولولا ملحة أمك لمنعتها هي كذلك من السطح" حينها صاحتْ أمي: "هل هي طائر في القفص، أنت تعقدها هكذا يا مصطفى" ارتفع حينها صوت أبي الخشن، وقال وقد لانتْ نبرته قليلًا: "حسنًا إذًا لكنَّ بشرط أن تتحدثا فوق الجزء الجانبي الفاصل بيننا، أي: الخلفي لا الأمامي المطل على الشارع".

وقفتُ تحت السلم أفكِّر، همسات أمي وأبي تتسرب من المطبخ، إبهام قدم تارا في حركتها المكوكية، وصوت أغنية غرامية لأم

كلثوم يتسلّل خلال شق الباب إلى الخارج، فريدة فوق السطح تنتظرني ومعها خبر عاجل هام وإلّا.. لِمَ نادتني؟، محتار بين كلام شرف وكلام فريدة، أتوق إليها لم أرها لكن لم يكن هذا السبب الرئيسي، كنتُ أستطيع في أيَّة لحظة طرق بابهم ما لم يكن خالها موجودًا والتحدُّث إليها، لكن الخبر الخطير ألح علي، وكالة.. ماذا يا ترى أنت تفعل في بيتهم؟ فريدة هي الوحيدة التي تعرف.

ظلَلْتُ أُقدم وأُؤخر رجلًا لثوانٍ معدودة، أحلّل أجادل أفكِّر وصوت أبي يملأ رأسي: "أنتَ رجل عهد الرجال" نظرتُ إلى نفسي تأملتُ وجهي في المرآة المعلقة في الهول، شعرات شواربي كانت ناعمة للغاية لا وجود للشعرعلى ذقني، وعلى خدي خط رفيع من الشعر الأصفر، الرجل يملك شعرًا خشنًا على وجهه، لا لا لستُ رجلًا كاملًا بل نصف رجل، أبي لم يصب نقطة الوسط، قلتُ كذلك وصعدتُ السلم متشجعًا أربعًا أربعًا، كانت الشمس ساطعة في كبد السماء، هبَّة نسيم لطفتْ الجو، ووجود فريدة تحيل الصيف ربيعًا، الهواء بدأ يعتدل في نهايات تموز، كانت السماء خالية من أي أثر للغيوم، وعيون بلون السماء أطلَّتْ على الحائط الصغير بيننا، ابتسمتْ لي وأرسلتْ لي قبلة طائرة على راحة يدها:

ـ اشتقتُ إليكَ حبيبي.

ـ أعد الدقائق للقائكِ.

ـ لولا خوفي من عودة أمي لكنتُ ارتميتُ في أحضانكَ لساعاتٍ، أبي لا يقول شيئًا لكن أمي متحفظة.

ـ كنتُ مشتاقًا إلى سلمان، وكان لقاء حميمًا شيقًا لي الشرف في ملاقات أبيكِ.

أردتُ قبل كل شيءٍ أن أعلم.. ما سر زيارة العجوز لهم؟ وقبل أن أفتح فمي، قالتْ مشيرة بطرف إصبعها ذي الظافر الطويل المطلي باللون الوردي:

ـ أتعلم.. ما الذي جاءتْ وكالة هانم من أجله؟.

هززتُ رأسي بالنفي، أجابت تخفي ابتسامة ماكرة:

ـ إنها جاءتْ لطلب يدي لملا نور!

انتفضتُ كالملسوع وهتفتُ رغمًا عنّي:

ـ لا يعقل.. هل أنت جادة؟.

ثم عدتُ إلى نفسي أُقارن وأُحلّل:

ـ وما الفرق بين تارا وفريدة؟

أحسستُ برغبة ملحة في البُحث عنه فورًا وتحذيره، والأفضل تهديده ألّا يقترب من شارعنا من الآن فصاعدًا، بادرتها وأنا قد يبس حلقي من المفاجأة غير السارة بل الخطيرة:

ـ وماذا قالتْ أمكِ؟

كنتُ أعرف أن أمها الست رمزية، كانت تكُن لملا نور احترامًا معقولًا ولا تخفي ذلك عن أمي، كانت نظرتها إليه بين بين.. لا ملاك ولا شيطان، بل إنسان عادي مرح ووسيم.

سألتها بفضول:

ـ لا أعتقد أنها تطرقتْ إلى زيارتها لطلب يد تارا؟

لمعتْ عيناها من الهلع، وفغرتْ فاها حتى بدتْ أسنانها ومقدّمة لسانها الوردي اللدن من خلال تجويفٍ فيها، وقالتْ في شبه ذهول:

- إنها لم تذكر شيئًا من هذا القبيل.

تذكرتُ قول صاحب المحل حاجي عبدالله الذي قال يومًا: "لو طلبتَ يد فتاة للزواج، فلا تدع أحدًا يعلم، فلو فرضنا أن أهلها رفضوكَ، فسوف لن تظفر بامرأة حتى ولو كنتَ خير العالمين جمالًا وكمالًا؛ لأنكَ في هذه الحالة تصبح مواطنًا من الدرجة الثانية".

عيناها الخضراوان استقرتا على عيني وشع الفزع منهما، قلتُ لها معقبًا مستندًا على نظرية الحاج عبدالله:
- وإخالكِ أنكِ بدوركِ سوف لن تخبرينا عن أهل الفتاة التالية التي ستطلب يدها مستقبلًا.

ظهر على وجهها العبوس وقلما رأيتها تعبس:
- نحن الطالبات لا نزال دون سن الزواج، ألم يجد فتيات أو آنسات أو سيدات أو أرامل أكبر منا في العمر؟.

الحنق بلغ منِّي غايته، فقلتُ بلهجة حادة:
- أبي يقول: "إن أهل القرى - وهو منهم - يتزوجون في سن مبكرة جدًا".

برقتْ عيناها وقالتْ:
- وما كان ردُّ أباكَ؟
- رفضه وأوعز لأمي أن تذهب لتبلغها قرارنا بالرفض القاطع.

الدهشة والفزع كسيا وجهها الشاحب، بدتْ قلقة رغم شجاعتها المعروفة بها، قالتْ بعد صمتٍ طويل وهي تضع كلتا يديها فوق السور:

- غريب أمر هؤلاء، خرجتْ من بيتكم دخلتْ بيتنا كأنها في سوقٍ بحثًا عن بضاعة.

سألتها مستطلعًا رغم معرفتي ومن باب الفضول:

- ملا نور غني جدًا كثيرات في عمركِ يردنه ويحلمنَّ بثروته.

- أمم!

ضمتْ شفتيها وقلبتْ راحة يدها، وفرجتْ بين أصابعها ودفتعها هكذا في الهواء - علامة الضجر، ثم استدارتْ كمَنْ سمعتْ صوتًا يناديها، فقالتْ لي معتذرة:

- إنها أمي تناديني.

لم أعرف بالضبط.. هل اتخذتُ قراري بسبب فريدة أم بسبب تارا؟ بحثتُ عنه كثيرًا إلى أن وجدته عند خروجه من المبنى الملحق بمسجده، كنتُ مصممًا على أن أُكلِّمه بنبرة هادئة لكنني فقدتُ أعصابي عندما وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع وجهه اللمَّاع، فقد كان قد وضع زينته بالكامل، تعطر، قلَّم وشذَّب شاربيه، نظيف الهندام، ونور يشع من حوله، لفتت نظري لحيته السوداء القصيرة المرتبة المسطحة لم تكن هناك شعرة واحدة ناشزة وكأنها رصت تحت أنفه واحدة واحدة في نسقٍ وبعدٍ واحد، وامت تفوح من حوله رائحة ساحرة تطيب القلوب وتلينها.

طالما رآني اقترب منِّي بخفة ونشاط، مدَّ يده وصافحني بحرارة واحترامٍ متزايد وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنانٍ كالجواهر، في تلك اللحظة تذكرتُ الشاعر الشعبي المعروف في المنطقة لقبه (حسونة) الذي قال عنه: "إن قوة جاذبيته تليِّن حتى قلوب الأسُود

وتذلّل حتى الوحوش الضارية" فمدحه بقصيدة طويلة طمعًا في نواله، وإن هو أعلن بنفسه أنه إنما يمتدحه متأثرًا بشخصيته ونوره وقدسيته وأمانته وكرمه واستقامته وحنكته وسيرته وفوق ذلك جماله ورونقه ونوره.

تجنبتُ النظر في عينيه البراقتين الحادتين كعيون النسر وأنفه المرتفع من الوسط كأنف الصقر، ابتعدتُ عنه مسافة مترين متخذًا وضعية المتحدي مفرجًا عن ساقي مبرزًا صدري، وقلتُ له وأنا أنظر إلى ما وراء كتفه العريض:

- سيدي الإمام ملا نور، ملا حاج سيد شيخ، إنكَ تتردد هذه الأيام كثيرًا إلى شارعنا.. شارع الجميلات، فهل التسمية هي السبب؟.

هزَّ رأسه يحدِّق للحظاتٍ إلى الأرض بوجوم، ثم رفع عينيه إليَّ يتفحصني يريد أن يتأكد من أنه أنا الذي كلَّمه ذاك اليوم على الشارع.

أجاب بصراحة وقد احمر وجهه:

- السبب، عَلِمتَ لكن يجب أن تعلم أيضًا أن قصدي شريف، طلب حلال على سنة الله ورسوله، وجوبهتُ بالرفض من قِبل أبويكَ، لم أكن أنوي اختطافها بل الزواج، والزواج حلال وكمال دين.

اقتربتُ منه ثانيةً وقد ارتفعت الحرارة في جسدي:

- ما قمتَ به حلال أم حرام يا ملا؟

لفظتُ كلمة (ملا) كمَنْ يعصر الحروف عصرًا، وغبتُ في عالم الخيال: "ملا يلاحق فريدة، ينظر إلى مفاتنها من الخلف، يلتحق بها، يلتفت إليها، يغمز لها.. فريدة تخفض رأسها وتمضي في

سبيلها، يعاود الملاحقة، فوجدتُ نفسي أندفع أحول بينه وبينها وأرفع قبضتي لصفعة على وجهه، فريدة تمسك بيدي وتحول بينه وبين يدي المرفوعة".

استفقتُ وثبّتُ بصري على محدثي، قلتُ له بنبرة جادة رصينة:

ـ لا تعتقد نحن لا نفهم، لا تتوهم فنحن نفهم ونربط بين الأمور، هناك شارع آخر أو شوارع أخرى أقرب لكَ من الجامع، وإني أعتقد أنكَ تختار الطريق الطويل لنفسكَ فلكَ في ذلك غاية مبيَّتة، وهي رؤية الجميلات في شارع الجميلات.

ضَحِكَ بفمه دون أن يفتحه، فخرجتْ الضحكة كهبَّة هواء من خياشيمه، قلتُ له بصوتٍ مرتفع وحازم:

ـ ممنوع عليكَ هذا الشارع من الآن.

طار اللون من وجه ملا نور محمد، وانقبضتْ تقاسيم وجهه بعد أن كانت ملامحه منشرحة منبسطة، لم يلبث أن تغلَّب على انقباضه وتراخت عضلات وجهه بعد الشدة والتصلُّب، قلتُ في نفسي:

ـ الهدوء يسبق العاصفة.

ولم يلي الهدوء العاصفة، رأيتُ لأول مرة مقبض خنجره الذهب يبرز فوق نطاقه المحيط حول خصره، اقترب منِّي بوجهٍ منشرح تعلوه ابتسامته العريضة المعهودة الخاصة به، ثم أخذ يدي ووضعها بين يديه الدافئتين قائلًا بنبرة رخيمة وحزينة تأثرتُ بها، قال لي بعاطفة أججتني كالجمرة:

- إنكَ رجل، أتدري مَنْ الرجل؟ إن كنتَ لا تدري أذكر أنكَ رجل، رجل بلا خوف ولا وجل، الطريق الطريق لكل مَنْ يهديه ربكَ إلى الطريق، لا طريق سوى هذا الطريق.

تأثرتُ بنبرة صوته الرخيم ونعتي برجل، وكدتُ أن أتراجع عن عزمي، فقد كنتُ أزمعتُ أن أُعنفه وأُنذره، وإذا بي كمَنْ فقد وعيه أو كالحالم، لكن سرعان ما عدتُ إلى ما أزمعتُ عليه، قلتُ له بلهجة عنيفة:

- لا تقترب من شارعنا أبداً إن أردتَ خيرًا.. حسنًا.

اتسعتْ رقعة ابتسامته وشدَّ على يدي منحنيًا، فسحرني بتواضعه وبساطته وصدره الرحب، وقال بصوتٍ كالنحيب:

- أنا تحت أمركَ، أنا تحت أمركَ، لستُ أنا بسيدكَ ولا وليِ أمركَ، أنت فتى متحرر، أنت رجل متنور، فقم وجاهد وشد حيلكَ، نور الله مباتكَ ومقيلكَ، لن تراني في الشوارع بل تراني في الجوامع، وفي الدنيا أنا زاهد، وفي قول الحق أجاهد.

استغفر وحوقل وحمدل وبسمل، ثم حوقل، ثم قال لي بصوتٍ عذبٍ وقد ابتعد عنِّي قليلًا:

- العهد بيني وبينكَ استعمال الشارع لزيارة الأقارب والأصدقاء.

ثم قطع كلامه مشيرًا إلى المجاري العكرة (القذرة) ثم استأنف بصوتٍ أشبه بنحيب الناسك في كهف أبي:

- ثم مَنْ يطهر هذه سوى الله الذي حمَّلني مهمة التطهير.

• • • •

(١٧)

تصافحنا تعانقنا تباكينا، قبّلنا خدود بعضنا البعض، كان متغيرًا تلوّنتْ بشرته اكتسبتْ لونًا غامقًا، فسّر ذلك بالقول:

- ساعدتُ ابن عمي في الحقل وجني المحاصيل، القطن والذرة خاصةً.

صادفتْ عودته أول يوم من العام الدراسي الجديد، الدوام في أول يوم يكون عادةً غير منتظمٍ، أي: شبه دوام، في السماء سحاب متفرق والهواء منعش، دبتْ الحركة في الشارع العريض من جديد وغصتْ بالمارة والسيارات، كانت فريدة وتارا قد عادتا مبكرًا قبل الظهر.

فبعد جولة قصيرة في الشارع عبَّر سلمان عن نيته في السلام والتحية وإبداء الاحترام لأبي وأمي، فرحبتُ بالفكرة أجلسته في الهول، فكانت تارا أولى المرحبات به، كانت في الحديقة عندما وقعتْ عيناها عليه، لم تضيع لحظة فجاءتْ تصافحه وتبتسم له بحلاوة تضاهي الشهد، ابتسامة لم أرَ لها نظيرًا على وجه أختي منذ زمنٍ ليس بالقصير، باستثناء يوم استلامها شهادة التخرج البكالوريا للصف الثالث نهاية العام الدراسي الماضي مسجلة رقمًا قياسيًا إذ جاءتْ بالمرتبة الأولى في مدرستها والثانية على مدارس المحافظة، بعد الترحاب وتبادل كلمات الاشتياق "والله افتقدناك واشتقنا إليكَ.. وما إلى ذلك من عبارات المودة والصداقة" اتخذتْ

لها مكانًا قصيًّا في ركنٍ من أركان الغرفة الشاسعة، وشدَّتْ من شالها حول عنقها ورأسها، كانت موردة الوجه زال الشحوب من على وجهها تمامًا، ناديتُ أمي التي هرعتْ لمقابلته مقابلة الأم لابنها، كانت أمي تكِّن لسلمان حبًّا واحترامًا خاصين، كانت كلما جاء ذكره تقول: "إنه مؤدب ولبق ويحترم مَنْ هم أكبر منه، هادئ الطبع رقيق جميل".

قال صديقي بعد أن ارتشف رشفة من الشربات الذي جاءتْ به تارا:
- ما أبدع منظر الجبل الطبيعة هناك ساحرة.

وفي تلك الأثناء وصلتْ أمي صافحته بحرارة، وقالتْ وهي تتأمله بدقة:
- تغيرتَ يا سلمان كبرتَ وتلوّنتَ وصرتَ رجلًا وتخشنتَ.

ضحك ضحكته الرقيقة الرخيمة، وردّ قائلًا دون أن يرفع عينيه إليها:
- الجبل يصنع الرجل، غذاء هواء طبيعي لا سيارات لا تلوث كل شيءٍ نظيف، وبالإضافة إلى كل هذه البركات هناك تسلُّق الجبل سعيًا وراء الأقباج.

ثم مدَّ يده في جيبه وأخرج منه كيسًا صغيرًا، دس يده فيه ثم أخرجها فإذا بقلادة منقوشة تتدلى منها، نهض وقدَّمها إلى تارا قائلًا لها بشيءٍ من التلعثم:
- هذه من الصنع المحلي، إنهم يصنعون كل شيءٍ حتى الأحذية من نوعِ كلاش، جلبتُ لي زوجًا منها وللقمان زوجًا ولخالي زوجًا.

سرتْ قشعريرة في جسدي لذكر خاله، ودوى في رأسي صوته الخفيض يكلِّم الأرض: "أرض أرض أينما نذهب سندخل جوفكِ".

عيون تارا التمعتا، وهي تتناول القلادة وتقلِّبها مبهورة بين يديها الناعمتين الصغيرتين، رفعتْ رأسها وقالتْ له وهي تنظر إلى أمي منشرحة الوجه:

- شكرًا، لم أرَ أجمل منها من قبل.

- اقرأي النقوش على الخرزة الأولى العريضة التي تتوسط الخيط من فوق... (طلب منها سلمان)

احمر وجهها، هممتُ أن أنهض لأقرأ النقش المحفور وكأنها انتبهتْ إلى ارتباكي، فأحنتْ رأسها تنظر إلى الواجهة العريضة للقلادة المتدلية من خيطٍ أزرق متين وفي نهايتها تتدلى خرزة صغيرة على شكل قلب والخرزات المتراصة رصًا أنيقًا متعددة الألوان والرسوم، وقرأتْ بخجلٍ شديد وصوتٍ مرتعش:

- تارا فريدة.

بدا أن سلمان أحس بارتباك تارا، فبادر بالقول مفسِّرًا وقد زاد احمرار وجهه:

- إنهما توْءَمان، وقد جلبتُ أختها التوْءَم لفريدةَ، كلفتُ صانعة ماهرة بصنع مثيلًا مطابقًا لها، ففعلتْ نزولًا على رغبتي.

وفجأة ظهر وجه أبي الكالح من الباب، لاحظت أن قسمات وجه أبي تزداد انقباضًا كلما وقعتْ عيناه على تارا، وها هو أبي يتوجه بالكلام إلى أختي، ثبتت عيناه تحت العدستين عليها وأخذ يخاطبها بلهجة آمرة لا تخلو من عتب:

- هيا، قومي واذهبي إلى غرفتكِ.

ثم دلف إلى غرفته دون أن يزيد كلمة.. هنا نكزتُ صاحبي في مرفقه متذمرًا، ففهم المعنى، وفي الحال استأذن صاحبي وقد استحال وجهه إلى لون الأشباح، فخرجنا في جولة قصيرة تحدثنا عن القرية والمشاريع الجديدة وعن المدرسة، كنتُ تواقًا لمعرفة ما قرأه من قصص مغامرات - كما سمعتُ فريدة تقول يومًا، فقال لي: أنه قرأ رواية الفرسان الثلاثة ورواية باردليان، ستتجنن لو قرأتهما، ثم نظر إلى ساعته وقال لي بعجلٍ:

- علي أن اذهب الآن، سأراكَ غدًا بعد الظهر - إن شاء الله.

- إلى اللقاء.

لم أعرف سبب انصرافه بهذه السرعة، ولم أشأ أن أسأله فقد كانت الزيارة المباغتة استولت على فكري، وقفتُ أشيعه بنظراتي وهتفتُ له ولوَّحتُ له من بعيد وانطلقتُ عائدًا إلى البيت، شعرتُ بحاجة ماسة إلى الاستلقاء في غرفتي، وعندما كنتُ أصعد السلم ترامى إلى مسمعي صوت إغلاق باب من فوق، فارتفع رأسي تلقائيًا إلى مصدر الصوت لأتفاجأ أيُّما مفاجأة بوجود تارا قرب الباب المفضي إلى السطح، جمدتُ في مكاني أنقل النظر بين وجهها وقامتها المائلة ويدها اليمنى المضمومة بشدة كمَنْ تخفي شيئًا في داخلها، طالما رأتني أحنتْ قامتها وأخذت تتظاهر بالتقاط ملابس قديمة ممزقة مبعثرة في الفسحة الواقعة خلف الباب الأصفر الصغير والتي كانت أمي تستعملها لمسح الأبواب والشبابيك، طار اللون من وجهها وصار بلون الأموات، اقتربتُ منها ببطءٍ وعيناي تلتمعان عجبًا

ودهشة، وسألتها وأنا أقف قيد مترين عنها بنبرة قوية مكبوتة متوعدًا:

- هل صعدتِ إلى السطح؟

أنكرتْ وبدنها الضئيل يرتعش:

- لا أبدًا.

أرسلتُ بصري إلى يدها اليمنى المضمومة، وسألتها أحدّق في عينيها الفزعتين:

- ما هذا بيدكِ؟

لم تبدِ حراكًا ولم تلفظ حرفًا، أعدتُ بلفظة آمرة:

- افتحي.

وكغزالٍ وقع في شباك الصياد، أخذت أطرافها وأوصالها ترتعشان، قبضتُ على يدها أحاول حلّ أصابعها القابضة على الشيء المخبوء لكنها انفتحتْ تلقائيًا، كانت قد فقدتْ القدرة على أعصابها فارتخت جميع عضلات جسدها، تسمرتُ في مكاني لمنظر المفتاح الذي وقع من يدها ولرنته الحادة القصيرة عند اصطدامه بالأسمنت الصلب، كان الصوت أشبه بناقوس الخطر وإنذار ببدء القصف الجوي، لم أقوَ على تفوُّه شيء ظلتْ عيوني تنبشان في عينيها المتوسلتين، مرتْ لحظات طوال قبل أن تتفوَّه بوجلٍ وصوتٍ خافت:

- لقمان، أحلف لكَ أنني لم أُقابل أحدًا فوق.. أحلف بالله.

• • • •

(١٨)

خرجتُ بنشاطٍ ملحوظ لا ألوي على شيءٍ لمقابلة صاحبي، رغم كوني سهرتُ طويلًا الليلة الفائتة أفكّر في وجود أختي فوق السطح واحتمال لقاء سري مع سلمان.

كان الشارع يعجُّ بالمارة، يزخر بالطالبات والمعلّمات والنساء والرجال والأطفال، وعربات الباعة المتجولين المحملة بالخضر والملابس، وعربات النفط (خزانات) المربوطة إلى الحمير.

ألقيتُ نظرة على بابهم عند مروري، فكان مغلقًا ولا أثر لا لفريدة ولا لسلمان، عند المنعطف رأيته يقف تحت سقيفة الدكان فتلقاني من بعيد بابتسامته العريضة، أسرعتُ الخطى وتصافحنا بحرارة وسلمتُ على صاحب المحل الذي رفع رأسه وردَّ السلام بانحناءة من رأسه، اهتزتْ المنضدة التي كان يقف وراءها، وصورة الحمار الملصق وراءه لاحتْ لي الصورة أكبر هذا اليوم، نظرتُ إلى ملابس سلمان ونحن نخطوان إلى الشارع، فدهشتُ لشيئين أنه كان يرتدي ملابس رسمية لا تقليدية كعادته، والشيء الثاني أنني لم ألاحظ ذلك في الوهلة الأولى نظرًا لشرود ذهني، وضع يده في يدي وحثني على السير بسرعة أكبر، ففعلتُ فقد كنتُ أمشي ببطءٍ تحت ثقل الأفكار وحساسية الموقف.

ظهرتْ أولى طلائع طلاب المدرسة الابتدائية من رأس الشارع الفرعي، قال لي ينظر إلي جانبًا متسائلًا:

- سمعتُ من فريدة أنكَ دهشتَ أنني قرأتُ روايات مغامرات والفرسان.

قلتُ على الفور:

- أليس لي حق في أن أتعجب؟ ما لكَ وما للكتب!

ضحك باقتضابٍ، ثم قال بلذة غريبة انتفختْ شفتاه لها أكثر:

- الفرسان الثلاثة لـ (ألكسندر دوماس الكبير) وباردليان لـ (ميشال زيفاكو) مغامرات لن تنساها أبدًا، ولو قرأتَ أول سطر منها سوف تمضي في القراءة حتى تأتي على آخرها، ولو أصابكَ الجوع والعطش.

وجهتُ إليه سؤالي المفضل:

- أتدور حول الحب؟

قال بنفس اللهجة الشهية:

- إنها فروسية وشهامة ونبل وشجاعة وحب، تخيل ستتجنن لو قرأتها، ولا تصدق عقلكَ.

ثم فجأة مدَّ يده وأخذ يحركها في جميع الاتجاهات، ويقول بصوتٍ أبح مرتفع غير مبالٍ للطلبة الصغار من حوله:

- هكذا يبارزون مبارزة بالسيوف، باردليان شخصية لن أنساها.

ثم سكت فجأة وأخذ ينظر إلى الأرض، وكاد يرتطم بأحد الطلبة الذي مرق من أمامه بسرعة البرق، سألته باشتياق:

- ودراستكَ.. أين وصلتَ في المدرسة؟.

- شهادة أعدادية، [illegible] في دائرة الزراعة المهنة التي أحبها.

نظرتُ في عينيه ثم شفتيه شغوفًا لمعرفة مفاجأة سلمان، ثاني مفاجأة بعد البدلة الرسمية، نظر في عيني وقال وابتسامة عريضة ارتسمتْ على وجهه الضيق:

- سأكشف لكَ سرًّا، وأقول لك أن ابنة عمي قد تعلقتْ بي.

قفزتُ من مكاني أهتف:

- سلمان ويحكَ! ماذا قلتَ؟.. أعد.

ضحك ضحكًا شديدًا أقعده على ركبتيه في وسط الشارع، ثم قام وقال:

- لا تصدق، كانت مجرد دعابة علاقتنا لم تصل إلى هذه الدرجة، أنا لا أحب بهذه السهولة، إنها ابنة عمي لا أكثر ولا أقل.

الفتيات بزيهنَّ الموحد، يمرون أمامنا من زيهنَّ عرفنا أنهنَّ طالبات المدرسة الابتدائية النموذجية "مدرسة خانزاد" بجلجلة ضحكاتهنَّ المرحة، وحقائبهنَّ تتدلى من أيديهنَّ الصغيرة، وأصواتهنَّ الرقيقة الحادة يدندنَّ بأناشيد حفظوها في العام الفائت، وبعد أن مرتْ أسراب هؤلاء ظهرتْ البوادر الأولى لطالبات الثانوية، وصلنا الشارع الفرعي الذي يمرُّ أمام المدرسة التي تداوم فيها أختانا، لم يكن في نيتي مشاهدة فريدة وسلمان معًا في أن واحد، منذ أن تطورتْ العلاقة بيننا إلى علاقة حب محمومة، تسارعتْ ضربات قلبي، إنهما قد يخرجان من رأس الشارع في أيَّة لحظة، تجاوزناه ولم يظهرا.

- الخير فيما وقع إذًا.

قلتُ في نفسي متنفسًا الصعداء، حان من صاحبي التفاتة عابرة إلى الشارع الفرعي لكن بلا قصد، وسرنا إلى نهاية الشارع العريض ثم عدنا، وعند العودة تباطأتُ وفجأة ونحن نقترب مرة أخرى من رأس الشارع ظهرتا، كانتا تمشيان على مهلٍ يدًا في يد والحقيبة المدرسية تتدلى باليد الأخرى الطليقة، لاحظتُ أن فريدة كانت تعلو على أختي واعتبرتها توازنًا في الطول لصالح أخيها، كانتا تتبادلان النظرات والأحاديث مندمجتين، وفي لحظةٍ ما رفعتْ تارا رأسها فلمحتنا ووكزتْ فريدة في مرفقها، حينها تصوّبتْ أربعة عيون لامعة تحت أشعة الشمس علينا، قربتا رأسيهما من بعض وكأني قد سمعتُ ما قالتا وبصوتٍ واحد:

- إنهما هما.

المسافة بيننا في حدود مائة متر، توقفتا فجأة عن المسير فتوقفنا نحن بدورنا تراختْ أيديهما فانفصلتا، كانتا تنظران جهة اليمين حيث الحقول والأرض الجرداء تنبسطان وتمتدان جنبًا لجنب، ظلتا تنظران إلى نقطة معينة، تهيأ لي أن شخصًا ما استوقفهما، اتجهتْ نظراتنا في الاتجاه الذي كانتا تنظران، أنا وصاحبي تبادلنا نظرات العجب:

- مَنْ يكون هذا؟

غمغم صاحبي:

- فلنقترب أخشى أن يكون أحد هؤلاء الشباب العاطل.

أسرعنا الخطى بلغني ... فريدة كأنها تجيب على نداء منادي، عندما صرنا على بعد أمتار أصابنا الذعر والدهشة لقد كانت تتكلّم مع رجلٍ، وقد طار اللون من وجهها، كان ذي لحية طويلة يشير بإصبعه الدقيقة الطويلة إلى الأرض بحركاتٍ متكررة متحمسة، رويدًا رويدًا بانتْ ملامح الرجل، فصحنا في صوتٍ واحد:

- خالو صلاح؟!

- إن شاء الله؟

أضاف سلمان هزئًا يلوي فاهه ويلعن ظهوره، آثرنا التروي والتفرُّج أولًا باتفاق الآراء أن لا نتدخل إلّا إذا اقتضتْ الضرورة، أسرعنا إلى حائطٍ في الجوار لم يرنا أحد حتى الفتاتين لم تنتبها إلى حركتنا المباغتة الخفية الخفيفة، وقف صلاح إن شاء الله أمامهما بمسافة ثلاثة أمتار ينظر إلى اليمين، ارتفع صوته الصادر من جمجمته مخاطبًا فريدة بحدة:

- آخر إنذار لكِ فريدة.. لا سيقان عارية بعد اليوم.

وبلا تردد أجابت فريدة المتقدّمة على أختي خطوتين:

- إن لي أبي، مَنْ أنت سوى خالي والأب أولى.

صلاح أشار بإصبعه الخشبي، وقد زادتْ سمرته على سمرة وأنفه انحناء:

- أبوك لا يهمه ولا يعرف العار ولا الخجل، ولا نظرات الشباب الجائعة، ولا يولي اهمية للسلوك والتقاليد.

- لم أتعدّ على أحد.

ردتْ بصوتٍ أقوى هذه المرة فأعجبتني بشجاعتها.

- هذا ما يقوله أبوك الـ (مودرن) خلاصةً واختصارًا المرة القادمة سأجركِ من شعركِ وأسحلكِ على هذا الشارع ووسط أنظار الناس.

قال كذلك متأففًا مهددًا، ومضى في طريقه بوجهٍ منقبض عابس وهو يلفظ بكلماتٍ عاصفة غير مفهومة، وواصلتْ الفتاتان مسيرتهما بصمتٍ صوب البيت تنظران إلى الأمام بوجومٍ والشحوب يعلو وجهيهما، رآنا صلاح إن شاء الله واقترب منا كان يكلِّم نفسه في طريقه إلينا، وبصوتٍ مسموع:
- أرض أرض أيُّما نذهب سندخل جوفكِ، أنت مأوانا ومنزلنا.. فبماذا نزهو ونفرح؟ والحزن أقرب وسنرقد تحتكِ، والتراب مأوانا فلا تفتكِ، نحن تراب، وأرخص من ترابٍ سنعود إليكِ قريبًا يا تراب، يا تراب فترقب.

همس لي صاحبي:
- ألا بلعته الأرض للتو وخلصتنا منه.

وقف محدقًا بعينيه الحادتين كعيون الصقر في سلمان الذي رحب به مادًا إليه يديه بأدبٍ جم، لم يتناول اليد الممدودة إليه وبدلًا صرخ في وجهه، وقد زادتْ سمرته سمرة وأنفه احتدابًا بلهجة قاذعة قاذفة:
- سلمان يا ولد يا شقي، أنت يا سلمان لو كانت عندكَ ذرة شرف أو غيرة لما تركتَ أختكَ تتبرج هكذا وتمشي عارية أمام أعين الناس، أنت لا رجولة لكَ ولا غيرة، الموت أفضل لكَ.

نقل صاحبي عينيه بيني وبين خاله، وأراد أن يتكلَّم وقد احمر وجهه لكنه فضّل التريُّث، يبدو أنه قد أعد العدة لمثل هذه المواقف

فتماسك وتمالك، اعتذر وبهدوء وكامل الاحترام مخاطبًا خاله بكل احترام:

- خالي الأمر أمركَ وسأفعل كل ما تريد.

وكأنه صبَّ ماءً باردًا على صلاح إن شاء الله، لاحظتُ انشراحًا قليلًا في تقاطيع وجهه الداكن، فقال بلهجة الديِّن:

- أريدكَ أن تكون رجلًا، فالرجل يحافظ على أهله وشرف أسرته.

بعدها التفتَ إلي، وقال مستهزأً:

- كاكه هادي الفاسق، إنه لا يعير أيَّةَ أهمية للشرف والغيرة.

فار دمي غضبًا وسخطًا، وأردتُ أن أقول شيئًا للدفاع عن كاكه هادي لكن الكلمات خانتني، نظرتُ بعيدًا فلم أرَ أي أثرٍ لفريدة وتارا، جعل صلاح إن شاء الله ينقل نظره بيني وبين سلمان، ثم قال لي يشير إلى سلمان:

- رغم كون أبيه فاسقًا، فهو خير منكَ، فهو يصلي على الأقل.

قلتُ مدافعًا متحديًا:

- وما أدراكَ أنني لا أُصلي، والصلاة لا تكفي إن لم يرافقها العمل الصالح.

طالما سمع منّي تلك الكلمات المتحدية، طار اللون من وجهه، هزَّ رأسه يمينًا ويسارًا يستغفر الله ويصرر على أسنانه، ثم تفوَّه بكلمة أزعجتني:

- ولد وقح أنتَ، كأنكَ لستَ ابنًا لذاك الأب الصالح التقي الورع.

ارتجفتْ وارتعشتْ شفتا سلمان احمر وجهه أولًا ثم غمره شحوب، حركتُ إصبعي إليه طالبًا منه كبح جماحه وغضبه لعلّ السحابة تمرُّ بسلام، وتحققتْ أمنيتي، فقد خطا خطوة إلى الأمام وهو يتفوَّه بأقذر الألفاظ، ثم عاد مجددًا وقد انقبضتْ أسارير وجهه وتقلَّصتْ فوق تقلُّصها حتى تغيَّرتْ ملامحه وتحوَّل إلى شخصٍ آخر، وخاطبنا بصوتٍ عالي النبرات غليظ:

- والله إن هذه المدارس لهي سبب جميع الفتن وشرور الدنيا، مصدر الفسق والفساد، لو كان بيدي لحوَّلتُ المدارس كلها إلى مساجد.

رنَّ في مسمعي في تلك اللحظة صوت كاكه هادي الذي قال لي في الزيارة الأولى: "لو كان الأمر بيدي لهدمتُ جميع المساجد، ولبنيتُ مكانها مدارسَ ومكتباتٍ".

بعدها وجَّه عينيه الحمراوين نحوي، وقال بنبرة عميقة وبصوتٍ أشبه بصوتٍ صادر من القبر:

- اخشَ نار وعذاب جهنم، ألم تسمع أباك؟ أبوك قرأ علي هذه الآية عشرين مرة حتى حفظتها، اسمع يا تارك الصلاة يقول عزَّ وجلَّ في محكم كتابه: "كلما نضجتْ جلودهم بدَّلناهم جلودًا غيرها".

سكت ثم أعاد علي السؤال والصوت في تضاؤل:

- ألم يقرأ والدك عليك هذه الآية الكريمة؟

أومأت وأفصحتُ مطنبًا:

- بلى، سمعته يقرأها ألف مرة، وفي كل مرة أرى الرعب في عينيه ويرتجف ويتصبب عرقًا.

انشرح وجه صلاح إن شاء الله قليلًا، وحدق بعينيه الحادتين كطائرٍ جارح:
- إنه عاقل والعاقل يخاف، يخاف من يوم القيامة ويوم الحساب العسير.

ثم أضاف وهو يتراجع إلى الوراء خطوة، وقد عاد إليه هدوءه:
- سيد ملا نورالدين (دام نوره وشمل) يخشى ربه ويقوم بكل عملٍ خير ابتغاء مرضاته، قبل أسابيع قام بشراء نادي ليلي ليحوّله إلى دار أيتام.

سمعتُ صاحبي يتمتم:
- ويقرضكَ المال بلا فائدة.

لم يسمع، تذكرتُ، بعد الانفجار الذي حدث بجوار سور (نادي المحلة) تناقص عدد رواد النادي إلى درجة ملحوظة بسبب الخوف، وسمعتُ حينها همسات من هنا وهناك وخاصةً بيت خاصة الناس والشعراء لو استمر العد التنازلي لعدد زوار النادي سيضطر صاحب النادي إلى بيعه، وأن ملا نور الدين قد أعلن استعداده لشرائه.

مضى صلاح إن شاء الله في سبيله، وصوته يسمع من بعيد:
- أرض أرض ستبتلعيني أخيرًا، يا لهذا الشقاء! ستضمني وتواريني أخيرًا تحتكِ، فلِمَ كل هذا العناء؟.

بعد أن ابتعد قام صاحبي بحركة من ظاهر يده متأففًا:
- ففف.

ثم أطلق زفرةً يقول:

- الأجدى أن يحافظ على زوجته أولًا.

- انسى.

قلتُ له وأخذت من يده أسحبه في اتجاه الدكان؛ لنشرب شيئًا عند حاجي عبدالله، وعندما أتيناه لاح لنا رأس من وراء الزجاج مألوفة، كانت ذلك رأس المعلِّم ولي، كان معلِّمًا ابتدائيًا وكان أبًا لنصف درزن من البنات يعاني من فقر دم مدقع، دخلنا ولشدة دهشتنا كان هناك يقف ثلاث بنات له من بناته الست يقفنَّ بهيئة رثة في ظلام الغرفة متراصات جامدات، صافحنا بيد وعلى يده الأخرى كان يضع ورقة بيضاء عليها كومة من الحلوى البيضاء، وأخذ يضع في يد كل واحدة منهنَّ شيئًا منها، الحلوى اختفت قبل أن يلتفتَ ماموستا ولي إلينا متكلفًا ابتسامة محرجة، في عيون الصغار قرأتُ أنهنَّ يطلبنَّ المزيد، فسارعتُ وطلبتُ من صاحب المحل وزن نصف كيلو من نفس الحلوى، ففعل ووضع الكيس في يد كبرى البنات التي كان وجهها يضارع البدر شكلًا ولونًا ووميضًا، وفعل صاحبي بالمثل ولكنه اشترى لهنَّ ست قناني كولا وضعهنَّ في كيس سلَّمه في يد الأب الذي تمتم بعبارات الحب والامتنان والحياء يطفو على وجهه، غطى الوجوه الصغيرة الفرح وانشرح وجه ماموستا وصافحنا شاكرًا وقد احمر وجهه خجلًا، بعدها مضى في سبيله ومشى في أعقابه الصبية، ذاب قلبي لهنَّ، وعندما وضعنا أولى خطواتنا خارج المحل إذا بسيارة فارهة تكر أمامنا ويدٍ ملفوفة بكُمٍ أبيض طويل برزتْ من النافذة الجانبية، ولاح لي رأس وعمامة ملا نور الخاصة ذات الذيلين - كما راق لي تسميته - وراء المقوِّد، سلَّم

علينا مكشرًا عن أسنانٍ بيضاء، العطر فاح من فرجة الشباك، وعندما تجاوزنا لاح لي رأس فتاة في المقعد الخلفي، ضيقتُ حدقتيَّ وركزتُ تفكيري عسى أن أتبين شيئًا من هوّية القاعدة في الخلف لكن بلا جدوى، لم أتبينها ظلتْ مجهولة، قلتُ لصاحبي الذي تفاجأ مثلي بالظهور المفاجئ:

- إنها كانت شقراء شعرها أشقر.

قال بلا مبالاة:

- وما هو شأننا سواء أكانت شقراء أم حمراء؟

هززتُ كتفي بلا مبالاة، وأومأتُ إليه متمتمًا:

- حقًّا تقول.. فما شأننا؟.

رشفتُ جرعة من علبة الفانتا، ثم قلتُ له وعيني على مؤخرة سيارة نور الدين المبتعدة بسرعة:

- أغتم للبنات الست للمعلِّم ولي.

عقَّب صاحبي بحزنٍ:

- وأنا كذلك.

أخرج الحاج عبدالله زجاجة فانتا باردة من الثلاجة، ثم قال يعدل من كوفيته الرمادية بالتواءاتها السبع:

- يتفوَّه بأشياء غريبة، ويردد عباراتٍ غير معروفة.

ثم بتأففٍ:

- كافر زنديق لا يعي ما يقول.

ونحن نعود إلى الشارع وكز صاحبي مرفقي، وقال متسائلًا:

- أتعلم أن حزقيل خرج من السجن؟
- سمعتُ بسجنه، ولم أسمع بخروجه.
- قالتْ أمي أن وكالة توسطتْ في الأمر بينه وبين السلطات، وقد تلقتْ هدايا جزلة من السيد/ حزقيل بعد خروجه.

ساد صمت قصير بعده قلتُ لسلمان أستخبره:
- هل تعرف أنه بعث يطلب يد أختي ثم أختكَ بالتوالي؟

ضحك حتى كاد يقع، وبعد أن عاد إليه هدوءه قال بدعابة ثقيلة:
- إنهما محجوزتان.

قلتُ وقد عقدتْ الدهشة لساني:
- محجوزتان.. لمَنْ؟.

ظل يضحك ويضحك، لم أحصل على جواب؛ لأن منظرًا لاح فجأة من لا شيء، وكالة تقترب ببطءٍ بسيقانها العوجاء هتفتْ وهي تضحك:
- زغروطة زغروطة، فبفضل دعاء ملا نور خرج جارنا العزيز حزقيل من السجن، إنه سبحانه يسمع دعاء المتقين، أقام الليل وصام النهار شهرًا كاملًا حتى استجاب الله له، إنه نور على نور.

صمتت تجيل بعينيها الحمراوين الصغيرتين إلى بعيد، ثم إشارات إلى دارٍ في رأس الشارع بالقرب من نادي المحلة، وقالتْ باستياءٍ وامتعاضٍ شديدين وهي تلوي شفتيها المزمومتين:
- المعلّم ولي *بامية* ولِد له البنت السابعة، زوجته قطة بسبعة أرواح، والناس يتصدقون عليها.. أيحسب نفسه ملكًا كي يطالب بولد ذكر

يخلفه في الملك؟ أيبحث عن ولي العهد وهو صعلوك يموت من الجوع؟.

ثم أخذت تضحك باستهزاءٍ ضحكاتٍ قصيرة تهتز لها كتفيها وبطنها المتقدِّم إلى الأمام فوق رجليها القصيرتين الدقيقتين كعود الثقاب، وحينها انطلقتْ لفظتها المعهودة المميزة:

- تتود!

هبَّة هواء عصبية خرجتْ من حلقها اليابس وفمها المتجعد، ثم قالتْ وقد تقطبتْ تقاسيم وجهها:

- والله لم يكن الذنب ذنبي، إنه ذنبه - رحمه الله.

عرفتُ أنها تعني زوجها المتوفي "عبدالقادر" الملقب بـ (عبَقدَر) وتقصد أنه هو السبب في عدم إنجابها ذرية، وعرفتْ أننا سمعنا عنها حكاية مغايرة، أي: أنها أنجبتْ طفلين ذكرين مات كلاهما.

أشرتُ بسبابتي إلى باب إبراهيم القصَّاب، وشئتُ أن أسألها عن علاقة ملا نور به فهمتْ ما أعني، فقالتْ ورائحتها الكريهة تلدغ وجهي:

- إنها مريضة ابنتها مريضة مرضًا غريبًا، فمسٌّ ولمسٌّ من يده الكريمة، لمسة واحدة ضئيلة من يده المباركة كفيلة لشفاء جميع الأسقام.

ومضتْ في سبيلها تغمغم ببركات الإمام نورالدين.

• • • •

(١٩)

في عصر اليوم التالي، وطالما وصلتُ البيت بعد جولة سريعة مع سلمان بعد المدرسة، وأنا بملابسي المدرسية تلقتني أمي بالباب وهي تقول بتوترٍ:

- لا تدخل اذهب وابحث عن أختك إنها لم تعد حتى الآن.

نظرتُ إلى الساعة واستنتجتُ أنها كانت يجب أن تكون في البيت قبل نصف ساعة من الآن، كان أبي قد خرج للتو إلى الجامع... حلّتْ الدهشة بي أسرعتُ وبدّلتُ ملابس المدرسة، البنطلون بنطلون بكاوبوي جينز وخرجتُ أعدو بحثًا عن تارا، درتُ حول المحلة - الحي الكبير نسبيًا – مرتين... وجدتها أخيرًا كانت تجلس داخل موقف الباص في الطرف البعيد على مفترق الطرق المؤدية إلى المدينة، كانت المنطقة نائية شبه خالية من المارة، وقفتُ على مسافة مائة متر تعرفتُ عليهما من ملابسهما وشعريهما وطريقة التحدُّث والإشارات، كانت كل واحدة منهما تمسك بيدها علبة عصير فواكه وباليد الأخرى بسكويت، أشد ما أدهشني طريقة جلوسهما، فقد جلب انتباهي أنهما كانتا تقعدان متلاصقتين تمامًا على مقعدين حديدين لا مجال لمرور شعرة بينهما، تشربان، تضحكان، تتحدثان بحماسٍ ورغبة عارمة ومرحٍ غامر، لو رآهما أحد على هذه الحالة لجزم أنهما أسعد خلق الله، اقتربتُ أكثر وأنا أحبس أنفاسي كأني أمام صيد ثمين لا أريد أن يفلت منّي بأي شكلٍ من الأشكال، انحرفتُ جهة اليمين وخرجتُ من مستوى خط

الشارع بحيث أصبحتُ أقف وأرى دون أن يرونني، وقد خطوتُ بضعة خطوات إضافية إلى الأمام، وقبعتُ وراء مرتفعٍ من الأرض على الأرض الجرداء اليابسة، من هناك رأيتُ بوضوح أن كليهما كانتا قد كشفتا عن ساقيها، لاحتْ لي ركبة فريدة ولم أرَ أثرًا لركبة تارا، لكن ثوبها الرمادي قد ارتفع حواشيه إلى منتصف ساقيها، منذ أن بلغتُ الحُلم ما رأيتُ النصف العلوي من ساق أختي إلّا ذلك اليوم، أنا إذًا أمام منظر غريب جديد بل مريع، حدَّثتُ نفسي بنفسٌ متسارع، تضاربتْ الأفكار والهواجس في رأسي وتلاطمتْ، استذكرتُ الأحداث الماضية ومشاهد الأيام السابقة، صورة فريدة الملصقة بجانب سرير تارا، قُبلة فتاة التمثال من الجص، قُبلة البروفة، والحكاية المشوقة التي سمعتها من فريدة نفسها، تساءلتُ كل الوقت:

ـ أين حجاب تارا؟

دققتُ مليًا حينها عرفتُ أنه كان منزلقًا إلى أسفل مطوي من منتصفه، وقد شكّلتْ طياته طوقًا حول رقبتها وعنقها، اشتعل قلبي نارًا، صرتُ جمرة متقدة، اعترتني رغبة عارمة في أن أفاجئهما وأمسك يد أختي لأجوب بها خلال الطرقات مهيبًا هاتفًا بالناس:

ـ هذه هي المؤمنة التي تزعمون أنها تقية.

جلتُ بنظري على ما حولي فلم أرَ أحدًا في الجوار، جلستُ على الأرض في حالة توتر قصوى، فكرتُ مليًا في الأمر، أردت أن أعثر على مبررٍ لهذا التصرف أيًا كان المهم أن أكون مخطئًا، فبررتُ تبرجها بأن أحدًا لا يراها، لا يوجد رجل ولا غريب،

وأنهما صديقتان شعرتا بالجوع والعطش فاشترتا بعض الشيء من السوق المجاور لدفع الجوع والعطش، وجولة قصيرة في الأنحاء ليس فيها ما يشين ولا يعيب، طمأنتُ نفسي.

هبَّتْ نسمة سرور لهذا الاكتشاف العظيم، فإني كنتُ أحرص منها على نفسها، وعزوتُ ذلك إلى اهتمامي بها وحمايتها من عيون أبي وأمثال أبي، فلم أكن يومًا مع الحجاب ولا اللِّباس الطويل، كنتُ مع الاعتدال دومًا، لم يكن لدي مانع لو سارتْ أختي في الشارع بلا حجاب أو غطاء الرأس، ولكن خوفي وخشيتي من عيون الغرباء الذين سينقلون الخبر إلى أبي فورًا لو رأوها على هذه الصورة، ولنفس الأسباب رجوتُ من حبيبتي أن تلبس باحتشامٍ لكن باعتدال.

السؤال الذي لازمني طوال مدة المراقبة والتجسُّس هذه:
- ماذا يعني كل هذا؟ وما هذا الالتصاق؟

إنهما ملتصقتان حتى في النوم، إنهما تتبادلان قُبلاتٍ شفهية، والله أعلم.. هل هما صادقتان؟ وهل هي حقًّا قُبلات شفهية لا تحريرية؟ هل هي تمثيلية أم واقعية؟.

في لحظةٍ ما كاد نفسِّي يتوقف، رأيتُ فريدة تحيط عنق تارا بذراعها وتقوم تارا بالمثل فتشابكتا هكذا، وكدتُ أن يُغمى علي في اللحظة التي طبعتْ تارا فيها قُبلة خاطفة على خدِّ فريدة المتورد المتوقد كالجمرة، ثم أتبعتها بقُبلتين قويتين على كلا الخدين لصديقتها والتي وصلتا مسمعي، وبعد القُبلة الثالثة تراجعتْ تارا بظهرها إلى الوراء قليلًا، وهي تضحك وتضم فريدة من الخصر وتشدها إليها؛ لم أتحمل أكثر ارتفعت حرارة بدني ودمي، خفتُ أن

أرى المزيد من هذا المشهد الغريب العجيب بل الفظيع، ويفلت الأمر من يدي ويبلغ الحنق والغضب بي مبلغًا ـ إلى أن أصنع من هذه الحبة كبة ـ كما يقول المثل، جلستُ مرة أخرى أُفكِّر، بلغتني أصوات ضحكاتهما المجلجلة الحادة، أُفكِّر في إيجاد مخرجٍ.. هل أتدخل أم أعود إلى البيت وأكذب أني لم أرهما؟ أبعدتُ هذه الفكرة لسببين، لم أستطع خيانة العهد، وعدم قدرتي على الانتظار ومن ثمَّ أنا رجل، والرجل مسؤول عن معرفة نوايا وأفعال أخته، قررتُ معرفة.. ماذا يجري مباشرةً؟ فالتأخير لا يصب في صالحي بما يترتب عليه من قلقٍ نفسي وأرق وتوتر وعصبية قد تنفجر بلا مبرر في أيَّة لحظة، فيختلط الحابل بالنابل ربما دون سببٍ معقول، فيشتعل البيت ويحترق وأكون أنا السبب لسوء تقديري وتفسيري وقصر نظري، إذًا آثرتُ التدخل السريع قبل نشوب الحريق في نفسي وفي البيت معًا، اقتربتُ منهما بتؤدة من وراء وأنا أراقب ما حولي، قد يراني أحد ويظنني لصًا شابًا طائشًا، فاجئتهما بطريقة الأطفال أثناء اللعب.

ـ ووه!

قفزتا ويد كل منهما على صدرها، كانت المفاجأة أشد وطأة على تارا التي أسرعتْ بتغطية رأسها وهي تراجع بعيون محدقة بارزة:

ـ لقمان لقمان! أهو أنت حقًّا؟!

وترنحتْ وكادتْ تقع لولا أيدي فريدة، اقتربتُ من فريدة مهملًا أختي؛ كي تسترجع أنفاسها بحرية ولا تتأثر، وتعيد توازنها بعيدًا عن نظراتي النارية.

قلتُ لفريدة بمزاحٍ ثقيل:

- ما لهذا اللقاء الحميم الوردي الأحمر؟

استقبلتْ كلماتي بهدوءٍ تام، وظلتْ كعادتها واثقة بنفسها وشجاعتها ومحتفظة بصورة شبه كليَّة برباطة جأشها وتوازنها.

- إنه لقاء أبيض لا وردي ولا بني.

قالتْ وهي تضحك وتشرح:

- كان الدرس الأخير شاغرًا فخرجنا إلى هذا السوق الصغير، سوق المحلة، وبعد أن اشترينا بعض الحاجيات - رفعتْ المظروف في وجهي - شعرنا بالجوع واخترنا هذا المكان الخالي المنعزل؛ كي نتناول بعض الأشياء.

حوَّلتُ الآن نظري إلى أختي التي عاد إليها شيء من لونها الطبيعي، نظرتُ إليها بعيون تتطاير شررًا ورأسي يكاد ينفجر في تلك الأثناء، فقد عادتْ الصور تتراقص أمام عيني، تحيرتُ.. ماذا علي أن أفعل؟ كيف يتصرف الرجل في هذه المواقف؟ أنا عمري دون سن البلوغ ولم أخبر هذه الحالة في حياتي بعد.

- هيا.

أطلقتها بلهجة آمرة في وجهيهما محركًا يدي بما يدل على أن تتحركا وتعودا إلى البيت حالًا، جفلتا وتراجعتا وكادتْ تارا أن تتعثر بحجرٍ لولا استنادها بمسند منصة الانتظار، أرادت فريدة فتح فاها لكنها لحسن حظها لم تنبس بشيءٍ بعد أن رأت الانقباض والرصانة والجد في ملامحي.

قلتُ لفريدة منددًا وأنا أتجنب نظرات أختي التوسلية، وقد ضمتْ يديها الناعمتين في وضع تضرعٍ ورجاء:
- اسمعي وعي ولا تنسي واعلمي أني لا أقبل بمثل هذا النوع من الخروج، وإذا أردتما أن تخرجا في جولة بعد المدرسة فعليكما إخبار أمي، أنت لا يهمكِ أمك بل أمي هي التي يهمها.. أين تذهب ابنتها بعد الدوام؟ ومن ثمَّ كفاكِ هذه الحركات المثيرة الصبيانية، ألَّا ترين أنه عمل جنوني ولا يليق بكِ؟ أنت ترينه مجرد صداقة بريئة ولكن للناس ألسن وأعين، وأنا كدتُ أن أجزم بأن هذه الحركات من الضم والقُبلات والعناق المتكرر، نعم المتكرر، غير طبيعية وغير مقبولة خاصةً أمامِ العامة.

كان التأثر واضحًا عليهما، أرادتْ فريدة أن تفتح فاها لكنني نهرتهما بشدة ورعونة فرسان البدو:
- يا ألله عودا بسرعة، سامحتكما هذه المرة لكن الله يعلم ما سأفعل بكما لو رأيتكما مرة أخرى بهذه الحالة، هييا.. أُغربا عن وجهي.

وبلا أي ترددٍ أسرعتا إلى الشارع، ومن بعيد ناديتُ وراءهما، توقفتا والتفتتا ناحيتي مذعورتين فصحتُ بهما:
- هيا أسرعا قبل أن يعود أبي.

طالما سمعتْ تارا اسم أبي أسرعتْ في خطواتها حتى صارتْ مشيتها أشبه بالهرولة، وفريدة على إثرها تناديها:
- هوني عليكِ، لا تخافي انتظريني.

وحينما ابتعدتا مسافة خمسين مترًا، حانتْ من فريدة التفاتة إلي تبدي عن أسنانها تضحك مقهقهة كأنها أرادتْ أن تبلغ لي رسالة

فحواها أنها لم تُعِرْ أي اهتمامٍ لتهديداتي ولا توجيهاتي، وإنما ركضتْ من أمامي تلبيةً وانسجامًا مع أختي، وظلّلتُ واقفًا جامدًا في مكاني بمحاذاة الشارع أشيعهما بنظراتي البائسة إلى أن توارتا وراء المنعطف المفضي إلى الشارع العام.

• • • •

في الجمعة التالية وفي موعد لقاءاتنا الاعتيادية الروتينية في الغابة، لم تقبّلني فريدة كعادتها ولم تضمني إليها بل أحسستُ بفتورٍ واضح من ناحيتها تجاهي، لم أرَ له تفسيرًا سوى أنني عنفتها وجرحتُ كبرياءها أمام أختي في يوم موقف الباص، كان لقاء قصيرًا جدًا ومخيبًا للآمال جدًا، كدتُ أفقد عقلي من تغيُّرها المفاجئ، سألتها:

- ما الخطب؟

أجابت بصوتٍ خفيض مرير:

- مجرد وعكة صحية، الوعكة هذه أصابتْ تارا كذلك، اهتم بها مسكينة كادتْ يُغمى عليها من الفزع، إنها تعاني من آلام البطن واضطراب العادة الشهرية.

قلتُ لها مبررًا:

- إني أحرص منكِ على حياتها كل ذلك من أجلها هي ولفائدتها هي، فأنا لستُ متحفظًا محافظًا كأبي كما تعلمين، وكما تعلمين نحن عائلة محافظة رغمًا عنّي وعنكِ.

تنفستْ تنهدتْ فريدة، وقالتْ بلهجة هي إلى الاعتذار أقرب:

ـ أعلم لقمان إني أحبها كأختي بل أكثر، إنها أكثر من صديقة أو زميلة.

قلتُ مستخبرًا:

ـ ماذا تعنين بعبارة أكثر من صديقة؟

أجابتْ بألمٍ والدموع تترقرق من عينيها الجميلتين، والحزن زادهما جمالًا والدموع المترقرقة بريقًا:
ـ إنها متمسكة بي هذه الأيام ولا تريد أن تفارقني، تحس بوحدة وعزلة لا وتعاني من ألمٍ مرير، أدري.. ما السبب؟ كما قلتُ لكَ قبلًا، إنها لا تفصح عن مشاعرها كليَّةً وتكتفي بالإشارات والعبارات المقتضبة، إنها تلتصق بي ولا تريد أن تفارقني، وقد عبَّرتْ لي أكثر من مرة تمنيها بالقول الصريح: "يا ليتني شاركتكِ نفس الغرفة وفوقنا نفس السقف" وأحيانًا تنفجر في نوبات ضحكٍ متلاحقة وتارةً أخرى تبكي بمرارة.

عقدتْ الدهشة لساني، وضعتْ رأسها على كتفي وهمستْ في أذني:
ـ أحبكَ أحبكَ ولكني أحبها هي أيضًا، أليستْ هي أختكَ وصديقتي وزميلتي وجارتي.

ثم رفعتْ رأسها ومدتْ يدها تصافحني قبل الافتراق، وبعد أن حمَّلتني بجملة إرشادات جديدة:
ـ لا تكن قاسيًا، وكن رفيقًا معها إن كنتَ حقًّا تحبني.

أردتُ أن أضمها إلي، لكنها كانت أسرع قربتْ شفتيها البضتين إلي وطبعتْ قُبلة خاطفة علي خدي، وألقتْ برأسها فوق كتفي تجهش بالبكاء أما أنا فقد استطعتُ بالكاد أن أحبس دموعي.

عدتُ أحمل معي آهات فريدة وتوجيهاتها ومخاوفها، شعرتُ برغبة عارمة في جولة ترفيهية في الأرجاء قبل العودة إلى البيت، بعدها سلكتُ طريق النادي البعيد كان الظلام قد حلَّ، وعند مروري بمسكن المعلِّم ولي لاح لي شبح ملا نورالدين منحنيًا فوق المجرى قُبالة بابه الأحمر الذي كان مفتوحًا إلى نصفه، أسرعتُ تجاهه قاصدًا مباغتته لكنه أحس بوجودي في اللحظة الأخيرة، وطالما رآني وثب إلى سيارته الواقفة بالقرب منه وانطلق بها بسرعة فائقة، واختفتْ عن الأنظار في أقل من ثانية، رفعتُ رأسي إلى الباب فإذا بيدٍ خفيَّة تسحب الباب من الداخل وتغلقه بقوة شديدة ارتجتْ لها الأرض من تحت قدمي، وسمعتُ وقْع أقدام خفيفة متسارعة وراء الباب.

• • • •

(٢٠)

في ليلة من الليالي باتت تارا إلى ما بعد منتصف الليل تقرأ وتكتب تحت نورٍ ضئيل منبعث عن شمعتين، فسَّرتُ ذلك بأنه قد يكون سببه أرقًا أو أنها كانت تحضِّر واجباتها المدرسية الكثيرة، وفي اليوم التالي بينما كانت تارا في المدرسة وقبيل الظهر وبدافع التأكد والفضول دخلتُ غرفتها مخالفًا بذلك العُرف المتعارف عليه - أن لا أطأ غرفتها في غيابها - وقفتُ في وسط الغرفة تحيط بي أربع صور كبيرة لفريدة، جفلتُ ثم تراجعتُ إلى الوراء مغمغمًا مع نفسي في دهشة:

- العدد في تزايد مستمر.

ومما جلب انتباهي أنها كانت في كل الصور محتشمة لا تكشف إلّا جزءًا يسيرًا من ساقيها وذراعيها، وفي كلها بدتْ مبتسمة وتكشف عن دررها الصدفية، وجدتُ حول السرير قصاصات أوراق ملفوفة وممزقة، أوراق مطوية، أوراق مكتوبة، أوراق.. أوراق.

غرزتُ يدي في سلة وأخرجتُ منها حزمة لا على التعيين، رصصتها على المنضدة الخشبية الصغيرة في وسط الغرفة إلى جانب ماعون سماقها الفارغ، لم أجد شيئًا غريبًا عدا مواضيع إنشائية حول: كيف قضيتِ العطلة الصيفية؟ ما هو شعوركِ وأنتِ تعودين إلى مقعد الدراسة بعد إنقطاع ثلاثة أشهر؟ وما إلى ذلك من

مواضيع كصف شعورك في العيد ووصف الطبيعة والربيع.. وغيرها من مواضيع معروفة.

أعدتُ كل شيءٍ إلى مكانه، وكنتُ على وشك أن أغادر الغرفة حينما أحسستُ برغبة غريبة منبعثة عن حدسٍ خفي، مددتُ يدي إلى تحتَ مخدتها الوردية الناعمة، فإذا بي أسمع صوت الورقة المحتكة بيدي، سحبتها، أمسكتُ بها أمام عيني كانت رسالة معنونة، رسالة هزتني هزًّا عنيفًا.

هل هي في حب مع أخت سلمان أم مع سلمان؟ لستُ متأكدًا النظرات المتبادلة يوم زيارته:
- كيف نهضتْ؟

هذا غير مقبول سواء أكانت تميل إلى سلمان أم أخته، كلاهما شاذ.

• • • •

خرجتُ أنفس عن كربتي، في الحقيقة لم أجد رغبة حقيقية لا في المدرسة ولا في جولة مع سلمان، فقررتُ التوجه إلى الحقول في نزهة قصيرة إلى حيث الخضرة والطبيعة والهواء النقي، ولم أجد خيرًا من الطريق المؤدي إلى الغابة حيث تكتنفه الأشجار من كل جانب، سلكتُ الطريق الواسع الستيني البعيد ومن بعيد لاحتْ القلعة الأثرية والسايلو (مخزن الحبوب) والمنارة المظفرية، شعرتُ بانتعاشٍ لهواء أيلول المنعش ولمنظر الطلاب العائدين والذاهبين إلى المدارس والحقائب محمولة فوق الظهور أو المتدلية من الأيدي

الصغيرة، وصلتُ إلى الطريق الترابي المفضي إلى الغابة، كانت هناك مصطبة في الطريق فجلستُ عليها زهاء نصف ساعة أتأمل ما حولي من شجرٍ وطير ومخلوقات بشتى الأشكال والألوان، أنظر ولا أرى جيدًا؛ لأن الرسالة التي كانت ترقد تحت وسادة تارا والتي استقرتْ الآن في جيبي استدعتْ واستحضرتْ معها صورة فريدة وتارا المتعانقتين تحت منصة الانتظار فثارتْ مشاعري، شعرتُ بحزنٍ ويأسٍ شديدين.. هل انهدم كل ما بنيته كل هذا الوقت؟ هل صحيح أن الأيام الماضية كانت مجرد طيف وأحلام؟ هل آلت الأمور إلى هذا المنحدر غير المتوقع ولا على البال ولا على الخاطر؟ قرأتُ بعض الآيات القرآنية، وقررتُ أن أصلي في الجامع بعد العودة، كم أشتاق للقائها هناك اليوم أكثر من أي يومٍ مضى، عاودني صوتها الدافئ من الجمعة الفاترة: "إنها تلتصق بي تلازمني ولا تريد أن تفارقني، وقد عبَّرتْ لي أكثر من مرة تمنيها بالقول الصريح: "يا ليتني شاركتكِ نفس الغرفة وفوقنا نفس السقف"...

سؤال ألحَّ علي ولم يفارقني طوال الوقت.. هل أختي حقًا شاذة؟.

يا ويلنا وويل أبي وأمي إن كانت حقًا كذلك! وويل لها قبل كل شيء، ثم هبَّتْ علي عاصفة من الأسئلة من جهة أخرى: هل كنتُ مقصرًا تجاه فريدة يومًا؟ ألم تجدني فحلًا رجلًا؟ ولِمَ كل هذا الفتور في لقاء الجمعة الفائت؟ لم أسمع منها طوال وقت اللقاء عدا الوعظ والنصائح والتوجيهات، ولِمَ لم أتلقَ منها أيَّة قُبلة من قُبلاتها النارية المحمومة؟ فجأة أحسستُ وبغموض أن هناك جبلًا شاهقًا يعترض سبيل حبنا ولكنه جبلًا من ضباب.

في خضم التفكير والتحليل، شعرتُ أني قد وصلتُ على بعد كيلو متر واحد من بوابة الغابة الصديئة أمشي وسط صف من أشجار الصفصاف الباسقات، فجأة وأنا غارق في بحر خيالاتي وتأملاتي لاحتْ لي هيئة فتاتين تخرجان من البوابة تمشيان يدًا بيد، من حركاتهما بدتا أنهما تضحكان، ملابسهما وهيئاتهما أوحتا إلي أنهما من المعارف، ومشيتهما وحركاتهما لم تكن علي بغريبة، قلتُ في نفسي متسائلًا: " مَنْ تكونان؟ وأين التقيتُ بهما؟"

ورويدًا رويدًا تبيَّنتْ الملامح وبانتْ وتشكَّلتْ الهيئات وتجسَّد الهندام والجسدان بعد أن كانا أشبه بسرابٍ من بعيد، تجمدتْ الدماء في عروقي، واعترضتْ غصة في حلقي، وانتابني ضيق في التنفس، وأنا أُضيِّق عيني أمام شمس الأصيل لتتوضح الرؤية أكثر، والتجأتُ بسرعة إلى أقرب شجرة واختبأتُ وراء أصلها الهائل، في غمرة انشغالهما وثرثراتهما لم تتنبها لوجودي، تجمدتُ، نسيتُ نفسي، دارتْ الدنيا من حولي وأنا أراهما تمراني أمامي بلحمهما وعظمهما، بضحكاتهما المجلجلة وقصصهما وأحاديثهما الشيِّقة، تهالكتُ، أظلمتْ الدنيا في عيني، صرتُ أعمى لا أرى، ترنحتُ، وأخيرًا وقعتُ خلف الشجرة بلا وعي.

سهدتْ تلك الليلة، نزلتُ ليلًا متأخرًا وقفتُ أسفل السلم، ومن هناك رأيتُ ضوءًا ضئيلًا يتسرب من غرفة تارا من خلال القسم الزجاجي العلوي من الباب، همستُ لها من وراء الباب بالاستئذان بالدخول، فأذنتْ، وقوفًا سألتها وبدون مقدمات وبخشونة:

ـ رأيتكِ مع فريدة؟

أنكرتْ في بادئ الحال ثم أذعنتْ وأقرتْ، قلتُ لها بحدة وأنا أضغط على أوتار حنجرتي:

ـ يا مؤمنة يا تقيَّة.. ماذا كنتِ تفعلين مع فريدة في الغابة البعيدة؟.

خفضتْ رأسها في حياءٍ شديد تريد تجنب نظراتي النارية، وقالتْ بتلعثمٍ جليّ:

ـ كانت الحصتان الأخيرتان شاغرتين.

صمتت تبلع ريقها، ثم أضافتْ بهزة في صوتها:

ـ علمًا أننا لم نكن وحدنا، الكثيرات فعلنَّ ما فعلنا، كان النهار رائعًا والغابة جميلة.

قلتُ لها وأنا أصرف على أضراسي:

ـ تكذبين، كنتما وحدكما، ولم أرَ طالبات سوى الخارجات من المدارس.

حلفتْ وهي تسحب طرف البطانية الصفراء الناعمة على صدرها:

ـ قسمًا بالله ثلاث، لم نكن وحدنا، كان هنالك الكثيرات ولكننا تأخرنا قليلًا.

سكتت وهي تنظر إلي من تحت حاجبيها الهلاليين بتحدٍ غير مألوف أدهشتني وفاجأتني به، وقالتْ بشيءٍ من الحدة:

ـ ماذا تقصد من وراء تلك الاتهامات، أخي العزيز؟

عميتُ من الغضب، صرختُ بصوتٍ مكتوم أضغط على حلقي وفمي، فقدتُ أعصابي وقلتُ في صورة غضب ما لم أشأ أن أقوله:

ـ ويحكِ والويل لكِ، أيتها اللزبية المحجبة.

حدَّقتُ في وجهها، كان وجهها الشاحب قد تجهم وعبس، وقد غارتْ عيونها ومع ذلك كانتا تشعان شعاعًا عجيبًا، زمتْ شفتيها لثوانٍ تحرك رأسها يمنةً ويسرةً في حيرة، تسارعتْ أنفاسها وارتعشتْ أصابعها، صار وجهها بلون الأموات، وساد صمت رهيب في جو الغرفة المعتمة، ولم تلبث إلّا أن رفعتْ عينيها إلي كالمتوسلة ثم خفضتهما في حالة إعياء شديد، خفتُ أنها قد أصابها غثيان أو حالة انهيار أو صدمة نفسية شديدة، ظلتْ صامتة لا تتحرك شاخصة بصرها فوق نقطة معينة فوق الحائط قُبالتها، أما أنا فلم أتحمل منظرها البائس أكثر من هذا، فتركتها على هذه الحالة البائسة غير مأسوفٍ عليها وغادرتُ غرفتها بخفة الأرنب، في طريقي على السلم حادثتُ نفسي في رعبٍ وخوفٍ عظيم:

- يا ويلي، هل وصل الأمر إلى حالة الأخ والأخت فيها يتنافسان على حب الفتاة الجارة.

ذبتُ من الخجل والخوف واليأس والأسى، صدمتي كانت أشد.

• • • •

في يوم الجمعة التالي توجهتُ إلى الغابة يحدوني الشوق لا إلى لقائها فحسب بل إلى معرفة ماذا يجري حقًّا في الخفاء، قعدتُ على أول مصطبة وراء البوابة، أي: نفسها كما في اللقاء الأول، انتظرتُ حتى الساعة الرابعة، وكان موعدنا دائمًا الثالثة ولم تظهر فريدة، كلاهما رسبتا في الامتحان في نظري - عدتُ بخفي حنين - طرقتُ

بابهم بوجلٍ كمَنْ يطرقه لأول مرة، كغريبٍ كمجهولٍ، وقلق عظيم يكتنفني وتساؤل:
ـ ماذا علي أن أفعل إن فتح سلمان الباب؟

لم يكن لي أيَّة رغبةَ في أن أرافقه أو أجامله في نزهةَ حتى ولو كانت قصيرة وذلك بسبب الإنهاك والحيرة والقلق والخوف المستبد والهلع الشديد لِمَا ستؤول إليه الأمور تبعًا، فقد وجدتُ نفسي فجأة أمامِ منعطفٍ خطير في حياتي وهُوّة سحيقة، هاجس هيمن على عقلي وروحي إنه عمَّا قريب ستهب عاصفة هوجاء وستقتلع الأخضر واليابس، وفي صدري بركان يتحرك على وشك أن يقذف بالحمم.

أعدتُ الطرق هذه المرة بقوة أكبر، ففتحتْ أمها الباب وأطلتْ بعنقها الطويل ووجهها الأسمر، تنفستُ الصعداء، رحبتْ بي ترحيبًا حارًا وقالتْ لي بلطفٍ بالغ:
ـ سلمان غير موجود، خرج من البيت بعد أن تشاجر مع خاله.
اعتراني الدهش، وانتقل فكري حالًا إلى المطحنة وإلى قبضة السيف المكسور، فقلتُ لها مستطلعًا:
ـ هل لي أن أعرف ما سبب الشجار؟
أجابتْ:
ـ ربما لا يغيب عنكَ الأمر أن أخي يزورنا قبل صلاة الجمعة، ثم يخرج للصلاة وبعدها إلى بيته أو إلى عمله، وجد له عملًا صغيرًا لساعتين بعد الظهر في مطعم، وكان من عادة سلمان أن يخرج قبل مجيئه والسبب هو أنه يفضّل الجامع ذي المنارتين ومعجب بخطب

ملا عبد الحكيم والذي يحبه كل الناس، أما خاله ألح عليه أن يصاحبه إلى جامع ملا نور الدين والذي لا يحبه سلمان، فحدث النقار.

ثم وهي تتفحص وجهي:

ـ لقمان.. ما بكَ؟ أراكَ على غير ما يرام.

قلتُ:

ـ مجرد وعكة بسيطة.

هزتْ رأسها هزتين خفيفتين ثم قالتْ:

ـ ما شاء الله فريدة كذلك تشعر اليوم بوعكة بسيطة مثلكَ، وطلبتْ منِّي أن أخبركَ بذلك.

هل هي تتهرب منِّي؟ زدتُ حيرة وشكوكًا.

• • • •

بعد ترددٍ طويلٍ امتد ليومين، نزلتُ من غرفتي بعد صلاة الظهر بهدوءٍ تام وحذرٍ شديد، طرقتُ باب كهف أبي سمح لي بالولوج، كان لوحده مستلقيًا على ظهره يسمع الأخبار كعادته على دقات بك بن من صوت لندن، تربعتُ على الأرض ملتُ برأسي نحوه وسألته هامسًا في حلكة الظلام:

ـ أبي هل تسمح لي بخمس دقائق؟

• • • •

(٢١)

عبرتْ تارا الباب الداخلي إلى الهول ـ صالة الجلوس ـ كانت قد عادتْ لتوها من المدرسة، تيقنتُ ذلك من وقْع حذائها على أرضية الغرفة، وصوتها المميز الرخيم وهي تهتف بأمي: "أوا أماه كم أنا جائعة" يتبعها صوت أشبه بارتطام حقيبتها المدرسية بالأرض، ثم وقْع أقدام أبي الأعرج المتسارعة من جهة المطبخ، يليها صوت أقدام أمي التي تقترب من الابنة الجائعة والأب الذي أنساها جوعها، ساد صمت طويل نسبيًا لم أسمع خلاله سوى أنفاس متسارعة وتنهيدات خافتة حارة تتخللها نوبة سعال، بغتةً ارتفع صوت أبي يهدر كالزئير:

ـ تعالي تعالي يا ملائكية يا تقية يا نقية، تعالي أيتها الحيَّة ذات الوجهين واللسانين.

كان صراخ أبي يرتفع بوتيرة متسارعة:

ـ هذه آخر أيام، لا مدرسة ولا خروج.

صوت تارا المتضرع:

ـ بابا اهدأ أرجوك اسمعني أولًا إنكَ لا تسمح لي بالكلام.

صوت صفعة تلاها صراخ حاد طويل، امتدت يدي تلقائيًا إلى خدي أصفعه بشدة، تلذذتُ لأول مرة من ألمي، صوت ارتطام فردة نعال أبي بمكانٍ ما، كان كعادته يلقي كل ما يقع في يده في لحظات الغضب الأعمى والنعال كان دومًا في متناول اليد؛ لأنه ينتعله في

زياراته المتكررة من وإلى الحمام للتوضأ، توالى الضرب بالنعال. أبي يخلع فردة نعاله الأخرى ويشرع يضرب تارا، وجهتُ لطمة إلى رأسي تألمتُ منها أشد الوجع وألذه، يتصاعد صوت تارا المنتحب المتهدج:

ـ بابا أتوسل إليكَ بس اسمع إلى ما أقول، لماذا؟ لا أدري ما أغضبكَ، أنا لم أفعل شيئًا.

ويتصاعد صياح أبي الجَهوري بالمقابل:

ـ قول لي أولًا يا ماكرة يا عديمة الأخلاق.

ـ أخ بابا قتلتني.

رفعتُ كفي إلى رأسي ووجهتُ عشر لكمات إلى وجهي إحداها أصاب أنفي فسال منه الدم.

لهاث أبي يرتفع، يبدو أنه تعب من الضرب واتخذ له مجلسًا على الأرض، ثم يرتفع صراخ أمي شيئًا فشيئًا وأخيرًا ينفذ صبرها فتطلق صرخة حادة في وجه أبي:

ـ اتركها يا رجل، هل جننتَ؟ أقول لكَ اترك يدها، إنها لم تفعل شيئًا، أقول لكَ دعها حالًا هيا.

لا تنفع توسلات أمي، وبدلًا ينهض أبي ويمسك بيد أختي، تتهاوى تارا جثة على الكنبة الصغيرة قرب المدخل فتصدر صوتًا مكتومًا، استنتجتُ أن أمي أفلحتْ في انتزاع يد أختي من يد أبي، فتلقي بنفسها على المقعد ويدها تخفي وجهها دريئة للضربات القادمة، يصرر أبي على أسنانه من الغيظ إذ حيل بينه وبين ما تريد؛ انزال عقوبة الضرب المبرح على تارا الصغيرة، صوت تارا المتهدج

المخنوق بالعبرات والدموع، تنحدر على شفتيها الشاحبتين، ينساب وراء ظهر أمي الحاجز:

- بربكَ قلْ لي أبي.. ماذا فعلتُ؟ حبذا لو عرفتُ.. ماذا فعلتُ؟ ما الذنب الذي اقترفته كي تعاقبني هكذا؟.

أبي يتحرك ويرمقها بشررٍ ويحاول أن يمد إليها يدًا بضربة أخرى على رأسها، أمي تحُول بينهما باسطةً ذراعيها إلى أبعد مدى من الجانبين فتتخذ هيئة طائرة شراعية، يرتفع صوت أبي العاصف ويصرخ متهكمًا باستهزاءٍ:

- لا، لا، لم تفعلي شيئًا تحسبينني لا أعرف شيئًا، غشيم.

وترد أمي مدافعة:

- قلْ لها بأي ذنبٍ ضُرِبَتْ؟

ويصرخ أبي بقوة يكاد يشق حنجرته:

- تتركين المدرسة في منتصف الدوام؛ كي تقضي الوقت المتبقي مع هذا الفاسق ابن الفاسق.

ويرتفع صوت تارا بنبرتها الضارعة:

- أحلف بالله إنه لم يحصل شيء من هذا القبيل، أنا أخاف الله وأصلي، أحلف لكَ لم يحصل شيء من هذا.

ويرد أبي بنبرة أكثر حدة:

- لا تنسي أنه لا يخفى علي أمر.

سكوت يتخلله تأوهات تارا وتهدئة أمي، ويعاود أبي هجمته الشعواء:

- علاقتكِ معه ليس بجديد، إنها تعود إلى زمنٍ بعيد، واليوم قد صَدَقَ ظني.

ونهرته أمي بهجة لا تخلو من عنف:

- كفاكَ لغطًا وصياحًا، تريث يا رجل تريث ريثما تتبين حقيقة الأمر، إنه سابق لأوانه أن تحكم على الصبية المسكينة بإتيان المعاصي، يا رجل اذكر اسم ربكَ، اقرأ الفاتحة، قلْ بسم الله.

سكتت الأصوات وتنفستُ الصعداء وعدتُ إلى سريري وأنا ألهث وأمسح عرق جبيني بكفي المرتجف.

- يا مجرم.

ارتفع صدى صوت ضميري المؤنب.

مرتْ العاصفة أو حسبتُ أنها مرتْ، ونمتُ الليل ساعتين فقط قبل الصباح، والكوابيس كانت أنيسي والأفكار المتشابكة جليسي، ومن ثَمَّ استيقظ البيت على صوت أبي عند الفجر، بدا أنه ظل ساهرًا طوال الليل يقلِّب الأفكار والآراء ويبحث عن الخيارات، وبدا أنه قد توصل إلى قرارٍ في قرارة قلبه أعتقد أنه الأفضل في هذا الموقف، أصغيتُ السمع وأنا لا أزال على فراشي ودخان السجائر المتسلِّل إلى الغرفة يسبِّب لي دوارًا غير مألوف، كان أبي قد ترك التدخين منذ شهر.. ما الذي أعاده إليه؟ وبغتةً تعالَ صراخ حاد متواصل أشبه بجرس إنذار هزَّ المكان برمته، هبطتُ السلم أربعًا أربعًا وكدتُ أن أقع لولا المساند الخشبية من الجانبين، من المدخل لاح لي أبي منحنيًا على أختي وبيده شيءٍ لم أتبينه، كان موليًا ظهره لي، اقتربتُ وأنا أحبس أنفاسي ووقفتُ في زاوية أستطيع أن أرى

فيها يده، فرأيتُ ويا لهول ما رأيتْ كان يمسك بيده المسدس الذي كان يسميه بـــ (الباراشوت).

لم أرَه إلّا مرة في حياتي، وكان ذلك في عيد نوروز الفائت حيث أطلق رصاصة في الفضاء وطلب منّي أن أُطلق واحدة ففعلتُ وبيدٍ مرتجفة ممتدة إلى أقصى مدى إلى الأمام فوق سور السطح والرعب يملأ قلبي، وها هو اليوم يضع فوّهة نفس المسدس على صدغ أختي، كلما اشتد به الغيظ يضغط به على صدغها ويبعده كلما أراد أن يستجوبها، كانت تارا انكمشتْ إلى حد تكور جسدها واتخذ هيئة القنفذ.

- أمسدس حقًّا؟!

فقدتُ كل ذرة عقل ووثبتُ عليه كالليث صارخًا في وجهه:

- ماذا تفعل؟

التفتَ أبي مذعورًا وهو يشهق وينظر في عيني اللتين استحالتا إلى عيون الوحش، كان يتنفس بصعوبة واقفًا منتصبًا أمامي وأمام أمي التي كانت تقف الآن وتحمي تارا بصدرها وذراعيها، حينها بلغ غضب أبي منتهاه، مدَّ أبي يده اليسرى المهتزة بعصبية إلى قميصه وأخذ يجرُّ القميص من الوسط جرًّا قويًا فانفكتْ أزراره وتناثرتْ جميعًا على أرض الصالة، رأيتُ أبي في وضعٍ يرثى له وهو يلقي بنفسه متهالكًا على أقرب كنبة ويغمغم مع نفسه ويلطم بقبضة يده رأسه وينن كالمتوجع والمجروح:

- ذهب حياتي، ذهب شرفي.

امتدت يد أمي المرتجفة إليه تقول له وهي تحاول تهدئته بما لديها من وسائل الكَلِم الطيب:
- اذكر اسم ربك، عذ بالله من الشيطان الرجيم، لم يحصل شيء لم يحصل شيء، مصطفى اهدأ، كفى فالجيران يسمعون كل شيءٍ، إنك بهذا تسبِّب فضيحة بنفسكَ لنفسكَ.

أما أبي لم يزده توسلات أمي إلَّا عنادًا، فنهض قائمًا وأخذ يصرخ في وجه أمي وقد انتفختْ شرايين رقبته القصيرة، ويمسك بياقة قميصه المفتوح من الطرفين:
- هل وصلتْ إلى هذه الدرجة، ابنتي عاشقة وأنا لا أعلم بها؟ إنه تجري أشياء غريبة من ورائي، كل ما حدث هو جراء تربيتكِ الناقصة يا امرأة، يا حبيبة الجاهلة.

لم يتمم كلامه، تراجع قليلًا إلى الوراء وغيَّر مجرى بصره إلى جهة الكومة المرتعشة، القشة المتراكمة على البطانية الصوفية الناعمة في غرفة المعركة حيث لا أثر للسُمَّاق ولا للأغاني، حيث عيون فريدة الدامعتين ترمقانني بنظرات عتب خفيَّة ونار غضب مبطنة، والذي روعني أن جسدها قد صغر أضعافًا بينما كبر عمرها خمسة عشر عامًا، تراءتْ تارا في عيني بنصف حجمها الطبيعي وضعف عمرها في ذلك اليوم.
- هي كلمتان لا أكثر.

أطلقها أبي كالرصاصة في وجهها، ثم دار دورة على نفسه وهو يلهث كاد يختنق، تحوَّلتْ حنجرته إلى مزمار من كثرة ما دخن من سجائر في ليلة واحدة، كانت عيناه تتطايران شررًا تحت النظارة

تنتقلان من أمي إلى تارا التي انقطعتْ حتى عن النفس وصارتْ كلوحة مدقوقة على الجدار تحت صورة فريدة، والتي تخيلتها قد تخلتْ عن ابتسامتها لهول ما رأتْ.

وانقضتْ لحظات قبل أن يفتح أبي فمه اليابس، صاح بملء حنجرته أخيرًا وهو يقرِّب ماسورة المسدس من تارا، ثم يضعها على صدغها الهش بعد أن دفع أمي إلى الوراء:

- ازوجكِ اليوم قبل الغد.

ثم التفتَ إلى أمي والتي كانت تبكي مذهولة والمسدس لا يزال يضغط على صدغ أختي، وقال لها بلهجة امرة:

- اذهبي حالًا وابحثي عن وكالة وقولي لها أنها قَبِلَتْ بالزواج من ملا نور الدين.

• • • •

(٢٢)

لزمتُ غرفتي لم أفارقها لأيام بعد الحادث المحزن، كل محاولاتي باءت بالفشل لطرد الصورة الرهيبة المقززة من فكري ومخيلتي، لا أدري.. كيف تمَّ الزواج بكل هذه السرعة؟ خلال أسبوع كان كل شيءٍ جاهزًا مرتبًا، صورة ملا نورالدين وتارا في ملابس العرس لم تفارقني لحظة، تصارعتْ في داخلي أفكار شتى وصور شتى، وسمعتُ أصواتًا مختلفة النبرات لكن صوتي الدفين في ضميري كان الأقوى والأشد إيلامًا، والمؤلم حقًّا أنني لم أتوقع ألبتة أن الأمور ستؤول هكذا وتتخذ هذا المجرى والمسار الأعرج، اشتقتُ من كل قلبي إلى رؤية سلمان لأبوح له بالسرِّ الدفين عساه أن يخفف عنِّي شيئًا من عذابي، لكن الرغبة سرعان ما ماتت:
ـ ماذا سأقول له؟

رأيته مرة من خلال النافذة يطرق بابنا فطلبتُ من أمي أن تصرفه، تساءلتُ.. هل علمتْ فريدة بما حدث؟ لابد أن تكون قد عرفتْ، آه لتلك الأيام الصعبة، أصعب الأيام في حياتي، تراءتْ أمامي أحلك الصور كل يومٍ عشرات المرات، لا أزال أراها أمامي في غرفتها المغلقة طوال الوقت في الفترة الفاصلة بين عقد القران والزفة، ظلتْ طوال الوقت تصلي وتقرأ القرآن وتبكي، رفضتْ أي أحد من الدخول عليها سوى أمي، بين الحين والحين يرتفع صوتها منتحبة:
ـ لماذا لم أفعل شيئًا؟ الحمد لله، أمري إلى الله، الله ينتقم ممن فعل بي هذا.

ارتجتْ الأرض تحت قدمي، لقد دعتْ أختي علي، وهل سيُسمع الدعاء - يا ويلي - ثم اللحظة الأصعب في حياتي كلها أمي تمسك بيد تارا وملا نور يمشي إلى يسار تارا يبعد عنها بحوالي ثلاثين سنتيمترًا، باب المرسيدس يُفتح، يد أمي تدفع أختي برفق إلى الداخل، ملا نور ينحني ويبتسم تحت شاربيه القيطانيين السوداوين المعقوفين أحمر الخد، أحمرالشفاه، أحمر اللحية المشذوبة بأناقة المصبوغة بالحناء، أحمر الرباط المتدلي فوق قميصٍ أبيض، يرفل في بدلته الرمانية وقميصه الأبيض وقد زاد نشاطًا وصحةً، تسربتْ رائحة عطره الفاخر إلى مناخيري، صعد وجلس في مؤخرة السيارة وفي الطرف الآخر جلستْ تارا بلا حِراك كجثة، لاحتْ لي صفحة خد تارا من تحت طيات ردائها وغطاء رأسها الأبيض بلون الأشباح، وقفتُ على رجلي بوهنٍ كادتا لا تقويان على حملي:

- يا نذل يا حقير.

خرجتْ هذه الكلمات تلقائيًا من فمي المتيبس، انتقلتْ عيني إلى رقبة السائق، ها هو ينظر إلى الأمام ويمد يده اليمنى المشعرة إلى المفتاح، وها هي السيارة تنطلق برفق إلى الأمام، وها هي أمي تخطو وتقف في وسط الشارع تندب وتبكي كمَنْ تُشيع ميتًا، عندما وصلتْ السيارة إلى أمام باب عيسى المسيحي وثبتُ إلى الطرف الآخر من غرفتي، من فرجة الشباك رأيتُ تارا تلتفتُ التفاتة أخيرة ناحية البيت الذي عاشتْ (قضتْ) فيه أسعد أيامها وأتعسها، كانت تغرز يديها المغلفتين بالبياض في عينيها كأنها تريد أن تقتلعانهما اقتلاعًا، اختطفها الدجال، وأنا كنتُ في الحقيقة الخاطف.

أما أمي فكانت أتعسنا حالًا، أكثر من مرة شاهدتُها من خلال شق الباب أمي تنحني وتُخرج حقيبة المدرسة من الخزان، ثم تقبّلها تشدها إلى صدرها تشمها وتنتحب وتندب وتشكو: إنها كانت طفلة يا ظالمين يا قساة القلب، ثم تصرخ في جهة غرفة أبي المظلمة:
- يا ظالم قتلتها من أجل حفظ الشرف، وما الشرف؟وهل اقترفتْ الطفلة جريمة مخلة بالشرف؟.

أثاثها كتبها ملابسها ماعون السُمَّاق الفارغ والراديو، لم يُمس أي شيءٍ منها منذ رحيلها القسري، وددتُ لو استطعتُ إغلاق الباب بالقفل لو سمحتْ أمي.

يومًا دخلتُ غرفتها أقف وجهًا لوجه مع فريدة، تحدق بي من أربع جهات، وتنفستُ الصعداء قائلًا في نفسي:
- حسنًا ما فعلتُ، إنها تستاهل إنها تريد اختطاف محبوبتي.

• • • •

في يومٍ من الأيام لاح لي سلمان بعينه وفي سرواله الفضفاض وهو يحمل حقيبة في يده، رآني واقفًا وراء الشباك فرفع رأسه إلي ثم خفضها وتوقف في مكانه يحرك خرزات سبحته بعصبية وبسرعة، قلتُ له من فرجة في النافذة بأنني في انتظار حركة منه، لكنه خيَّب ظني، رفع رأسه الصغير بعنفٍ ونظر إلي للحظات والغضب يتطاير من عينيه، وأنا بدوري لم أتمكن من ضبط نفسي فنظرتُ إليه بتحدٍ وثبات حتى اضطر إلى خفض عينيه، ظل لثوانٍ يتراوح

في مكانه وشفتاه تتحركان بالدعاء، بعدها مضى في سبيله لا يلوي على شيءٍ، أسرعتُ ونزلتُ إلى الشارع أركض وراءه بملابسي الداخلية، أحس بملاحقتي له فاستدار نصف دورة وهتف بي صائحًا:

- الويل لكَ! لو اقتربتَ منِّي سأهشم فكيكَ.

قال هذا وهو يهزُّ قبضتيه في وجهي مهددًا:

- يا فتان يا منافق يا خائن يا عدو الوفاء.

تحجرتُ في مكاني وأنا أتابعه بنظراتي من تحت حواجبي، كان يبتعد بسرعة مضاعفة.

شعرتُ بالأرض تدور من تحت رجلي، ثبتُ في مكاني في سكونٍ مطلق، ثم عدتُ إلى البيت أسحب رجلي ورائي محسورًا مهمومًا، أيقنتُ أن صداقتنا قد انتهتْ لا سلمان بعد اليوم، كان يحمل حقيبة بيده.. فهل سافر؟ وإلى أيَّة جهة؟ كيف أعلم؟ لابد أن أستعلم، لا أتورع الاقتراب من بيتهم، لا كاكه هادي ولا فريدة يستسيغان رؤيتي بعد كل ما حصل.

ألقيتُ بنفسي على السرير وغطيتُ وجهي بشالٍ أسود، فكرتُ طويلًا أحلِّل وأناقش وأستذكر الأحداث باحثًا من خلالها عن حبي لفريدة: إلى أين وصلتْ العلاقة؟.

امتدتْ يدي إلى تحت السرير والتقطتُ مجلة (صحتك حياتك) قرأتُ فيها الأسئلة حول العلاقات غير السوية، ففزعتُ للوصف الذي فاق تقديراتي وتفسيراتي، لم أكن أتوقع أن تكون العلاقة بين الجنس الواحد بهذه الدرجة الفاضحة الحميمية، وأن الواحدة تفعل

بالأخرى كما يفعل الرجل بها وكلاهما يبلغان النشوة الكاملة، ولهما الأدوات بما يكفي لإرضائهما وإشباعهما جنسيًا، اهتز كياني للمعلومة العجيبة التي اعتبرتها وهمية ووجدتُ صعوبة في قبولها رغم عدم قدرتي على إنكارها.

وبكل بطءٍ وبخفقان قلبي أخرجتُ بيدٍ مرتعشة كيس النايلون من جيب سترتي، وأخرجتُ الرسالة وأخذت أقرأها برويَّة وبدقة أقف وأحلق فوق كل لفظة، وعند الخاتمة قرأتُ عبارة "قبلاتي الحارة لكِ، لوردتِ العطرة فريدة، حبيبتكِ الوفية تارا" عدة مرات، ثم أعدتُ الورقة إلى الكيس وأحكمت إغلاقه وحشرته في جيبي، وأنا أُصر على أسناني من الغيظ وأردد مع نفسي:
- تستاهلين كل ما أصابكِ.

في اليوم التالي وعند عودتي من المدرسة، لمحتُ فريدة من بعيد لابسة السواد - ملابس الحداد - شعرها كان أشعث ولم أرَ أثرًا للحمرة على وجهها، بدتْ لي كمَنْ كبرتْ عشرة أعوام، وقفتُ على طرف المنعطف أراقبها بزاوية من عيني وأتلهف إلى سماع كلمة(سلام) منها، لو حيتني بمجرد لفظة (هالو) لكانت قد سددتْ لي خدمة ليس بعدها خدمة، ولأنقذتني من الأرق وفقدان الشهية للأيام والأسابيع القادمة، لكنها مرتْ وأشاحتْ بوجهها عنِّي حال ما وقع بصرها علي، شعرتُ بأن الأرض تتزحزح من تحت قدمي، يبس حلقي وغمرني شعور بالإحباط الشديد وشملني حزن شديد وشعور بالفشل عارم والمذلة والهوان يلاحقانني، لم أنسَ اللحظة

طوال عمري.. حبيبتي تجاهلتني، أهملتني وتجنبتني ولم تكلّف نفسها حتى مشقة الالتفات، أصرتْ نكرة بين عشيةٍ وضحاها؟.

تواصل فتور علاقتنا ولم نلتقِ لأسابيع عديدة، وصارتْ تتجنبني وتدير بوجهها المغبر العبوس إلى الجهة المعاكسة كلما وأينما رأتني، وهمّي لم يكون همًّا واحدًا بل همّان فمنذ تلك اللحظة تحوّل دوري من مراقبة تارا إلى مراقبة فريدة.

في يومٍ ما عزمتُ أن أُجازف، فبعد انتهاء المدرسة لاحتْ لي من بعيد تمشي بتكاسل، رأتني وتجاهلتني وعندما مرتْ بي خفضتْ رأسها وأدارتْ بوجهها الشاحب إلى الطرف الآخر، اقتربتُ منها وقلتُ لها بلهجة إشفاق وتضرع:
- فريدة يجب أن أكلمك في شيءٍ هامٍ يخص أختي قبل أن يخصنا نحن الاثنين، أرجوكِ.

توقفتْ قليلًا بادية التردد، عاينتني لحظة ثم عاودتْ المسير، اعترضتُ سبيلها وقلتُ لها:
- لا أدعكِ قبل أن أُسمعكِ الأمر، أمر هام جدًا له علاقة بحياة تارا قبل كل شيء.

بوجوم نظرتْ إلى بعيد وتنهدتْ، ثم قالتْ بمرارة وتحدٍ في نفس الوقت:
- تارا انتهتْ لقد فات الأوان.
- لم يفت بعد، ولكي نتمكن من إنقاذ ما يمكن إنقاذه علينا التشاور والتباحث.

رفعتْ عينيها الحزينتين نحوي صامتة ثم خفضتهما، نظرتُ إليها مليًّا إلى تقاطيع وجهها وشعرها الذي أخفته تحت غطاء أسود، فقد فقدتْ كل رونق حتى عينيها غارتا في المحجرين، نظرتْ في عيني المتضرعتين فأشفقتْ علي بحركة من يدها فتمتمتْ:

ـ أين نلتقي؟ العيون ترى وتراقب.

قلتُ بسعادة غامرة:

ـ أين ترين؟

ـ بعد الظهرفي الملعب.

في الموعد لقيتها، كانتْ هناك جالسة في زاوية بعيدة على المدرجات تلف نفسها ـ كما تفعل العجائز ـ في عباءتها السوداء، كانت المدرجات شبه خالية وفي الساحة كان ثمة أطفال وشباب يلعبون كرة القدم وبعضهم بأقدام عارية، أشارتْ لي أن أجلس على بعد مترين عنها خشيَّة أن يرانا أحد ويشك بنا ثم يشي بنا، صارتْ بعد نكسة تارا حذرة وخائفة رغم تمتعها بشجاعة نادرة، بدأتْ هي بالحديث فقالتْ:

ـ سلمان نقل مدرسته إلى بلدة على الطريق بين مدينتنا أربيل والسليمانية.

وقع الخبر علي وقع الصاعقة، عقدتْ الدهشة لساني فلم أستطع أن أنبس بحرف، أردفتْ تقول وقد رأت تأثري بالخبر:

ـ ضاق ذرعًا هنا، حَزِنَ كثيرًا حزنًا لا يطاق على تارا.

قلتُ:

- رأيته قبل يومين من غرفتي يحمل بيده حقيبة، وبدا لي غاضبًا علي لا أدري.. ما السبب؟.

قالتْ بشرودٍ:

- لكَ أن تسأله هو فالأمر يخصه هو.

- هل كان يحب تارا؟ (سألتها بعد ترددٍ طويل).

ألقتْ علي نظرة إلى الكره أقرب ولم تنبس، وفجأة خطر ببالي احتمال، وهو أنه كان يحبها ولا يجرؤ بسبب أبي الإفصاح عن ذلك، وما انتقاله إلى البلدة التي كنتُ سمعتُ بها فقد ذكرها عدة مرات في لقاءاتنا إلّا نتيجة للإحباط الشديد الذي أصابه بعد الزواج القسري لتارا، وما نظرته العصبية الغاضبة سوى انعكاس وتعبير عن هذا الإحباط واليأس.

قلتُ لها وعيني على الملعب:

- تمنيتُ لو كان حقًّا أحبها، فلو كان حقًّا أحبها لهانت الأمور رغم تحفظي على أي تقارب من هذا النوع.

نظرتْ إلي من طرف عباءتها وسألتني مستغربة:

- ماذا تقصد بقولكَ لو كان أحبها لهانت الأمور؟

قلتُ بعد أن سحبتُ نفسًا طويلًا وتذكرتُ كلام والدي حول الشهود:

- ربما كان يحبها ويلاحقها، وهي لم تبادله الحب.

جفلتْ وقالتْ بلهجة رفيعة:

- عن أي حبٍّ تتكلم.. ماذا تعني؟

قلتُ ببرود الواثق من كلامه وأنا أسمع تسارع أنفاسها:

- أعني أنها كانت في حبٍّ لكن لا مع سلمان.
- مع مَنْ إذًا؟

وثبتْ من مكانها وهي تطرح علي هذا السؤال، بل ألقته بقوة في وجهي، هززتُ رأسي ثم نظرتُ إليها جنبًا فكانت تحدق بي بنظرات الهلع والاستغراب.
- ربما معكِ.

انتفضتْ تهتف:
- ويحكَ.. ماذا تقول؟.

ثم نهضتْ واقفة تنظر إلي من فوق بنظرات نارية، وهي تقول وتطلب بإصرار:
- قلْ لي بسرعة.. ماذا تقصد؟ أراكَ مشوش الأفكار بل تجننتْ بعد كل ما حدث.

قلتُ لها بنفس البرودة وأنا أتفحص وجهها بحثًا عن الحقيقة:
- اهدئي هناك أمور تتعلق بتارا، فأردتُ التحدُث معكِ حولها.. إن سمحتِ؟.

ودون توقعي بدتْ عليها رغبة واضحة في السماع منِّي، فاقتربتْ منِّي مسافة باردة، فوجدتُ فيها فرصتي لإبلاغها بما كدر المجاري النظيفة.

دسستُ يدي في جيب سترتي وأخرجتُ منه الكيس النايلون ومنه أخرجتُ القصاصة التي كُتِبَتْ عليها الرسالة، وضعتها في يدها وبلا تعليق.

كانت هناك رعشة في يديها، قربتْ الورقة من عينيها فقرأتْ الرسالة وعيونها تتقافز فوق الكلمات وقسماتها تتقلص وتتوسع، ووجهها يتورد ويحمر وتزداد يديها ارتعاشًا، وقرأتْ بصوتٍ مسموع.

عندما رفعتْ عيناها عن الورقة، كان شعاع الحيرة والعجب ينبعث منهما، فكرتْ طويلًا وهي تقلّب الورقة بين يديها بعصبية ورعشة ضئيلة، وأخيرًا دون أن تنظر إلي قالتْ:

- شيء مثير للعجب والتساؤل، إنها رسالة حب حقيقية.

سكتت مقطبة ثم أعادتْ النظر في الورقة تقافزتْ عيناها فوق الكلمات ثم عادتْ تقول بدهشة:

- أمر غير معقول، إنها تخاطبني في الرسالة تقصدني، شيء لا يعقل.

سألتها وأنا أتأمل أسارير وجهها الحائرة:

- هل وصلتْ إليكِ رسائل منها قبل هذه؟ وهل شعرتِ يومًا بميلان حقيقي من طرفها تجاهكِ؟

هزتْ رأسها بخفة يمينًا يسارًا ما يدل على النفي، وأجابت بنبرة رصينة:

- لم أستلم أيّة رسالة منها في حياتي، ولم أشعر بأي شيءٍ غير طبيعي من ناحيتها، لكنني مع ذلك لابد أن أعترف أنها كانت في الأيام الأخيرة شديدة الالتصاق بي لا تنفك تذكر حبها لي ومتانة روابطها معي، وكانت تشكو من حزنٍ عميق - كما قلتُ لكَ في لقاءاتنا الماضية - ولم تبح لي بكل شيءٍ وأكثر من مرة عبَّرتْ لي

عن ثقتها بي، وتقول لي: "أنتِ الوحيدة الصادقة، أنت وأمي، لا أحد سواكما الآخرون كلهم يراقبونني".

قلتُ لها بتهكمٍ مكتوم حاولتُ أن أبدو لطيفًا خشيَّة أن تنفر منِّي وتتركني هي كذلك، الرابطة الوحيدة بيني وبين الحياة، وفي رأسي تتحرك صور القُبل الشفهية وتمثال الجص (الجبس) والعناق الحار تحت منصة انتظار الباص والنزهة في غابة العشاق، تذكرتُ شيئًا هامًا فقلتُ لها مستفسرًا:

- أتدرين أنها لصقتْ أربع صور كبيرة لكِ في غرفتها، وأنها كانت تطيل النظر فيهنّ وإحداهنَّ ملاصقة لسريرها تقلب وجهها نحوها ليلًا قبل النوم وتتحدث إليها.

أطلقت صرخة عجب:

- أنا.. صورتي؟

- نعم.

أجبتُ وأفضتُ:

- إنه ارتباط ملفتٌ للنظر.. أليس كذلك؟.

ثم حدقتُ في عينيها اللتين ثبتتا على عيني تريد أن تفكِّر معي في حل اللغز، بدا عليها الاهتمام المفرط هذه المرة.

قلتُ لها منتهزًا الفرصة:

- يبدو لي أنها معجبة ومتعلقة بكِ علاقة أشبه بحبٍّ عارم، حبٌّ شبيه بحبي لكِ.

جفلتْ ثم استقرتْ ونظرتْ طويلًا في شرودٍ كمَنْ تسترجع الأحداث الماضية والأوقات التي قضناها معًا، ثم رفعتْ رأسها بعنفٍ وأسمعتني رأيها أخيرًا كمَنْ أسلمتْ بمسألة حب تبرئ نفسها عنه:

- وما شأني أنا بذلك؟

ثم أضافتْ مسترجعة:

- أنا أعرف طالبة عشقتْ، وقعتْ في حبِّ مدرسة وظلتْ تكتم شعورها وتعاني إلى أن اكتشف أمرها، رأوها تضع صورها في حقيبتها وتلصق صورها على غلاف دفاترها وكتبها، شاهدتها الطالبات تطبع قُبَل على خدودها وشفتيها على الصورة وتعبِّر عن شعورها تجاهها، ويومًا بعد يوم زادتْ الشكوك عنها وتراكمتْ إلى أن وصل الخبر إلى المديرة – الناظرة - والست المسكينة لا تعي ولا تدري ولا تحس أصلًا، والنتيجة أنها نقلتهما إلى مدرسة أخرى، وأخيرًا وصلنا خبر أن الفتاة انتحرتْ، المسكينة حاولتْ مع المدرسة مرات أخرى لاحقتها وأزعجتها بتوسلاتها، فاضطرتْ المدرسة إلى إنذارها، تملكها اليأس أخيرًا فصبَّتْ على نفسها الزيت في الحمام واحترقتْ عن آخرها.

قلتُ لها مستخبرًا:

- وهل ضايقتكِ أختي كذلك؟

أنكرتْ حالًا بحركة من يدها، ثم بالقول:

- كما قلتُ لكَ كانت متعلقة بي لكن لم تصل إلى هذه الدرجة.

- إذًا كان حبًّا من طرفٍ واحد.

سألتُ، فأسكتتني بلفظة ردع:

- لا تكرر كلمة (حب) مرة أخرى.

ثم أغارتْ بشدة:

- هي أختكَ وأنتَ أدرى بها.

فانتهزتُها مرة أخرى كفرصتي، لكن هذه المرة كي أنفس عن نفسي وربما عن نفسها المعذبتين فقلتُ لها:

- هي دفعتْ ثمن حماقتها فلتهنأ بزوجٍ اسمه ملا نور.

فريدة رمقتني والشرر تتطاير من عينيها، فقالتْ بحنق:

- أراكَ كمَنْ تخلصتَ من عبءٍ ثقيل يا أخي.

- أخي؟!

قاطعتها مندهشًا للفظة، أما هي فقد تابعتْ بحدة متصاعدة تفرغ حزنها وغيظها كبركانٍ انتعش فجأة:

- بل قلْ دفعتْ هي ثمن حماقتكما أنت وأبيكَ المتخلّف.

لأول مرة تتهجم فريدة بهذه الطريقة المباشرة القاسية علي، ثم انحنتْ ووضعتْ رأسها بين يديها المتكأتين فوق ركبتيها المتلاصقتين، ظلتْ لثوانٍ طويلة هكذا من هزات ظهرها وحركات يديها أدركتُ أنها تبكي وبحرارة.

وعندما رفعتْ عينيها كانت أمارات التحدي والدموع الممسوحة ترتسم على وجهها، وقالتْ بصوتٍ متقطع متهدج:

- مظلومة هذه البنت والله مظلومة، إنها ستموت هكذا وإنكما قتلتموها.

حاولتُ أن أُدافع عن موقف أبي وبصورة غير مباشرة، فقلتُ لها:

ـ مظلومة أنا معكِ، ولكن أبي والمجتمع.. فماذا تقولين؟ فليس كل الناس كاكه هادي.

مضتْ ثوانٍ طوال لم نسمع فيها سوى دقات قلبينا وتنهداتنا، بعدها وضعتْ رأسها على كتفي في إعياءٍ استرحتُ لهذه البادرة وعادتْ الروح إلى جسدي والأمل والإشراقة إلى فؤادي، وضعتُ فمي على أذنها بينما يدي تربتُ على شعرها الأملس تحت الغطاء الأسود وطبعتُ قُبلة تحت صدغها، وددتُ أن أبوح لها بالسرِّ كي أتخلص من النار الحامية في صدري، فجأة رفعتْ رأسها من رأسي وهي تميل إلي منقبضة القسمات، وقالتْ لي وهي تشير إلى جيبي:
ـ أرجو أن لا تكون لهذه الورقة علاقة بزواجها.

أنكرتُ على الفور وسحبتُ نفسًا عميقًا حارًا، بدأ العرق يتصبب من جبيني، كنتُ أسأل نفسي.. هل كذبتُ أم صدقتُ بإنكاري لوجود علاقة بين الرسالة وزواجها القسري؟ كان الاحتمال الأول أقوى بكثير، لولا الرسالة لما عَلِمَ أبي بشيءٍ من هذه العلاقة سواء الشاذة معها أو السوية معه، وفي كلتا الحالتين فهي تستاهل ما حدث لها ـ حسب ظني واعتقادي.

ساد صمت طويل الوقت مضى بسرعة، أعداد اللاعبين تقلَّصتْ، تنهدنا معًا تبادلنا النظرات الحزينة، حزن مَنْ فقد عزيزًا، لمع في عينينا بريق الحب وتاقت النفس إلى النفس بعد الفراق الطويل والألم والحدث التراجيدي، وضعتُ يدي في يدها شددتُ عليها بخفة، تقلَّص جسدها كمَنْ نتلتها الكهرباء، كانت يدها حارة جدًا رطبة متعرقة رفعتُها إلى يدي وطبعتُ قُبلة طويلة عليها، سحبتْ

يدها ببطء ثم وقفتْ على رجليها وأحاطتْ نفسها بعباءتها، تبادلنا نظرات الوداع بعيون مبلَّلة دامعة وأودعتُ فيها آخر كلمة قبل التفرق وصوتي إلى التضرع والتوسل أقرب، تناولتُ كلتا يديها بين يدي وبعد أن أحسستُ أنها شعرتْ براحة وأنها شعرتْ بنتلة تسري في جسدها ونشوة أعلنتْ عن نفسها في رفرفة شفتيها البضتين، أفضيتُ بل أمليتُ عليها خلاصة ولب ما جئتُ من أجله، هذا بالإضافة إلى توقي لرؤيتها وشوقي إليها بعد فراقٍ، قلتُ لها وعيني مركزتان في عينيها:

- فريدة حبي وروحي أريد أن تعلمي أنه رغم ثقتي فيكِ لا تتزعزع إلّا أنني أرى أنه خير لكلينا أن لا تقطعي صلتكِ بها حاليًا.

هي مقاطعة وعيونها تلمع كعيون القطة في الليل، قدم فوق المدرج المطلي باللون الأصفر وقدم تحت:

- ممن؟ تريد أن تمنعني من تارا.

أجبتُ وأنا أشبك يدي بتضرعٍ وتوسل:

- أرجوكِ ولو مؤقتًا حتى تستوضح الرؤية وحتى تستقر الأمور وتركد المياه المتحركة.

زفرتْ زفرة قوية فهفا على وجهي نفسُها الحار كالريح، اغمضتْ عينيها في خشوعٍ واستسلام ثم فتحتهما، وأخذت تشير إلى الجهة البعيدة حيث المئذنة ذات الرأس المدور لمسجد ملا نور الدين ترتفع ارتفاعا قليلًا فوق البيوت الكونكريتية وخزانات المياه والهوائيات وأعمدة الهواتف والكهرباء، ثم خفضتْ عينيها لتقابل عيني المنتظرتين في أمل ورجاء، ظلتْ تنظر في وجهي في شرود

وبثباتٍ لثوانٍ قليلة، وا[illegible] نطقتُ اللفظة التي بردتْ قلبي وألقتْ الدفئ في فؤادي ولو إلى حين:

- حسنًا كما شئتَ.

• • • •

عدتُ إذا بأبي يتلقاني بالباب، سحبني من يدي وأخذ يجرني إلى الداخل بسرعة كمَنْ يريد أن يريني كنز قارون، قادني إلى كهفه المظلم وهناك استلقى على فراشه على الأرض وأشار لي بالجلوس، ثم قال لي:

- اجلس يا وريثِ، يا أميري أريد أن أتوجكَ بعد تفكيرٍ وتقليب الأمور ومن الوحي والإلهام من رب السماء الذي غمرني بعطفه ولطفه.

سكت ينظر إلى السقف، ثم قال بصوته العميق الخشن:

- بعون الله تعالى الذي أثابني وهداني واصطفاني وخصني برحمته والذي آتاني الحكمة، قررتُ وبالمشاورة مع أُمكَ أن نختار لكَ فريدة عروسةً.

تجمدتُ تحجرتُ ثم اهتززتُ هزات غير مرئية، رفع رأسه بعد أن آنس صمتي فأهاب بي:

- ما بالكَ يا ولد صامتًا؟

قلتُ له وأنا من العجب في غايته:

ـ هل أنت جاد أبي؟ ألستَ تراني صغيرًا؟ ثم أنا حزين على أختي لا أفكِّر إلَّا بها هذه الأيام حتى فريدة غدتْ لا تشغل بالي كما كانت.

الخجل لم يدعني أرفع رأسي، عاد هو بعد أن أعاد رأسه إلى المخدة:

ـ أنت رجل ارفع رأسكَ.. الرجال لا يخجلون.

رفعتُ رأسي على الفور وبقوة، انتعشتُ وكبرتُ عشر سنوات لهذا الإطراء، فواصل أبي:

ـ أنت لم تبلغ الحُلم ولكنني أراكَ تحبها ومفتنًا بها، هي جميلة حقًّا كغزال، غزال بري.

ذبتُ حياءً وارتباكًا.

ـ وأنا لا أقصد الزواج بل أقصد الخطبة، أريد من الآن فتح الموضوع تمهيدًا وتلويحًا بنيتنا وخطتنا للمستقبل، نحجزها حجزًا كي لا تخرج من يدنا.

قلتُ بعد ترددٍ:

ـ وهي لم تبلغ الحُلم كذلك.

ارتفع رأسه قليلًا عن المخدة وجبينه يشع بقطرات عرق دقيقة، وقال بثقة بالغة:

ـ لا تكن أحمق إنكَ بهذا تتصرف كطفل، الشرف قبل كل شيء، إن لطخت الأنثى سمعة العائلة فلا تُمحى اللطخة وتظل عالقة بجسد الأسرة، أما الولد فلن يلطخ ولن يسيء إلى السمعة أبدًا.

• • • •

في اليوم التالي أخبرتُ فريدة التي ردتْ بلا تردد:

- لا وألف لا.

اقتربتُ منها حتى كاد أنفينا أن يتماسا، وقلتُ لها بتهكمٍ ممزوج بالإنذار والوعيد:

- طبعًا لا يا شاذة.

وأدرتُ ظهري لها ومشيتُ نحو الباب ولم أُعر أي اهتمامٍ لها، وهي تقول من ورائي بصوتٍ مضطرب:

- يا لكَ من أفاك!

• • • •

(٢٣)

كان لدخولي الجامعة أثرٌ واضحٌ في التخفيف من تلاطم الأفكار في رأسي والألم النفسي الذي تسبَّب عن الأحداث المحزنة المتوالية التي طبعتْ حياتي بمزاجٍ سوداوي، رغم ذلك فإنني وضعتُ الفتاتين أختي وفريدة تحت المراقبة، وكنتُ أعود للزيارة في فتراتٍ متقاربة خاصةً أيام الخميس والجمعة وأحيانًا السبت، وكانت أمي قد تكفلتْ بمراقبتهما خاصةً تحركات فريدة بعد أن أوضحتُ لها أنه لا مصلحة لتارا في أن تستمر في علاقتها بفريدة دون أن أذكر لها الدافع الحقيقي، فوعدتني أن تفعل ما في وسعها.

في إحدى إجازاتي أخبرتني أمي أن فريدة تكثر هذه الأيام من زيارة تارا، وقد نبهتْ تارا أن ذلك ليس لصالحها كما أرى، ولم أُخبرها حقيقةً بأنك أنت وراء هذا التنبيه والإخطار، اقتربتُ منها وقد جف حلقي من الفزع:

- لا يا أمي إنكِ لا تعرفين هذا لا يجوز أبدًا، يجب وقف هذه الزيارات بأي وسيلة.

قالتْ أمي بتضرعٍ:

- ابني.. أختكَ وحدها مع رجلٍ ديِّن جاف غليظ متسلِّط، ربما تجد في فريدة متنفسًا ومخرجًا لآلامها وعزلتها.

قاطعتُها:

- قلتُ لكِ لا يجوز.. إنها شاذة.

- شاذة.. وما معنى شاذة؟

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا شيء لا شيء.

نهضتُ في الحال واندفعتُ خارجًا، كنتُ أعرف موقع مسكن ملا نور الدين جيدًا، فقد رأيتُ قصره الجديد من بعيد عدة مرات ولم أقترب منه، وكانت هناك بالقرب من المسكن حديقة عامة صغيرة قرب بوابتها انتصبتْ مصطبتان من الخشب، ووراء المصطبة كانت تنتصب عاليًا شجرة يوكالبتوس ضخمة، كان القصر يقع على بعد ٢٠٠ - ٣٠٠ متر تقريبًا من المكان الذي جلستُ عليه.

كان الجو ربيعيًا منعشًا والبلابل تشدو والهواء المحمل برائحة الزهور البرية، والورود المحمدية وردية اللون الفوَّاحة تفوح في كل مكانٍ وتبعث في النفوس التعبة نشوة وخدرًا لذيذًا، وأجمل وأروع من كل هذا وذاك رائحة القداح المنبعثة من أشجار البرتقال المنتشرة في كل مكان، أخرجتُ الكاسكيت – بيرية - من جيب معطفي الأصفر الخفيف الربيعي وضعتها على رأسي، وسحبتُ المقدَّمة إلى أسفل بحيث صارتْ تغطي نصف جبيني العريض وبلغتْ حافات الحاجبين، ثبَّتُ عيني من تحت على الباب الكبير للقصر المنيف، كان مطليًا بصبغٍ أخضر ورسمتْ في وسطه دائرة صغيرة حمراء اللون، عرفتُ أن اللون الأخضر كان لونًا مميزًا خاصًا بالأسياد، أعني: السيد الروحي من الذين يدعون أنهم من سلالة الأنبياء، ولكن الملفت للنظر أن اللون الأحمر كان له دلالتين في اعتقاد عامة الناس.. الحب العارم والمجون والشيوعية الكفار.

انتظرتُ نصف ساعة ولم أرَ أي بابٍ يفتح ولا أي حركة من وراء الباب، والنوافذ كلها كانت مغلقة هذا عدا عن الستائر في الطابق الثاني حيث كانت نصف مفتوحة تسمح لدخول شمس نيسان الدافئ إلى الغرف الفسيحة، ضقتُ ذرعًا نظرتُ إلى نفسي بشيءٍ من السخرية:

- ما أنت فاعله يا مثقف يا تلميذ الجامعة؟ لقد عداكَ أبوك بمرضه ووساوسه، وصارتْ مراقبة بيوت الناس شغلًا شاغلًا لكَ.

تمددتُ وسط الطبيعة الخلابة وفي غمرة تأملاتي وتخيلاتي وفي لُجة أفكاري المتلاطمة، وصل مسمعي صوت إغلاق باب بقوة وعنف، ارتفع رأسي تلقائيًا إلى مصدر الصوت فرأيتُ وما رأيتُ كان أغرب مما يصدقه العقل والعاطفة، رأيتُ وكاد قلبي يتوقف لِمَا رأيتُ وما صدَّقتُ عيني بما رأيته وكدتُ أحلف أني حلمتَ، رأيتُ فريدة في فستانٍ أحمر طويل ضيق من الوسط كتلك على الصورة تقف بالباب، وتصوَّر مَنْ كان بصحبتها شر خلق الله ملا نورالدين كان يرتدي بدلة سوداء ويضع على رأسه طاقية خضراء منقوشة وبدوائر سود، والأنكد كانت خطيبتي تضحك ويضحك هو معها وبصوتٍ عالٍ مقهقهين، توقفا لثوانٍ في الباب يتبادلان الكلمات والابتسامات، وبعد قليل رأيتُ تارا في روبٍ طويل وغلالة شفيفة حمراء تستر رأسها ولا تخفي إلَّا نصف شعرها الأسود الفاحم، وقفتْ بجانبه تبتسم لها وتتبادل معها الكلمات، ثم تبادلتْ فريدة وتارا القُبلات ومدَّ زوجها يده إليها ومدتْ هي يدها إليه والتقتْ اليدان في مصافحة طويلة حارة تتخللها كلمات شيِّقة وابتسامات عذبة، بعد قليل رأيتُ خطيبتي تنطلق إلى الشارع وظل الزوجان بالباب

يلوّحان لفريدة، توقفتْ فريدة على بعد عشرين مترًا عن البيت واستدارتْ لتلوّح لهما بحرارة كآخر مرحلة من مراسم الوداع، ثم تنظر إلى ساعتها اليدوية بشيءٍ من التوتر، ثم تنطلق هذه المرة بسرعة فائقة، وعندها رفعتْ رأسها إلى ناحيتي فجمدتني في مكاني وحبستُ أنفاسي، كانت الالتفاتة خاطفة وسريعة جدًا.. هل رأتني؟ طمأنتُ نفسي بسرعة:

- إنها لم تعرفني بغير جبين وجبهة وملابس قلما ارتديتها في حضرتها.

في تلك اللحظة ذكرتُ شيئًا نسيته، لماذا لم أرتدِ نفس الملابس التي خرجتُ بها في تلك المرة إلى سوق الكتب؟.

سارتْ فريدة إلى نهاية الشارع ومنها انعرجتْ جهة اليمين، شيعتها تحت بيريتي بنظراتي إلى أن توارتْ وراء الجدران.

كتمتُ الأمر على أهلي وفضّلتُ مفاتحة كاكه هادي أولًا في الموضوع، وقررتُ أن لا أخبره بأمر الرسالة بسبب الخجل والحياء، إنها تخص أختي وشرفي قبل كل شيء، فقمتُ بزيارته في اليوم التالي بعد أن شاهدتُ من خلال الشباك فريدة تخرج مع أمها، طرقتُ بابه ففتح لي هو لقيته يشرب العِرق المسيح والرائحة النفاذة تملأ المكان، بجانب كأس العِرق حليبي اللون وضع أمامه صحون فيها الجرزات والزلاطة وما إلى ذلك من مأكولات تخص الشرب وما يسمى لدى العامة بـــ (المزة) صافحني بحرارة وأجلسني بجانبه وقدّم لي كأسًا فاعتذرتُ، واعتذر هو بدوره بقوله:

- أنا لا أشرب في هذا الوقت المبكر، لكنني أشعر أحيانًا بالوحدة خاصةً بعد أن سافر سلمان اليوم بعد زيارة قصيرة ليومٍ واحد فقط.

ثم ربتَ على كتفي مرحبًا ضاحكًا:

- مرحبًا بكَ صديقي الصغير.. كيف حالكَ؟.

- بخير والحمد لله.. وأنتَ؟.

أشار إلى زجاجة العِرق المنتصبة في وسط المنضدة الصغيرة أمامه، وقال وهو يضحك بانتشاءٍ:

- ما دامتْ هذه أمامي يعني أنني بخير.

رفع كأسًا فارغًا نحوي، وسألني للمرةِ الثانية:

- هل لكَ رغبة في كأسٍ خفيف؟

اعتذرتُ في الحال واضعًا راحة يدي على صدري، فارتشف هو من كأسه رشفة صامتة ثم أعاد الكأس إلى مكانه، ثم التقط زيتونتين من ماعونٍ صغير أمامه وألقاهما في فيِّه، بعدها نظر إلي بطرف عينه الرمادية وسألني وهو يلاحظ أمارات عدم الراحة بادية على وجهي:

- لقمان قلْ لي بصراحة.. ما بكَ اليوم؟ أراكَ مهمومًا منقبضًا، إنكَ اليوم لقمان آخر تمامًا.

حِرتُ جوابًا.. كيف أبدأ؟ وما عساي أن أقول؟ لاح ترددي وتقطبي فاتجه صوب بوفية الشرب وأخذ منه قارورة كُتِبَ عليها: وسكي اسكتلندي، صبَّ نصف قدح وألقى فيه قطعتين كبيرتين من الثلج، ثم تركه هكذا في صمت تصاعد من داخل الكأس تموجات صغيرة كالأسماك متناهية الصغر، وكان بين اللحظة والأخرى يلتفتُ إلي

وهو يبتسم للمنظر كمَنْ يحثني على تأمل ما يجري في الداخل بدقة.
بعد مرور ثوانٍ صبَّ بعض الماء فوق الثلج، وأخذ يرج الكأس يمنةً ويسرةً بهزاتٍ صغيرة قصيرة وبقوة إلى أن ذاب القسم الأعظم من الثلج، ثم قدَّم لي الكأس قائلًا:

- الوسكي أخف من العرق وخففته لكَ أكثر؛ لأنكَ جديد في عالم الشرب، اشرب ولا تخف فالثلج قتل حدته والماء خفف التركيز.

ترددتُ لكنه أباد ترددي بقوله:

- لم تعد طفلًا بل راشدًا بالغًا، إنكَ رجل.

طالما سمعتُ هذه الكلمات رفعتُ الكأس إلى فمي وفرَّغتُ محتواه دفعةً واحدة في جوفي، كدتُ أن أقذفه كالرذاذ إلى الخارج، حسبتُ أني تجرعتُ السم الزعاف، شعرتُ بحرقة في لساني وألم حاد في حلقي والرائحة الحادة أزكمتْ أنفي.

بسبب كوني أشرب الكحول لأول مرة غمرني إحساس بالكفر ومخالفة تعاليم الخالق، تنبه إلى وجومي وقال وهو يربتُ على كتفي برفق:

- ابني لا تخف إنكَ اليوم تتمكن من إدراك أسرار الخالق بصورة أفضل، وما حرَّمه نبي أبيكَ علينا إلّا معرفته وعلمه أن هذا المحرَّم يشحذ الذهن والذاكرة.

وضحك وارتج له بطنه المرتفع تحت قميصه البني الفاتح والحزام الذي شده على بنطلونه الرماني الغامق.

كانت لجرعة الوسكي تأثير السحر، وقضى على خوفي وترددي، وقبل أن أُفاتحه في الموضوع أشار إلى صورة سلمان الجديدة تحت

صخرة رمادية اللون مكسوة بعشبٍ كثيف ويمسك بيده زوج من طائر القبج - الحجل الجبلي من جناحيها، وقال لي:
- ربما تريد أن تعرف آخر أخبار صديقك.

قلتُ في الحال:
- جدًا جدًا.

قال وهو يدفع بظهره إلى الخلف ويتكئ إلى المسند الخلفي:
- إنه يعمل ويدرس في آنٍ واحد في مديرية الزراعة، وكما ترى له هواية صيد القبج في التلال المحيطة، وهو مغرم بقصص المغامرات والفرسان وقصص الحب والشهامة وقيّم الفروسية.

سكت وارتشف رشفة صغيرة وألقى بملعقة السلطة في فمه، ثم عاد يتكلّم ويمصمص بفيّه:
- وكما تعلم أن سلمان متغيِّر الطباع، فلا تستبعد أن يعود يومًا بملابس الفرسان وسيف مصقول يتدلى من حزامه.

ضحك ضحكة مقتضبة، تركتُ عيناي على صورتنا المشتركة التي أخذت قبل ثلاث سنوات، كنا سعداء في الصورة أسناننا تبرق تحت ضوء الشمس الساطعة مستسلمين لضحكة طويلة رغم جيوبنا الخاوية، امتلأتْ جيوبنا فامتلأتْ رؤوسنا وصدورنا بالمشاكل والهموم.

مرتْ دقيقة صمت طويلة، بعدها رفع رأسه إلي وقال بنبرة جادة:
- ابني أعلم أنكَ جئتَ لأمرٍ ما، وبما أنكَ جئتَ في وقت فريدة ليستْ هنا وعلى غير عادتك، فصارحني أنا أبوكَ.

قلتُ مع ارتباكٍ:
- أرجو أن لا تعرف فريدة هذا الكلام بيننا.

أومأ برأسه ولم ينبس بشيء، كان متيقنًا بأنني كنتُ أعرف أنه لا يبوح بالسرّ، وكان متيقنًا مرة أخرى بأنني أعلم بهذه الحقيقة لكنني قلتُها من باب الاحتياط والتأكيد.

ثبَّتَ عينيه المائيتين المشعتين تحت سواد حاجبيه الكثين ينتظر بشوق وباهتمامٍ بالغ ما سيخرج من فمي، فقلتُ له دون أن أنظر إليه متشجعًا بنظرته الجادة الأبوية واهتمامه حتى إنه أعاد الكأس إلى مكانه دون أن يرتشف منه شيئًا:
- رأيتُ فريدة تخرج من بيت ملا نور.. هل لكَ علم بذلك؟.

انتفض قليلًا من مجلسه، وقد تقطب جبينه ثم سرعان ما عاد إليه هدوءه السابق وبسرعة البرق، وقال لي بصوتٍ رزين:
- وماذا ترى أنت؟

قلتُ:
- أني أرى في ذلك خيانة، فأنا أنذرتها أن تقطع زيارتها إليها.
- تمالك وعلى مهلك، لا أعلم.. عمَّ تتحدث يا بني هلا أفصحتَ؟.

حرتُ جوابًا وشعرتُ بخجلٍ وندم، رفعتُ رأسي فرأيتُ عيناه الثاقبتان تنبشان وجهي، وفتحتُ فمي فلم أجد ما أقوله خوفًا من أن يقودني الهيجان إلى أن أكشف السر الذي لم أشأ أن أبوح به لأحدٍ ما حييتُ.

ـ قلتَ إنكَ رأيتها تخرج من بيت ملا نور، وملا نور زوج أختكَ وأختك صديقة لابنتي، وهل زيارة صديقة العمر خيانة حتى لو كانت متزوجة من إبليس؟ أنا لستُ معكَ.

ثم نظر إلي بطرف عينه اليمنى، وقال لي بإشفاق:

ـ أنت مرهق خذ قسطًا وافرًا من الراحة، ثم لو أردتَ مشورتي واستشارتي فأنا حاضر لتقديم ما في وسعي.

وضعتُ يدي على صدري منحنيًا مغمغمًا:

ـ هذا كرم منكَ وفخر لي.

قلتُ هذا ثم نهضتُ قائمًا مستأذنًا، رتبتُ ملابسي وما تشعث من شعري، فعانقني وطبع قُبلة على جبيني وودعني بحرارة، وآخر كلمة خرجتْ من فمه كانت:

ـ لا تهتم.

• • • •

"لا تهتم" قال الخبير والمجرِّب، كان لابد من أن أفعل ما أمرني به، لكن هيهات انتظرتُ عودة فريدة من المدرسة من غرفتي غرفة المراقبة، عيني على المنعطف مرَّ وقت وصولها ولم تصل، ثم مرتْ ساعة إضافية وأنا متمدد وعيني على نفس الموقع ولم تظهر، قلتُ في نفسي:

ـ إنها ربما عادتْ ولم أُلاحظ عودتها أو سلكتْ طريقًا آخر.

نزلتُ دون أن أدع أبواي ينتبهان إلى خروجي، كانت الشمس تهبط بسرعة إلى ما وراء التلال، طرقتُ بابهم من جديد وكدتُ أموت خجلًا وارتباكًا، وما زاد من ارتباكي العيون التي تحركتْ من وراء باب العجوزة من تحت الستائر الصغيرة المغطية للقسم المشبك العلوي، جاء وفتح الباب وهو يترنح من السُّكر أشار لي أن أدخل ثم قال:

- خير ما أعادكَ، تفضل.

كان منتشيًا يلوك ويلوي فمه، ينظف أسنانه من قطع الخيار العالقة بها وينظر بعينين شبه مغلقتين، قلتُ له وقد ذهب بعض خجلي بعد أن فقد هو خجله:

- أردت أن أسأل سيادتكَ لو تسمح لي.. هل عادتْ فريدة؟.

- خابرتُ أمها هاتفيًا، وقالتْ: إنها زارتْ صديقتها مها وستعود حالًا. (أجاب بتثاقل).

- مها.. مَنْ هي مها؟ مها أم تارا؟.

- قالتْ منى.. لا، قالتْ مها.. أقصد منى.

- مها أم منى؟

- لا إنها قالتْ مها، مها.. نعم إنها قالتْ منى، منى.. لا.. لا أظن أنها ذكرتْ مها، نعم إنها ذكرتْ منى.

تركته وأنا ألعن حظي العاثر.

• • • •

(٢٤)

في يومٍ من الأيام كنتُ مع أمي أقطع لها أوراق العنب الربيعية من كرماتنا الأربع لصنع الدولمة - أكلة شعبية لذيذة معروفة - في لحظةٍ ما أباحتْ لي سرًّا دفينًا ومسحة من الحزن تعلو وجهها الطويل الأبيض:

- أختكَ تعاني حتى بعد الحمل، قالتْ لي: "أنه تشاجر معها لمجرد أنها - أي: أختكَ - قالتْ له: أعتقد أن الجنين ولد لا بنت، فثارتْ ثائرته وكاد يضربها وأنذرها أن لا تكرر هذا القول على مسمعه مرة أخرى، أنسيتِ أنني أريد بنتًا؟".

وطالما أنهتْ كلامها كان هناك طرق على الباب، هرعتْ أمي لتفتح الباب ثم عادتْ بعد دقيقتين، وهي ترتجف وتقول بفزع:

- خبر عاجل عن طريق وكالة المشؤومة، تارا أصيبتْ بنزفٍ شديد جراء حادث وقوعها من السلم واجهض وليدها إثر الحادث.

فوقع الخبر علي وقع الصاعقة، اسودتْ الدنيا في عيون أمي وعيوني، فاندفعتْ كالمجنونة تركض حافية واندفعتُ أركض وراءها، حتى بلغنا القصر دقتْ أمي الجرس دفعتْ الباب الأخضر الذي كانت تتوسطه دائرة حمراء بقوة فانفتح في الحال، وسط دهشة وغضب أمي قلتُ لها وأنا أجذبها من يدها:

- الويل لمَنْ يعترض سبيلنا.

وبعد أن اجتزنا سلسلة من الأروقة والممرات، تهديني أمي دون أن يعترضنا أحد حتى الخادم الذي رآنا ولم يحرك ساكنًا بل اكتفى بالنظر بقنوط.

كانت تارا راقدة على فراشٍ وثير في غرفة وثيرة مطلة على الحديقة الخلفية مترامية الأطراف، تشد حول رأسها رباط أبيض، كانت تنظر بعيون فاترة منهكة خائرة القوى، ووجهها الشاحب ازداد شحوبًا وقد تقلَّص جسدها من تحت اللحاف الذي تتغطى به، بدا لي أنها عبارة عن رأس بلا بدن، انتابتني مشاعر جمة أكثرها حدة شعوري بأني قاتل، نعم قاتل، والقتل فنون.

طالما رأتني بكت وأخفت رأسها في جحر أمي التي قبَّلتها وضمتها بحنانٍ إلى صدرها، فجأة انبعث صوت حفيف خفيف من زاوية بعيدة من الغرفة، ثمة سيدة، خادمة أو ممرضة كما ظننتُ في ثيابٍ بيضاء تنظِّف وترتب بعض الملابس والمناشف في الخزان الخشبي الضخم اللماع ذي الأربع مرايا على الواجهة، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك قطع من لعابات ودمى وأشياء تخص الأطفال الرضع على الأرض، وراع انتباهي أنه كانت هناك قطعة ملابس أطفال شبيهة للتي اشترتها فريدة معي في السوق، لم تتنبه لدخولنا أو تنبهتْ ولم تَشأ أن تتدخل في شؤون العائلة.

أشارتْ تارا إلى أمي فمالتْ أمي إليها فهمستْ بعض الكلمات في أذنها، بعدها انتقلتْ عيون أمي إلى السيدة ولزمتْ الصمت واكتفتْ بتنهيدة حارة طويلة، ثم أعادتْ النظر إلى تارا التي أزاحت اللحاف من على جسدها النحيل فبدتْ في ثوبٍ أبيض كتان تتخلَّله خطوط

زُرق متوازية، كومة من العلب والقناني والزجاجات الصغيرة تنتصب بجانبها على منضدة لماعة كالزجاج، سألتها أمي بعد أن أخذت نفسًا:

- كيف تشعرين؟

اجابتْ:

- هناك تحسُّن.

ولم تزد، وأخذتْ تحدق بي كمَنْ تحدق في غريبٍ لم تَرَه في حياتها أبدًا، على وجهها وعينيها ألف علامة استفهام، كانت تنظر بعيون نافذة كالسهام في عيني حتى اضطررتُ إلى خفض عيني تحت تأثير نظراتها النارية مزدوجة المعنى أو على الأقل فسَّرتها أنا هكذا، كانت نظرات أميَ قلقة تنقل النظر بين تارا وبين السيدة ثم تعود وتنظر إليّ، تعجبتُ من هذه الحركات الغريبة من أمي في تلك اللحظة نسيتْ حتى ابنتها.. ماذا أصابها؟.

انتقلتْ عيني تلقائيًا على تلك السيدة اعتقادًا منِّي أنها هي مصدر توتر أمي ورستْ نظراتي عليها، لم تكن حركاتها غريبة عليّ كثيرًا، ولم يدم انتظاري وعجبي وتوتري طويلًا حيث رفعتْ المرأة من بعيد رأسها وتركتْ كل شيءٍ وتوجهتْ إلينا بقامتها الهيفاء:

- فريدة؟!

كتمتُ صرخة عاضًّا على شفتيّ، رايتُ فريدة محجبة كأنها كانت قد تنكرتْ حتى كدتُ لا أعرفها، ولولا عيونها وشفتيها ومشيتها وشعرها الذهبي المتدلي فوق ظهرها - ولم يسع لأي حجابٍ حجب خصلاتها الكثة الكثيفة - لما تعرفتُ عليها.

تقدمتْ بهدوءٍ تحت نظراتنا المشدوهة المدهوشة، تارا أخفت رأسها تحت اللحاف في تلك اللحظة، وقفتْ بعيدًا تنظر إلى أمي وقالتْ كمَنْ يكلمني:

- وجودي ضروري معها لا تشغلي بالك داده حبيبة، هي الأهم من كل شيء أختي صديقتي سأقوم بخدمتها ما حييت.

سارتْ إلى تارا وطبعتْ قبلة وسط جبينها الشاحب، بذهولٍ تأملتُ حركاتها تتقاذفني الأفكار من كل جانب، أخفت تارا وجهها مرة ثانية تحت اللحاف أزاحته عنها فريدة، في تلك اللحظة رأيتُ شيئًا يلمع في بنصرها أصفر دهشتُ أيُّما دهشة، ساورتني شتى المشاعر ندمتُ بالمجيء.. كيف أتصرف؟.

- ويلكِ.. ما هذا؟.

صحتُ بها رغمًا عنِّي، أشارتْ أمي بيدها ما تعني السكوت، أمي رأتْ توتري وقلقي لكنها كما بدتْ لي أنها لم تشاهد الخاتم في يد فريدة، قلتُ لفريدة متجاهلًا تهديدات أمي:

- ما هذا في بنصركِ؟

- مجرد خاتم عادي أهدتني إياه تارا.

قلتُ في نفسي:

- لا يعقل أن تكون قد خطبتْ أو تزوجتْ، فلو كان ذلك قد حصل فعلًا لعرفنا.

أبعدتُ هذه الفكرة إبعادًا قاطعًا، لكن بقي الخاتم لغزًا عالقًا في ذهني شاغلًا لرأسي.

جلستْ فريدة بثقة تامة وبهدوءٍ منقطع النظير بجانب أمي التي جاءتْ في ملابسها البيتية، وأخذتْ أمي تستعلم منها تفاصيل ما حدث لتارا، فقالتْ تشير إلى الجثة تحت اللحاف:

- لولا وجودي معها في تلك اللحظة لكانت الآن من عداد الأموات.

اقشعر بدني وفتحتُ فمي ولكن يد أمي كانت أسرع:

- هسسسسسسس، إنها مريضة.

قاومتُ مقاومة شديدة وتحديتُ أمي وانحنيتُ على أختي أتفحصها عن قرب، مدتْ أمي يدها تحول بيني وبينها، فدفعتُها بقوة ثم اعتذرتُ وتفحصتُ تارا عن كثب، وصدق ما حدسته، رفعتُ الغطاء عن جسدها الضئيل وأزحتُ الثوب الطويل عن ساقيها حتى منتصف الفخذين وهي تقاوم بشدة وعبث، بعدها ألقيت نظرة نارية على أمي وقلتُ لها:

- إنها آثار ضرب.. لِمَ تخفيانها عنّي؟! ويحكما.

صرختُ أُخاطبهما بصيغة المثنى، تراجعتُ عن الفراش ثم استدرتُ بعنفٍ، وأطلقتُ ساقي للريح وخرجتُ من القصر وأنا أبصق على الحيطان وكل ما يقف في طريقي.

• • • •

في اليوم التالي وقفتُ أمام المبنى الملحق بمسجد ملا نورالدين، كان عبارة عن بيتٍ صغير خصصه ملا نور محمد للوعظ ومهامه الإضافية كـ (سيد) وصنع الأدعية والتعاويذ، وإصلاح ذات البين بين الأزواج في حالات الزواج والطلاق والختان وعقود الزواج

وتقسيم الميراث وما إلى ذلك من شؤون دينية ودنيوية، شاهدتُ في الطرف المقابل نسوة وأطفال وعجائز ومرضى وشيوخ ورأيتُ وجهًا من بين هذه الوجوه أثار عجبي، رأيتُ (عاشرة) ابنة المعلّم ولي من بين تلك الوجوه، كانت طفلة لكن في ضخامتها تبدو كامرأة لم أرَ لها مثيلًا في الجمال، رأتني أمها لكنها تجاهلتني وكزتْ ابنتها بمرفقها فسارعتا تركضان صوب المنعطف وشيعتهما بعيني حتى تواريتا عن نظري، حينها خرج ملا نور وتصاعدتْ ضربات قلبي، كان يرفل في الخضرة، كان أخضر في كل شيء في ملابسه الروحانية، في حذائه اللماع، في طاقية رأسه الخضراء، والأخضر هو اللون الخاص بـ (السيد ذي الكرامات والأدعية الشافية) ظهر بحواجبه السود وأنفه المستقيم مع ارتفاع قليل في منتصفه، كان يلمع من رأسه حتى قدميه، كان يمشي منتصبًا بوسامة وهيبة وخلفه رجاله ومريديه وبينما هو سائر من أمامي حان منه التفاتة صوبي فوقع نظره عليّ، تراجعتُ خطوتين إلى الوراء وعيني في عينيه وأطلقتُ ألفاظي في وجهه دون مهابة:

- أنتَ قتلتَ أختي.

اعتراه عجب وتقطب جبينه تحت الطاقية المزركشة، تسمر كالمصعوق لا يبدي حِراكًا مكتفيًا بالنظر في وجهي المنقبض المتورد المنتفخ من الغيظ المكظوم، للحظاتٍ ظل هكذا ثم التفتَ إلى رجاله ثم عاد يحدق في عيني قائلًا متكلفًا الهدوء:

- من أين لك هذا يا ولد؟ هل أخطأتَ الشخص الذي تريده؟

تقدمتُ منه مرعدًا:

- لو لم تكن دجالًا لما ضربتها.

تراجع إلى الوراء في ذعرٍ بالغ، تخيل لي يسائل نفسه:
- هل أصدق أُذني ما سمعت؟

لم تدم اندهاشته طويلًا، ها هو يلتفت إلى رجاله ويغمز لهم فطوقوني من أربع جهات.

• • • •

- أبي إن ملا نور الدين ضرب تارا.. هل تعلم؟.

فجاءني صوته في الظلام الدامس:
- الضرب ضربان بسيفٍ (أقصد) بيدٍ تمسك بالسيف أو بيدٍ خالية، فبأيِّهما ضربها؟ ومن ثَمَّ هناك ضرب حلال وضرب حرام، فبأي صنفٍ من الضرب ضربها؟.
تجاهلتُ سؤاله وقلتُ شاكيًا:
- وإنه ضربني أنا أيضًا.

فارتفع صوته في الظلام:
- تستحق ذلك؛ لأني أعلم أنك أنت المعتدي حتمًا.

• • • •

(٢٥)

كنتُ طوال الوقت أُفكِّر في سرِّ تواجد فريدة في بيت ملا نور.. بأيَّة صفة؟ ولكن في نفس اليوم انتشر خبر مريع في الحارة مفاده أن فريدة تزوجتْ من ملا نور، وجاء الخبر مقلوبًا أيضًا ملا نور تزوج من فريدة، الخاتم كان إذًا خاتم زواج شيء لا يصدق.

أسرعتُ إلى بيت السيِّد هادي وأنا في وضعٍ يرثى له من ضعفٍ ووهن وارتباكٍ وإهمال للهيئة والهندام، طرقتُ بابه ففتحه هو بنفسه، كان يرتدي روبًا مخططًا فوق بيجامته، دعاني إلى الدخول مرحبًا وأجلسني في الطارمة (باحة مسقفة) وجلس هو على الكرسي الخشبي بجانبي، وجاءتْ أم سلمان في تلك اللحظة وسلَّمتْ بادية الحزن والمرارة ثم اختفتْ بالسرعة التي ظهرتْ بها، سألته بتلعثمٍ:

- كاكه هادي أترجاكَ أن تفهمني وتنفي الخبر.

هزَّ رأسه يقول وهو يشد رباط روبه الأزرق:

- أيِ خبرٍ؟

- هل تزوجها حقًا؟ وكيف حدث هذا وبهذه السرعة؟ وما كان دوركَ ورأيكَ في الكارثة؟

قلتُ له بنبرة إلى التأنيب أقرب، نفخ واعتدل على كرسيه وقال:

- ماذا تعني؟ أنا لا أفهم شيئًا، مَنْ تزوج مَنْ؟.

بلغ الغضب منِّي مبلغًا فنهضتُ قائمًا، وقلتُ له بشيءٍ من الحدة:

- كيف قبلتَ وخاصةً أنكَ كنتَ تنتقد ملا نور الدين طوال الوقت؟
- هون عليكَ.. ما الأمر وضح؟ قُلْ لي بسرعة: أي زواجٍ تقصد وأي قبولٍ؟.

شابني مزيج من شعور الاستغراب والسرور:
- يقولون: إن فريدة تزوجتْ من ملا نور.

قال وهو يرمقني بنظرة أقرب إلى استهزاءٍ منه الرثاء:
- من أين لكَ هذا يا فتى؟ كلها محض إشاعات.
- والخاتم؟
- أي خاتمٍ؟ لا شك أنكَ تحلم.

بلَّل شفتيه ثم استأنف ينظر إليّ شزرًا ليلقيني مرة أخرى في حيرة:
- ومن ثَمَّ بنتي حرة في مَنْ تختار وهذا ما قلتُه لكَ أكثر من مرة، إن هي أرادتْكَ أنت فلم أرفض طلبها، وإن هي أرادتْ شخصًا آخر فلن أُمانع؟.
- سأذبحهما معًا.

وثبتُ من مكاني وصحتُ به، وأنا أُحملق في عيني هذا الرجل الرماديتين والباردتين كالثلج.

أطلق ضحكة مقتضبة، وقال وهو يمسك بيدي ويسحبني إلى الكرسي بكل رقة:
- اجلس، لا ينفع الانفعال.
قلتُ له بحدة قبل أن أتخذ مجلسي:
- كانت لابد أن تقطع الصلة بتاتا.

- ظلم أن تتخلى عن أبنائها في وحدتها ومحنتها، ومن ثمَّ هذا ما شاءتْ هي بمحض إرادتها، إنها خدمة إنسانية وأنا أُشجعها.
- دافع عنها أقرب إنسان إليّ، يا ويلي.

قلتُ وأنا أُزيح ورقة الحياء من وجهي، وأطلق لساني وقد بلغ السيل الزبى:

- أتعلم أنني أخشى أن هناك علاقة غير طبيعية بينهما؟ ولي هنا ما يقطع الشك باليقين.

ووضعتُ في يده القصاصة والرسالة وبعض الصور، أجاب ببرودٍ دون أن يكلِّف نفسه مشقة النظر إلى يدي وكأنه كان على بيِّنة من الأمر، الأمر الذي ضاعف من توتري وحيرتي:

- لا أعتقد ذلك، فلو كانت هناك حقًّا علاقة من هذا النوع لقالتْ لي ولتشاورتُ معها في الأمر.

ثم استدركَ قائلًا وبنوعٍ من الملل:

- ابني ما دمنا بشرًا فكل شيءٍ جائز، فالبشر أغرب حيوانات الخالق.

ثم وهو يلقي نظرة على الصور والرسائل بلا اهتمامٍ كمَنْ يتابع فيلمًا سخيفًا على التلفاز، هجتُ مرة أخرى وأنا أستذكر الماضي القريب وقلتُ وأنا أضغط على كلماتي بقوة:

- إنها انتقمتْ منِّي، تارا انتقمتْ وعذبتني وسرقتْ فريدة منِّي.

لوى شفتيه ولم ينبس، لم أتمالك ولم أتحمل برودته فنهضتُ في حالة إحباط وفوران دم، وهتفتُ في وجهه مهددًا:

- إن ابنتكَ شاذة، فعليكَ أن تحول دون استمرار علاقة من هذا القبيل وإلا ستكون العاقبة وخيمة.

أجاب ببرودته المعتادة وبكل رقة وأدب جَمّ:

- كل شيءٍ جائز في هذه الدنيا، قد تكون تارا وبسبب ضغوط أبيك وخوفها انحرفتْ عن الجادة وصارتْ تميل إلى الجنس المماثل، فهذا له ما يبرره ولها ما يبررها، ربما تحتاج إلى وقتٍ ابني كي تعود إلى طبيعتها، إنها خافتْ وارتعبتْ كثيرًا وطويلًا هذه الطفلة.

طعنة خنجر كانت أرحم من هذه الكلمات، سكت لحظة بعدها قال ببروده المعتاد معيدًا وجهة نظره:

- ثم قبل كل ذلك إنها مستقلة حرة، وما لي حق ولا سلطان في زحزحتها عن الجادة التي اختارتْ بنفسها السير عليها.

نهضتُ بتثاقلٍ أتنفس الحسرة وأشهق العلقم، وقبل أن أستدير وضع يدًا فوق كتفي وقال بحنان الأب:

- ابني، نسيتُ أن أقول لكَ سلمان مشتاق إليكَ جدًا.

لم أتوقف ليكمل جملته، فمضيتُ أسحب رجلي ورائي صوب البيت وفي رأسي زوبعة.

• • • •

(٢٦)

لمَنْ أبُثّ شكواي؟ لو كلمتُ أبي في الموضوع وقلتُ لأبي:
- أني أشك أن هناك علاقة غير طبيعية بين ابنتكَ وابنة الجار.

كنتُ سأجعل منه قاتلًا أو مقتولًا لا محالة، فالمسدس الأسود الملقب بـ (البازاشوت) لا يزال راقدًا في حفرة تحت لحافه، ولو صرختُ في وجه أمي أنفس عمّا في قلبي المشتعل:
- إن ابنتكِ شاذذذة.. شاذذذذذة!

لكنتُ جعلتُ منها مجنونة.

وهل تعرف أمي ما معنى شاذة؟ وهي التي لا تزال تسد فاها بكُمِّ ردائها كلما رأتْ على جهاز التلفاز رجلاً يقبّل امرأة.
- أمي، هل تعرفين ما معنى شاذ؟

أقول لها وأنا أمسك يدها الماسكة بالساطور، فتحملق في وجهي وهي تتمتم بصوتٍ حزين:
- أظن أنه أصابكَ مس من الشيطان، ابني أخاف عليكَ لقد أتعبتَ نفسكَ كثيرًا وفوق طاقتكَ، أنصحكَ أن تعالج نفسكَ عند رجل مبارك ديِّن، هناك شيخ في القرية مبارك.. هل تريدني أن أصطحبكَ إليه؟

• • • •

في الليل الموحش والحزن المطبق والظلام الغامر، قررتُ أن أقوم بزيارة المعلّم ولي عسى أن ينفعني بل عسى أن يفهمني، فهو شخص مثقف ومنفتح ومتعلّم وصاحب تجربة وخبرة، وكان معلّمًا لي في المدرسة الابتدائية لمادة التاريخ، وما كان يلفتُ نظري حينذاك قامته الرفيعة وهندامه الأنيق وأنفه الطويل ومشيته الوئيدة، حتى قيل إنه يمشي على بيض الدجاج، كان وضعه الاقتصادي جيدًا لكن المرض وكثرة الأطفال وعاديات الزمان أردته فقيرًا معدمًا حتى رأيته يومًا يبيع اللوبيا في سوق المدينة، وزوجته كانت تعمل في التنظيف في بيوت الأثرياء.

خرجتُ دون أن يعرف أبواي، بعد أن أغلقتُ باب غرفتي بالمفتاح كما كانت عادتي في الأيام الأخيرة، حتى لو كنتُ مقيمًا (موجودًا) فيها.

- احذر إنه يؤذي كحية.

قال لي يومًا المعلّم ولي قاصدًا بذلك ملا نورالدين.

الأطفال كانوا نيام عدا الكبيرة عاشرة والرضيع، جذبتْ اهتمامي خدود عاشرة المتوردة المضيئة كالمصباح ووجهها المستدير كاستدارة البدر التمام وجسدها البض الممتلئ، لم أرَ لحسنها نظيرًا جسد امرأة في عمر الثمان.

تعجبتُ، له سبعة أطفال أكبرهم ثماني سنوات، فيعني هذا أن امرأته ولدتْ في كل عام طفل، أكان لوكالة الشمطاء الحق أن تدعوها بالقطة؟ تناولتْ عاشرة منّي الهدية التي أخذتُها معي من البيت، وكانت عبارة عن مبلغٍ من النقود في مظروفٍ من الورق،

ناولتُها إياها تحت عبارات الامتنان لزوجته بعد أن سلَّمتْ عليّ، ثم أشارتْ إلى زوجها الذي كان يقوم بحركاتٍ غريبة وقالتْ بصوتٍ خفيض:

- إنه يصلي.

صعقتُ، لم أرَ شبيهًا لها لأي صلاة خبرتها ورأيتها من المسيحيين وغيرها من الأديان، ثم عادتْ إلى رضيعها المولولة في الغرفة الملاصقة، وبكل حياءٍ شكرتني عاشرة ثم ذهبتْ إلى حيث أمها.

كان يصلي جلوسًا متربعًا على الأرض الجرداء الخالية من كل شيء، انتظرتُ إلى أن أكمل ولي صلاته، فنهض ورحبَّ بي بشوقٍ وحبٍّ وصافحني بحرارة، فقلتُ له على الفور:

- أريد أن أكلمك على انفراد، واعذرني إن كنتُ جئتُ في وقتٍ متأخر، الليل خير كاتم للأسرار.

رحبَ بي مرةً ثانية، ثم ذهب وأغلق الأبواب وسمعته يتحدث إلى زوجته، فتهيأ لي أنه طلب منها أن لا تدخل الغرفة مهما كان السبب، كان شعر رأسه ولحيته مختلطان، كان ثمة موقد حديدي مستطيل الشكل ينتصب في وسط الغرفة، يتصاعد منه دخان أزرق من نار صفراء ضئيلة من بقايا الفحم، لم يكن الجو باردًا، رفعتُ عيني إليه فقال لي يجيب عن سؤالٍ لم أوجهه:

- هذه النار من الشمس، وسر الوجود هو الشمس.

تملكني شعور بالرهبة ولكنه سرعان ما سألني:

- هل تريد أن تشرب أو تأكل شيئًا؟

قلتُ:

ـ شكرًا أنا آتٍ من البيت.

أشار بيده إلى كنبة طويلة هناك ملاصقة للحائط، فجلس كلٌّ منا على طرف، ثم التفتَ إليَّ قائلًا وبلا تمهيد:
ـ أبوكَ إنسان طيب لكنه غدر بتارا بتزويجها لهذا الشخص، أردتُ أن أمنعه لكنه لم يستمع.
ـ ألأنها كانت صغيرة؟ (بادرته بالسؤال).
ـ لا بل لسلوك ملا نور الدين.

قاطع الحديث ثم استدركَ قائلًا:
ـ اعذرني إنه هو زوج أختكَ.

قلتُ له مطمئنًا:
ـ أنا معكَ ومتفق معكَ بشأن سلوكه.

قال:
ـ إذًا اسمع، أنا أعرف هذا الشخص جيدًا وحسب الأخبار من أشخاص موثوقين أنه متزوج من أكثر من واحدة سرًّا. (ارتجتْ أطرافي).
استطرد بعد نظرة خاطفة لي:
ـ إن له قصورًا في أماكن متفرقة وبعضها تقع خارج هذه المدينة، وقد تزوج من أكثر من أربعة.

قلتُ غير مصدق:
ـ أستاذي أنا أحترمك كونكَ معلّمي، لكن أكاد أن أجزم أنكَ لا تعي.. ماذا تقول؟.

- كان قد أعلن على لسان العجوزة الشمطاء وكالة أنه عازب وله الحق أن يبحث عن شريكة الحياة.

حدق في وجهي برهة بنفاذ كالمتأهب لبدء حملة، وقال:

- وهناك سرٌ أكشفه لكَ وإياك أن تفشي به لأحد، حسنًا فعلتَ بمجيئكَ لي لكَ خبر هام.

نبهني بإشارة إلى وجود زوجته في الجوار، ثم قال يوضح بصوتٍ خافت جدًا:

- هي لا تعرف، وأريدك أن تعرف أن كاكه هادي قد عاد إلى دين آبائه وآبائنا سرًّا لكنه لا يطبق التعاليم ولا يمارس الطقوس.

خفق قلبي ودار رأسي وسألته بهلعٍ:

- هل يعلم أحد بالأمر؟

- لا أحد إلّا أنت ولسببٍ واحد.

أخذني الدهش فسألته:

- أي سببٍ؟

قال وهو يشير من فرجة الباب إلى حيث عاشرة تهدهد وتُرضع الوليد من زجاجة الحليب:

- أنتَ تراها بنفسك، إنها امرأة بكل معنى الكلمة.. تطبخ وتغسل وتعتني بالطفلة وتعرف كل شيءٍ، كل أمور الأسرة حقيقةً من غسلٍ وطبخ ورعاية ورضاعة.. أم حقيقية.. تراها حتمًا أكبر من عمرها جسدًا وروحًا.

سألته وأنا أنظر إلى ساعديها البضين الممتلئين، ووجهها الذي كان يلمع تحت ضوء القمر المتسلّل من خلال الستائر في تلك الليلة

المقمرة من شهر مايس، بدتْ في جلستها كأنها امرأة ناضجة، انتبهتْ لنظراتي فرفعتْ عينيها الواسعتين الخمريتين تحت حاجبيها الهلاليين تحدق في بثباتٍ وإغراءٍ وجوع.

- والآن أريد أن أكلمكَ في شأنٍ خطير.

نظر بعينيه الحمراوين في وجهي، وقال بنبرة عميقة وحزينة:

- أقولها بلا مقدمات.. هذه ابنتي وأريدكَ أن تصبح صِهري.

انتفضتُ واقفًا، تحجرتُ وثبتُ نظري على عينيه فلم أرَ سوى العزم والجد، أشار لي بالهدوء والجلوس ثم قال بجدٍ:

- أنا لا أمزح، إنها بنفسها وافقتْ وأنها تريدكَ.

قلتُ:

- اعذرني إن قلتُ أنا لا أصدقكَ.

قال:

- إنها معجبة بكَ.

هززتُ رأسي بالنفي والعجب، فقال يلح بصوته العميق:

- نحن لا نرفض المحبين الحب مقدسة، أنا أريد أن أُناسبكَ وبجد.

ألقيتُ نظرة على الفتاة، فإذ هي لا تزال تنظر إليَّ بشوقٍ وفتنة تحت حاجبيها متظاهرةً بتهدئة الطفلة في حضنها على ضوء مصباح خافت بجوار المهد، ثم قلتُ لمعلّمي القديم:

- لا أريد مثل هذا الزواج رغم أنه شرف لي أن أُناسبكَ، لكنني أرفضها مع احترامي لكَ لكونها طفلة.

نهض وبكى، اقتربتُ منه وقلتُ وكلي حيرة وعجب:

- فيم البكاء؟

قال يكتم نحيبه:

- ابني إنكَ أعقل وأرحم من ملا نور.

قلتُ وأنا أرتجف:

- وما دخل ملا نور بالأمر؟

قال:

- إنه بعث مَنْ يطلب يدها.

صرختُ:

- مَنْ.. زوج أختي؟!

امسكَ بيدي:

- على مهلكَ أرجوكَ لا تفضحني سيقتلني إن عرف، لا أحد يعرف سوانا.

أعدتُ عليه السؤال والأرض تدور بي:

- أتقول أن ملا نورالدين إمام مسجد حي السكة، طلب يد عاشرة هذه؟!.

أومأ مرتين ولم ينبس والبؤس يطفح من عينيه، قلتُ:

- أستاذي أرجوكَ.. ماذا بكَ اليوم؟!.

كان معروفًا بالصدق بين الناس ومعروفًا برجاحة عقله، تنفس عميقًا ثم زفر بحرارة وقال بتصميمٍ وبريق ينبعث من عينيه النافذتين:

- صدقني هذه هي الحقيقة.

تنفستُ عميقًا تنهدتُ ونظرتُ إليه باستسلام:

- أُصدقك أستاذي.

فجأة ورد ذاكرتي ذلك اليومِ الذي ضبطتُ ملا نورالدين يلتقط الأوراق من المجاري قُبالة بابهم الأحمر الذي كان مفتوحًا إلى نصفه وصوت وقْع أقدام وراء الباب.

- وماذا كان جوابكَ؟ (سألته).

أجاب بفمٍ ملتوي:

- جوابي أني حذرته: "لو مررتَ مرة أخرى من هذا المكان سأقتلكَ" ومضى هو في سبيله لم يقلْ شيئًا وبعد ساعة جاء رجال مجهولون وأخذوني.

أخذ معلّمي يبكي وهو يلوي كُم قميصه البرتقالي الوهاج بلون اللهب، قربتُ رأسي منه فرأيتُ آثار كمدٍ وكسور وضمور.

أخذ نفسًا وأعاد الكُم إلى وضعه ثم قال:

- النتيجة تعطُّل يدي اليمنى عن العمل إنهم أشبعوني ضربًا وركلًا، ضربًا لن أنساه ما حييت، وأنا خفتُ أنه سيعيد طلبه أو يخطتفها، فهذا الرجل بيده القوة.. قوة المال وقوة السلطة وقوة أخرى خفيَّة وهي قوة اسمها (فقدان الضمير) ففاقد الضمير لا يخشى لذلك فإنه يشعر بقوة خارقة، ومنذ ذلك اليوم صرتُ أخاف على ابنتي إلى أن اضطررتُ وأخرجتُها من المدرسة.

دبَّ الذعر في صدري، أيعقل أن يكون زوج أختي بهذه الدرجة من القسوة والعدوانية؟.

- إنه يظهر غير ما يضمر.

عاد المعلّم يقول بصوتٍ متهدج:

- ولهذا السبب فكرتُ أن أُنقذ الفتاة، وعرفتُ أنكَ تبحث عن شريكة، ولم أجد خيرًا منكَ لها.

ارتسمتْ ابتسامة كالحة على وجهي رغمًا عنِّي، فقلتُ له بشعورٍ مفعم بالغم له:

- إن ما تقترحه خيال ومن ثمَّ ماذا عن أبي؟

قال:

- أبوكَ قَبِلَ بالفكرة من حيث المبدأ، لكنه رفض قبل أن تبلغ الفتاة الحُلم.

نظر إلى الحائط الأجرد أمامه بشرودٍ حينما لم يجد فيَّ الرجل المنشود، وقمتُ حينها مختتمًا بذلك زيارتي العقيمة الأليمة، وودعني وصافحني لدى الباب وعيناه تفيضان دمعًا، طالما وطئتْ قدماي الشارع وجدتني رغم كل الهموم أضحك وأضحك وأضحك ضحكًا هستيريًا لم أستطع السيطرة عليه وإيقافه، وكان سبب الضحك هو أنني أدركتُ فجأة بأني جئتُ لمعلِّمي شاكيًا عنده أمري راجيًا مشورة وإغاثة، فإذا هو الشاكي والمستنجد والمستغيث!.

• • • •

عدتُ إلى البيت منهكًا، ودخلتُ من الباب الكبير الجانبي لتلافي أبواي الجالسين في الهول.

في غرفتي ألقيتُ نفسي على سريري، رقدتُ وعيوني المتعبة شاخصة في السقف، صور تتحرك أمامي لا عدَّ لها ولا حصر،

وكلها اختفتْ فجأة لتحل محلها جميعًا صورة واحدة بقيتْ عالقة أمام بصري، قفزتُ من السرير وفتحتُ الحقيبة الدبلوماسية العتيقة المخبوءة تحت طيات الملابس في الخِزانة، أدرتُ الأزرار عدة دورات ثم دفعتُ الغطاء بإبهاميّ ودفعتُه إلى أعلى، ظهرتْ كومة من الأوراق، دسستُ يدي تحتها وأخرجتُ منها صورة أبيض أسود لتارا وفريدة متعانقتين وجدتها مؤخرًا في خزان الملابس لغرفة تارا المهجورة، رفعتُها أمام عيني وتأملتُها وأنا أصرف على أسناني:

- ويحكما، وتبًا لكما.. أين تفران منّي؟ الويل لكما!

وفجأة عاد صدى صوت كاكه هادي يرنُّ في رأسي: "ابني، نسيتُ أن أقول لكَ سلمان مشتاق إليكَ جدًا".

• • • •

(٢٧)

وأنا أستذكر الأحداث الليلة الماضية، تذكرتُ أمرًا لفتَ نظري ثم غاب عنِّي بسبب القصة الغريبة التي قصَّها عليَّ معلِّمي بشأن ملا نورالدين وعاشرة، لفتَ نظري أن جدران بيته وأرضية غرفه كانت خالية من أي فرشٍ وزينة، جرداء زالتْ من معظمها الأصباغ، أخبرتُ أمي وأبي بذلك، كان أبي يعاني منذ الليلة الفائتة - على حسب قول أمي - من ألمٍ حاد في الجانب الأيسر من كتفه وذراعه، فكان يدلك ذراعه الأيسر باستمرار، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك؛ لذلك لم ألقِ عليه اهتمامًا يذكر.

اتفقنا بعد المشاورة بجمع كل شيءٍ فائض عن الحاجة من البيت وإعطائه هدية لأطفال المعلِّم ولي، في نفس اليوم أوصلتُ المواد هذه من مفروشات وسجاد مستعمل قديم وغطاء الأرضية وبعض الكراسي ومدافئ نفطية، وملابس للأطفال كانت أمي تشتريها من السوق القديم وتقدِّمها لدار الأيتام صدقة وخيرًا.

كان هو غائبًا عن البيت، فاستقبلتني زوجته وعاشرة بالعناق والامتنان، وفي غمرة فرحهما انحنتْ عاشرة وانحنتْ لتقبِّل يدي، فسحبتُ يدي وأنا أتمتم:

- استغفر الله.

في حياتي لم أشعر بسعادة كما شعرتُ بها ذلك اليوم، عند عودتي قلتُ لأمي التي كانت تحمل آنية كبيرة من الشاورمة والكباب وقطع

كبيرة من خبز الفرن الحار وتضعه على صينية فوق المنضدة في زاوية المطبخ، وقالتْ لي:
- هل تستطيع حمل هذه كذلك إلى أطفال معلّمك.

أومأتُ بنعم فورًا، عانقتني وطبعتْ قُبلة دافئة على خدي وعدلتْ من رباطي الأصفر المنقط المتدلى فوق قميصي الأزرق، وهي تتنهد وقالتْ:
- لا تحزن ابني، الله هو الذي ييسر وما لنا إلّا الصبر، والصبر مفتاح الفرج.

لم أُرد الخوض في أي حديثٍ عمّا جرى في بيت ملا نور الدين، فقلتُ لها وأنا لا أزال تحت تأثير أحداث الليلة الفائتة:
- إن ملا نور الدين يحب الصبايا كثيرًا حتى إنه يحلم بـــ..
أطبقتْ فمي.
- ويحكَ ألّا تعلم أن أمك كالغربال لا تمسك بالماء، وكل شيءٍ يتسرب منها بلا وعي.

تنهدتُ ورفعتُ الصينية المدورة الكبيرة، وقلتُ لأمي وأنا أستنشق ملء رئتيّ رائحة الوردة المحمدية المنبعثة من ثيابها:
- سُئل الكاتب الأيرلندي الساخر "برنارد شو" ما سر طول لحيتك وفقدان الشعر من رأسكَ، أجاب مستهزئًا: "هذا هو وضع العالم اليوم غزارة في الإنتاج رداءة في التوزيع".

ضحكتْ أمي مع علمي أنها لم تعرف القصد من المثل، فقمتُ بتفسير المبادرة الخيرية بشاهدٍ واضعًا يدي تحت ذقن أمي أُداعبها بدفعٍ طفيف إلى أعلى:

ـ هذا الصحن من الطعام الغرض منه أخذ بعض الشعر من لحية برنارد شو ونقله إلى رأس برنارد شو.

ضحكتْ بقوة مرة أخرى، اهتزتْ لها بطنها من تحت ثوبها الذي تدلى من المنتصف، كانت تضحك دائمًا ببطنها لا بفيِّها، رافقتني إلى الباب تحدق في وجهي بفخرٍ واعتزاز، وهي تردد:
ـ رجل رجل أنتَ رجل البيت، بعد سنتين سأحتفل بتخرجكَ.

ولدى الباب التفتتْ إليَّ تسأل بكل عفوية:
ـ هل كان شو شو مسلِّمًا أم مسيحيًا أم يهوديًا؟

قلتُ لها وأنا أضحك كفلاحٍ قُلِعَتْ جميع أضراسه:
ـ لا هذا ولا ذاك كان يؤمن بالإنسانية، كان يقول: "نحن بشر قبل أن نكون مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو بوذيين".

قلتُ هذا وانطلقتُ إلى الشارع أعدو باتجاه مسكن المعلِّم ولي، سلَّمتهم الأمانة بسرعة ودون أن أقف لأستمع إلى أدعية وصلوات زوجته لي بالنجاح، انطلقتُ باتجاه نفس الحديقة العامة قُبالة مسكن ملا نور، جلستُ على نفس المصطبة التي جلستُ عليها يومذاك وعيني على الباب الأخضر والدائرة الحمراء في وسطه، البيت بدا كأنه بيت أشباح، الستائر مسدولة ولا أثر للسيارة السوبر صالون البيضاء الفارهة أمام الباب، فأسلمتُ نفسي إلى أحلام اليقظة كعادتي في الأيام الأخيرة: (تارا وفريدة في فراش النوم وكلاهما عاريتان، فجأة ينبري لهما ملا نور الدين من لا مكان ويضبطهما بالجرم المشهود ويطرحهما فورًا خارجًا إلى الشارع، تعودان إلى البيت وأنا لا أسمح لأمي بفتح الباب لتارا، وأصرخ في وجهها:

- شاذذذذ.

ومرة أخرى يعود ملا نور من عيادته الدعائية، فيراهما عاريتين في فراشٍ واحد، فيرمي بنفسه مع جلبابه الأخضر ما بينهما، ومن تحت الغطاء الوثير ترتفع أصواتهم وقهقهاتهم ولغطهم وعبارات الغزل والحب الحرام، أجفل وأفتح عيني وأمسح العرق المتصبِّب من على جبيني وأعود خائبًا محتارًا مثقلًا بأفكارٍ متشابكة لا حلَّ لها ولا عقد.

في لحظةٍ ما أُفكِّر في عملية إنقاذية للشرف جيمس بوندية: أدخل عليهما الباب وأفرغ في رأس كل واحدة منهما ثلاث رصاصات من مسدس أبي الباراشوت، الذي عرفتُ موضعه في اليوم الذي هدد فيه أختي مخيرًا بين الموت أو الزواج من الشيطان، وراقبته أين يواريه فقد كنتُ حينها فضوليًا جدًا لمعرفة مكانه، أخفاه في حفرة تحت فراشه ثم أعاد قطعتي البلاط إلى مكانهما فوق الحفرة، ثم سحب الحشية على المخبأ كما كانت، في اللحظة عادتْ صورة أمي وصوتها: "هو الذي ييسر وما لنا إلَّا الصبر، فالصبر مفتاح الفرج".

ومن ثمَّ هناك نور بصيص أمل، نور ضئيل لاح لي في شخصٍ افتقدته طويلًا في زمنٍ حرج ودقيق، وعلى منعطفٍ خطير في تاريخ حياتي، قد ينير هذا النور دربي وربما أجد فيه عزائي وأبُث عنده شكواي وألقى عنده سلواي رغم كل ما نشأ بيننا بسبب الظروف المعاكسة والنكسة، هو الوحيد الذي يفهمني لا أبي لا

أمي، ولا هادي، ولا معلّمي بإمكانهم إغاثتي في دوامتي العاصفة هذه.

وعدتُ إلى البيت أجرُّ أقدامي وراني، ولدى الباب ألفيتُ أمي تنتحب:

ـ اتبعني أبوك يحتضر.

وفعلًا كان أبي على فراش الموت، طرقتُ باب كاكه هادي وأوصلناه إلى أقرب مستشفى بسيارته، بقي أبي ثلاثة أيام في الإنعاش ـ العناية المركزة، كنتُ أتناوب السهر عليه مع أمي ثم أعدناه بعد أن تحسَّنتْ حالته، وطلب منِّي زيان حلاقة لحيته، فقلتُ له بكل أدب ولطف:

ـ سمعًا وطاعة أبي سأفعل ذلك متى ما أعود.

من تحت حاجبيه الكثين رماني بنظرة عتب وقنوط وحزن، كان منقبض القسمات كمَنْ أُصيب بيأسٍ وإحباط، سمعتُ لسان حاله يقول لي وأنا في الطريق إلى سوق المحلة؛ كي أستفسر عن مواعيد مغادرة السيارات إلى أرياف السليمانية:

ـ لم تلبِ لي آخر طلب في حياتي يا ابني العاق.

فعدتُ على وجه السرعة إلى البيت لأُنفذ ما طلبه منِّي أبي، ومن بعيد وعلى بعد صفين من بيتنا ترامتْ إليّ أصوات مستغيثة نسائية وصياح، انتابني هلع شديد فسألتُ أول مَنْ لقيته في الطريق عن مصدر الصياح والعويل، كنتُ أعرفه كان صديقًا لأبي، فأجاب بصوتٍ متهدج:

- إنه الحاج مصطفى المحترم، يقال أنه انتقل إلى جوار ربه .
الفاتحة.

رافعًا كلتا يديه إلى السماء، أما أنا فانطلقتُ أعدو في اتجاه البيت وطالما وصلتُ باب البيت رأيتُ أمي تلقي العباءة على رأسها وتقول لي بعجلٍ:
- الحمد لله وصلتَ في الوقت المناسب اهتم بأبيك، فحالته خطيرة سأعود بعد ربع ساعة.

وعادَتْ بعد ربع ساعة ومعها تارا، جاءتْ تارا في ثوبها الرمادي وهي ترتعش كالريشة وتلهث، أول ما وقع نظرها على أبي ألقتْ بنفسها عليه تحيط رقبته بذراعيها تقبّله على وجهه وتبكي على صدره، وهو يبكي ويضمها بيده المرتعشة إلى صدره ويتمتم بعباراتٍ مخنوقة:
- صغيرتي إن لم تغفرِ فلله الحق أن لا يغفر لي.

رغم حساسية الموقف المحزن والدرامي والجو المماتي الذي حلَّق فوق الغرفة - غرفة الاحتضار، كاد صوتي يشق حنجرتي وأصرخ في وجه أبي:
- إنها تستحق الرصاصة الآن لا في ذلك الزمن.

كان أبي مستلقيًا بلا حِراك على أرضيةِ الغرفة وتحته أنفسَ السجاد الأصفهاني، لم يحب يومًا أن يتخذه سريرًا لفراشه، أراد كهفًا متواضعًا على سيرة الأتقياء والأنبياء والصالحين.

وبصوتٍ متقطع العبارات قالتْ تارا بنبرة عالية ما يكفي كي يسمع أبي:

- لنأخذه إلى الطبيب.

رفع أبي يده النحيلة إليها وهو يتفوَّه بألفاظٍ لا تكاد تُسمع، دنونا منه على عجل وقرَّبنا آذاننا من فيِّه، كان يقول:

- لا ينفع بنتي أنا أعلم أنها نهايتي، رأيتُ النبي المصطفى الليلة البارحة الذي ناولني بيده الكريمة دفتر الحساب وبشرني: "ستلاقي ربكَ بقلبٍ سليم" تحقق حلمي، بنتي كان النبي المصطفى يشع نورًا وهاجًا عمى عيني، كان نورًا ربانيًا، جاء وسلَّمنِّي الأمانة ثم طار إلى جوار ربه، أي: حيثما أتى.

وأخذ ينتحب بحرارة، الدموع انحدرتْ على ذقنه فأخرجتْ تارا منديلًا من محفظتها وأخذتْ تمسح جبينه المتعرق به، وهي تتنهد وتجيل بناظريها بين أمي الواجمة وبين وجه أبي الفاقد للحياة، وفتح أبي فاهه وعاد إلى الحلم:

- روحي فداه سألتحق به عاجلًا، بنتي، بنتي التقية النقية الطاهرة اغفري لي.

مدتْ تارا يدها تمسح جبينه المتبلِّل وتطبع قُبلة على خديه برفق، ثم قرَّبتْ فاها من أذنه:

- أنا غفرتُ لكَ، وهل غفرتَ لي؟.

أبي وضع يده المهتزة فوق شعرها الأشعث الذي شع منه بعض الشيب ما أثار دهشتي وفزعي، وقال لها بشفتين مرتعشتين:

- لقد غفرتُ لكِ وسأستغفر لكِ ربي بنتي، وأدعو الله أن يحفظكِ ويدفع عنكِ البلاء ويسعدكِ.

اقشعر بدني لتعلُّق وتمسك أبي بالنبي، حتى صرتُ أتوق إلى رؤيته في المنام.

فجأة انقطع صوت أبي وانقطعتْ حركته، وارتفع صوت تارا فوق أبي:
- أبي أبي أريد أن تعيش، فأنتَ وأنا لم نعش معًا طويلًا، أبي.. لماذا آذيتَ نفسكَ وآذيتني بلا سبب؟ أصح أنا تارا، أنا تارا ابنتكَ كنتُ صغيرة عندما فارقتكَ لم أرَكَ طويلًا، كان عمري قصيرًا معكَ، أعدكَ ألَّا أُفارقكَ بعد اليوم، عهد.

رأيتُ عينا أمي ترسوان على لحية أبي، فالتفتتْ إليَّ التفاتة عرفتُ مغزاها، إنها تريد أن أحقق مطلبه الأخير منِّي، ذهبتُ إلى غرفتي وعدتُ بالمواد اللازمة، أزحتُ تارا بقوة وأمي برفق عن طريقي وأنا أمسك بيدي صينية صغيرة وضعتُ عليها الموس والفرشاة والصابون، قرَّبتُ راسي من أبي وقلتُ له:
- أبي كما وعدتكَ سأحلق لحيتكَ.

ضمنِّي إليه وقبَّلني وبلَّلتْ دموعه صدري يبكي، وقال لي بعباراتٍ متقطعة:
- لقمان ابني سأفارقكَ، ابني أنتَ ولي العهد، فعاهدني أن تراعي وتعتني بأمكَ وأختكَ، فنحن قصَّرنا بحقها فعدني أن تعوضها عمَّا تسبب لها من محنٍ وظلم وذلك رغمًا عنَّا جميعًا، فما حدث لها كان في حكم القضاء والقدر، لم يعاملها زوجها مع الأسف معاملة حسنة، فقد سمعنا عنه حكايات في الآونة الأخيرة لا تليق به،

اغفريِ لي بنتي إنه خدعنا بمظهره، وظهر لنا جوهره بعد فوات الأوان.

طمأنته تارا بالقول على الفور:

ـ إنه لم يقصِّر بحقي.

قلتُ بصوتٍ سمعته:

ـ كذب.

وكدتُ أن أفقد صوابي وأقول جهرًا:

ـ شاذذذذ.

لكن صوتي اختنق في حلقي، جلبتْ أمي بعض الماء المغلي ووضعتُه على الأرض، فانحنيتُ فوقه وبلَّلتُ رأس فرشاة الحلاقة به ثم مرغتَها في الصابون، وبدأت بالحلاقة ابتداءً من لحيته اليسرى القريبة منِّي، غمغم أبي يحملق في عيني بجمود:

ـ شكرًا ابني، فأنا أريد أن ألاقي سيد الكائنات بمنظرٍ لائق، هناك عند ربي في العلى وفي الذرى، عند الملكوت الأعلى.

وطالما انتهيتُ من حلْق الخدِّ الأيسر، أي: نصف لحيته، وبغتةً سحب أبي نفسًا ضئيلًا لكن طويلًا، مال برأسه بتراخٍ إلى جهة الشباك وثبتَ عينيه على عريشة عناقيد العنب الخضراء (الحصرم) ولفظ كلماته في مقاطع:

ـ حين تنضج هذه ستأخذها بيدكَ إلى أختكَ، تارا.

ولفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي، وعلا العويل من الجهتين وأنا أنظر في وجه أبي البارد الأصفر بنصف لحية، بكل هدوءٍ أزلتُ

الصابون من وجهه، ورفعتُ رأسي إلى أمي التي أشارتْ لي أن أكمل ووجدتني أمام أصعب مهمة في حياتي الماضية والآتية.. حلاقة ميت أو بالأحرى الخدِّ الميت، اللطمات والصراخ والعويل تصاعدتْ حدَّتها، بعد دقائق دبَّ الشارع بالحركة من كل حدبٍ وصوب، والناس يتساءلون فيما بينهم:

- هل مات الحاج مصطفى أفندي حقًّا؟

- نعم، ومات بنصف لحية.. يا لكَ من ابن عاق!.

• • • •

(٢٨)

انقضى أسبوعان على وفاة أبي وأنا على جمرٍ من النار أبحث عن الحقائق وخلفيات الأمور، فرغم كل ما سمعتُ من مختلف الناس ومن كا كه هادي والمعلّم ولي ومن آخرين كثر، لم أشك في أنه لا يزال هناك سرًّا دفينًا يختبئ وراء علاقة تارا بفريدة، والسؤال الأساسي الذي كان يشغل بالي كله كان:

- ما هي بالضبط طبيعة العلاقة بين تارا وفريدة خاصةً بعد زيارات فريدة المتكررة إليها وعزوفها عنّي بصورة قطعية، وكأنها لم تعرفني وكأنني لم أكن عشيقًا لها يومًا وهي لي عشيقة؟

وتساؤلات ثانوية من قبيل:

- هل هناك تجري في الخفاء أمور خافية علينا وربما على ملا نور نفسه؟ هل تزوجته فريدة طمعًا في ماله أو لربما اتخذها مادة للعب واللهو؟

في لحظةٍ ما شعرتُ برغبةٍ في الانتقام، قلتُ في نفسي وعيني على السقف الصلب:

- سأذيع الخبر على الناس، تحدٍ بتحدٍ، فليحصل ما يحصل.

ثم سرعان ما تراجعتُ عن الفكرة.. قد أحترق أنا بنارها أولًا، ثم انتقلتُ إلى خيارٍ آخر: سأقابل ملا نور الدين شخصيًا وفي حجرته الوعظية (ما يطلق عليها بعض المثقفين العيادة الروحية) وبعد أن آخذ منه عهدًا أن لا يكشف السر أُخبره بالحقيقة المخيفة، ولا أحد

يعلم بأنني أنا كنتُ مصدر الخبر، وأكشف له طبيعة علاقة تارا بفريدة معززًا ذلك بالصور والشواهد، وقع اختياري على هذا الرأي أخيرًا لِمَا رأيتُ فيه من فائدة للطرفين، ولو فرض أن ملا نور الدين لم يتأثر بالخبر المريع، فهذا يعني أنني أمام مشكلة حقيقية ومعقدة لا فِكاكِ منها عالقة مستعصيةٍ، أي: أنه يعلم بالأمر ويشجِّع العلاقة الشاذة فهو الشيطان بنفسه، وخاصةً بعد أن عَلِمَ الكل بفضيحة زينة حيث انتشرتْ الأخبار أنه أرغم صلاح إن شاء الله وتحت طائلة الديون المتراكمة عليه على طلاق زوجته والتزوج منها هو.. وحينها فلكل حادثٍ حديث، صرفتُ على أسناني:
- الويل لك ملا نور الدين.. أين تذهب من يدي؟.

نهضتُ من سريري مثقل الراس أسأل نفسي:
- كيف أبدأ؟ ومتى أبدأ الجولة الجديدة لمواجهة الفتاتين وصدهما عن غيهما؟

ومئات التساؤلات والاحتمالات والمضاعفات التي قد تنتج عن البوح بهذا السرِّ المريع الذي لا يقبله عقل مثقف واعٍ، فكيف بعقول الجهلاء وأشباه الجهلاء أن يستوعبوه؟ ربما يكون سببًا لحدوث حوادث مؤسفة وسفك دماء وأكون أنا السبب، توقفتُ في مكاني وأنا أضع أول خطوة خارج غرفتي تائهًا محتارًا، وعدتُ خائبًا إلى السرير، ففقدتُ الرغبة في الحركة مواسيًا نفسي:
- قد أكون الآن بأحسن حالٍ من كشف السرِّ.

هل أدعهما للقدر وللزمن؟ وهذا لا يتقبله لا عقلي ولا ضميري ولا عاطفتي إنهما حبيبتي وأختي، هتفتُ بصوتٍ سمعته أمي في المطبخ:

- لا لا لن أدع هذه القذارة تدوم.

ظلّلتُ لأيام بلياليها أُصارع الأفكار، أجلس مع أمي الحزينة الوحيدة التي اختارتْ بناءً على طلب تارا أن تنام في غرفتها، نتبادل الأحاديث، أمي تواسيني وتشد من أزري وأنا أُجاريها بالمثل.

ودامتْ دوامتي ومحنتي إلى ذلك اليوم الذي انتشرتْ فيه في الحارة نبأ مفاجئ مريع غيَّر مجرى تاريخ المحلة، وشكَّل نقطة تحوُّل وثورة في المكان، وكان ذلك صبيحة منتصف شهر مايس، والنبأ كان كما يلي:

(تمَّ العثور على جثة ملا نورالدين في مجاري المياه أمام بيته، وجثة زينة أمام باب البيت الملحق بمسجده في محلة السكك، كانت قرينته تارا هي التي عثرتْ على جثته ملقاة هناك).

ثم تواردتْ الأنباء ملقيَّة مزيدًا من الضوء حول ظروف وملابسات الحادثين وشخصية القاتل، جاءتنا أخبار متفرقة بعضها متناقض، أخيرًا اجتمعتْ الآراء على أن صلاح إن شاء الله هو القاتل انتقامًا لشرفه الذي هدره ملا نور الدين بعلاقته المشينة مع زوجته زينة.

وفي نفس اللحظة التي تأكد فيها نبأ مقتل ملا نور، هزتْ الحي صرخة أخرى، كانت صرخة وكالة الأغن، كانت تتحدث وتنادي من خلال مكبر الصوت وهي تقف على مدرج بابها الأسود:

ـ يا أهالي حينا الكرام هبوا إليّ كلكم جميعًا؛ لأُخبركم من الأنباء ما تقشعر له أبدانكم وتهتز لها ضمائركم، تعالوا وأنصتوا إلى اعترافاتٍ شقيَّة اسمها وكالة بهيجة العجوزة الشمطاء.

كانت أمي في تلك اللحظة تلقي عباءتها السوداء بتقطبٍ وتوتر على رأسها، ناوية التوجُّه إلى القصر؛ كي تستفسر عمَّا حدث، فأمسكتُ بيدها محذرًا إياها أن لا تلعب بالنار، وأن تنتظر وتسمع لنرَ أولًا.. ماذا يحدث هناك أمام الباب الأسود؟.

اجتمع الأهالي رجالًا على اليمين من العجائز والنساء على يسارها، وقد أدرك الأهالي أهمية وخطورة الأنباء التي بحوزة السيدة وكالة، والسبب أنها كانت تمسك بيدها مكبر الصوت الصغير بلونيه الأحمر والأبيض.

كانت وكالة تقف بقامتها القصيرة على ساقيها العرجاوين على منصة المدرج، تضع مؤخرة المكبر على فيِّها استعدادًا للكلام، وبين الفينة والفينة تسعل سعالًا خفيفًا للاختبار وللتأكد من صلاحية وسلامة الجهاز، ارتفعت همهمات بين الحشد تهتف:
ـ ماذا تريد أن تسمعنا هذه المرة أيتها العجوزة المكارة الثرثارة المفتنة الشريرة؟

لم تسمع شيئًا وواصلتْ اختبار الجهاز، ولم يلبث صوتها أن إنساب بوضوح من الفوُّهة الواسعة للجهاز، وبدأت خطبة وكالة خانم:
ـ أحبائي أعزائي السلام عليكم، أود أن أبوح لكم اليوم بمكنونات صدري الدفينة منذ عقودٍ خلتْ، أروي لكم حياتي وحياة المفقود المرحوم ملا نور الدين؛ لأنني أعرفه أكثر من أي واحدٍ منكم.

ارتفعتْ الهمهمات يمينًا ويسارًا، نفختْ العجوز في الجهاز وسعلتْ ثم واصلتْ:

- أحبائي لا أريد أن أدفن سري في قبري؛ لأن في ذلك عذاب وألم، وأنا لم يبقَ لي من العمر شيء وأنتم أناس طيبون.

أرادتْ أمي أن تنصرف فأشرتُ إليها أن تمكث، كانت نظراتها تنم عن غضبٍ وكره.

ارتفع صوت العجوز:

- صدقوني وأحلف والله أني ضحية، أرجوكم اسمعوا كلامي أعطوني فرصة؛ كي أقول لكم الحقيقة كل الحقيقة، إن ما حدث اليوم هو ناتج لسلسلة أحداث ومشاكل حدثتْ أخيرًا بين القاتل والمقتول، كان صلاح غارقًا في الديون لملا نور، فالتجأتْ زوجته زينة إليّ تطلب منّي أن أتوسط بينها وبين المرحوم لهذا الغرض وخاصةً أنه ساعد الكثيرين في مثل هذه الأمور من قبل وبلا مقابل، صدقوني أني حاولتُ لها أولًا عند حاجي حيدر أغنى الأغنياء وأتقى الأتقياء لكنه رفض قطعًا، فقدَّم لها المرحوم وبلا منة ما طلبتْ، ووعدتْ هي أن تسدد الدين على أقساط، لكن المرحوم لم يقبل وترجى منها أن تقبلها كهدية متواضعة، وسارتْ الأمور على خير ما يرام لكن بمرور الزمن تبيَّن لي أنها تلح في الطلب وظهر لي أنها حتى تزوره سرًّا في الصالة الملحقة بالجامع، ولولا ثقة غالبية الناس فيه وبخاصة سكان حيه الشعبي لدقوا لها الطبول، لكن مكانته الدينية والدنيوية الرفيعة حالتْ دون تشوُّه اسمهما وسمعتهما، ولم تكن هي الوحيدة التي زارته هناك فكلكم تعرفون أنه خصص هذا الملحق لخدمة المحتاجين والأيتام والأرامل

والفقراء، وهكذا بمرور الزمن تطورتْ الأمور رويدًا رويدًا إلى أن خرجتْ عن طورها، فأحس زوجها بها وحدث ما حدث.

التفتُ إلى الجهة التي وقفتْ أمي فيها بين نساء الحي تنظر في تحسُّر وهمٍّ، ولسان حالها يقول:
- يا بؤس ابنتي، ويا فظاعة جريمتكَ يا مصطفى! كل هذه الفضائح وتارا لا تعرف شيئًا.

أعدتُ عيني إلى جهاز المكبر للعجوز:
- يقال أن هناك علاقة قوية بيني وبين المرحوم، وأقول: وهو كذلك والسبب هو أننا من قرية واحدة وهناك تعارفنا وتزاوجنا.

قطعتْ حديثها بعد أن ارتفعتْ الأصوات من جهة الرجال تسائل في دهش:
- زواج.. أكنتِ زوجة ملا نور الدين؟.
- مضى زمن طويل على ذلك.

نفختْ في المايكريفون، أخذتْ نفسًا وهي تجيل بعينيها الحمراوين في الوجوه المنصتة بشغفٍ وواصلتْ:
- نعم، كنتُ يومًا زوجة لملا نور الدين، وكان اسمي بهيجة، بهيجة خانم.. بهيجة ابنة خالد.

ارتفعتْ الأصوات تتساءل:
- وعبقدر.. ألم يكن يدعى عبقدر؟.

أجابتْ:
- هذا الاسم من اختراعكم، فلم يكن لي زوج بهذا الاسم قط.

وفجأة سقط الجهاز من يدها الهزيلتين واهتزتْ ساقاها النحيفتان، فقام أحد الرجال عَرِفتَه كان اسمه "شمس الأعمى الكنَّاس" كانت العجوز تضع في يده بين الحين والآخر بعض النقد مقابل الإفراط في تنظيف المجاري على طرفي شارعنا، سمعتُها يومًا تقول له:
- نظفها جيدًا؛ لأنها سرعان ما تمتلئ بالأوراق البالية.

التقط الجهاز وأقعدها على الدكة أمام الباب الأسود، رفعتْ العجوز يدها تهيب بالناس بالاقتراب، فأخذتْ تتحدث إليهم وجهًا لوجه، تبيَّنتُ بين الحضور وجه رمزية خانم أم سلمان التي كانت تقف وراء الجمع بوجهٍ متجهم، وزوجة إبراهيم القصَّاب وابنته الأرملة حسيبة التي كان ملا نور يحدِّثها أثناء عملية التنظيف اليومي، وصفية تمسك بيد أمها، وأمي التي كانت تقف في هذه اللحظة بين أم صفية وأم ماجدة المسيحية الخيَّاطة والتي كانت أمي تولي إليها كامل الثقة، وراعني وجود زوجة المحترم ولي وابنته عاشرة التي كانت تضم أختها الطفلة إلى صدرها، وكان وجهها يشع بين الوجوه ويلمع كالنور.

ومن الرجال وكانوا أقل حضورًا، تبيَّنتُ وجه إبراهيم القصَّاب، ويونس الكبابجي، ولطفي أبو صمود الذي كان يمسك بيد أم صمود وورائهما كان صمود وقد حلق شعره بعد أن استدعي لخدمة العلم، وفوجئتُ بوجود صاحب المحل الذي كان يحدق إلى العجوز بناظريه بشيءٍ من الرأفة والإشفاق كما دلتْ تقاسيم وجهه على ذلك، وفوجئتُ كذلك بوجود الشاعر الشعبي المعروف في المنطقة (حسونة) الذي قال عنه: "إن قوة جاذبيته تليِّن حتى قلوب الأسُود

وتذلّل حتى الوحوش الضارية" ومدحه بقصيدة طويلة طمعًا في نواله، رأيتُه يقف صامتًا حزينًا في زاوية منعزلة تحت حائط، ويتفوّه مع نفسه بكلماتٍ غير مفهومة، من حركات فمه وتقاسيم وجهه استطعتُ أن أُحدس أنه كان يندب حظه العاثر بعد فضائح سيده:

- ضاعتَ جهودكَ يا حسونة.

لم أجد بين الوجوه المعلِّم ولي، ولا كاكه هادي، ولا حزقيل حنا، ولا عيسى أبو عبد الأحد، ولم أستطع رؤية الوجوه جميعًا، فقد كان من عادتي أن أقف وراء الصفوف لطول قامتي، ولأسبابٍ أخرى منها أنني كنتُ دائمًا في نزاعٍ أن أرى ولا أرى تشبهًا بسوبر مان السماء.

ساد صمت مطبق بعد أن ارتفع صوت الشمطاء صوتها الحقيقي والعيون تحدق بها من كل جانب، وهي متكومة على الدكة ككتلة من اللُّباد المضغوط، أرهف الناس السمع إلى صوتها الأغن، نظَّفتْ حنجرتها وسعلتْ مرتين بقوة، ضاقتْ الحلقة حولها؛ لتسمع عن قرب، واصلتْ وكالة تنظر إلى لا شيء:

- أود بالمناسبة أن أُلقي بعض الضوء على سيرة وحياة المرحوم المقتول ملا نورالدين وخلفيته، اعلموا أنني أعلم به؛ لأنني كما قلتُ أرملته، كنتُ زوجته في القرية التي نشأنا فيها وترعرعنا معًا فيها، كان راعيًا فقيرًا يتيمًا يقود قطعانه إلى البراري، وأنا كنتُ امرأة غنية ومن أشراف عشيرتي، نعمل أنا وأسرتي في تجارة المواشي ومنتجاتها والأصواف والأقمشة، رأيتُ فيه شهامة ورجاحة عقل

رغم صغره فشغَّلتَه معي في التجارة، رويدًا رويدًا ربحتْ تجارتنا واستطاع هو أن يجمع ثروة لا بأس بها فتزوجني بعد حبٍّ، نعم أنا أحببته وأردته بالرغم من أنني أكبره بعشرين عامًا، كان يمتاز بقسطٍ وافر من الحُسن والوسامة والخُلق الرفيع، وكان منذ البداية ذا أفكار خيالية فينعزل عن الناس، وادعى يومًا أنه نبي جاء بمبادئ جديدة للإنسانية وأنه من نسل الأنبياء، وكتب اسم (أحمد) الجد فوق الهرم، يعني بذلك: رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وكتب في القعر اسم (نورالدين) الحفيد وعلَّقه في جدار البيت، وطلب منِّي الدعاية له وحث الناس على اتباع مذهبه الجديد، وطلب منِّي أن أكون أول مَنْ يصدِّق ويعترف برسالته لِمَا في ذلك من دعاية وترويج لمبادئه، وذلك لشرف عائلتي ومركزها السياسي ونفوذها الاجتماعي والتجاري في المنطقة كلها، توسل إليّ وكنتُ أحبه ففعلتُ؛ لأنني وجدتُ في دعوته ازدهارًا وانتعاشًا لتجارتي ورواجها، لكنه بعد أن استوى به الحال ونال المجد والثروة طلقني بدون رحمة، نعم أول إنجازٍ له هو طلاقي وطلقني بقسوة، طلقني بعد أن كسدتْ تجارتي وأخذ ثروتي كلها، وأقسم لي أنه لن يرضى إلَّا بالزواج من أربعة هذا عدا الإماء غير الشرعيات، حاولتُ فضحه فلم تفد محاولاتي؛ لأن اسمه كان قد ذاع بين العشائر وفي كل الأرجاء، وكانت سمعتّه أقوى من أن تخدشها امرأة ضعيفة مثلي أو تمسها بسوء، وبدأتْ رسالته ومهمته في خداع وتضليل عامة الناس، ومهما حاول لم يتبعه سوى الضعفاء والغلابى، فاستغلهم بكلامٍ جميل ونثرٍ ساحر لا هو بشعر ولا هو بنثر، أدهشهم وسحرهم بهذه الأقوال الجديدة على أسماعهم وما فيها من وعود

باللّذات والمتع بعد الموت والتضحية والفداء في سبيل نشر أفكاره ولكن لم تكن مهمته سهلة، فهناك ضايقه قومه وعشيرته ونعتوه بمجنونٍ وساحر، فاضطر إلى الفرار من هناك سرًّا منتقلًا إلى هنا، وقبل أن يهاجر زرته في بيته واسترحمته:
- لا أهل لي ولا مال وقد نال منّي الكبر، أتوسل إليكَ أن لا تتركني وحيدة.

وقد كان يتصدق عليّ بين الحين والآخر، يتصدق عليّ بمالي:
- فتصوروا يا ناس، ترأف بعد طول رجاء ولان قلبه وخاصةً أني كنتُ ثكلى للتو بابنينا الصغيرين اللذين لم يكُن لهما أي حبٍّ رغم كونهما من أجمل خلق الله، يا ربي طفلان من أجمل ما خلق الخالق وأوفرهم صحة وعافية، مات الواحد بعد الآخر في ظروفٍ غامضة وفجائية وكأن وحشًا ما جاء في الليل وخنقهما، فقد رأيتُ آثارًا بنفسجية وزرقاء وحمراء على عنقيهما الناعمين الناصعين.. يا حسرة أمكما!.

سكتتْ خنقتها العبرات والحسرات وذرفتْ دموعًا سخيَّةً وأخذتْ تبكي وتنوح وتضرب فخذيها بيدها المتخشبتين، فيصدران أصواتًا أشبه بالنقر على الخشب الصلب.

عاودتْ بعد أن تغلّبتْ على عاطفتها الجيّاشة، تتكلّف ابتسامة كالحة إلى التكشيرة أقرب:
- وسمح لي بالهجرة معه، وهنا اشترى لي هذه الدار ودفع هو القسم الأعظم من ثمنها والباقي أتممته أنا بما تبقى لي من ذهبي، ولكوني غريبة على حياة المدن والمعاملات الرسمية، أخذني يومًا إلى دائرة

حكومية وطلب منّي التوقيع على ورقة لم أعرف.. ماذا كتب عليها؟ أما هو فذهب يسكن لوحده في قصره الذي اشتراه بمالي وذهبي عازبًا واعظًا يتصدق على الأيتام والأرامل، ويشتري الفقراء بالهبات التي أغدقها عليهم؛ كي يستطيع كسب عدد أكثر من زوار مسجده على حساب زوار الجامع ذي المئذنتين وزوار النادي، كان ينافسهما ويغيِّر عليهما، ازداد مريديه بمرور الزمن فأولى الناس ثقتهم فيه كما رأيتم فذاع اسمه في كل مكان، فصار الناس يتكلّمون عنه بأنه ولي آخر الزمان حتى ذهب بعضهم لو كان مجيء نبي جديد ممكنًا لاختاره الله نبيًا على البشر، أعلن هنا أنه يريد إبلاغ رسالته في الإنسانية، فإنه يريد مجتمعًا أفضل من مجتمعنا يخلو من الفساد والظلم والاستغلال من قِبل المنافقين كعيسى وحزقيل، وصار له مريدين بمرور الزمن من ضمن هؤلاء المريدين صلاح أخو جارتنا العزيزة ـ لم تقل جارنا بسبب العلاقة الرديئة بينها وبين هادي ـ الذي استغله في تعاسته، فصار يحلف برأسه وأحد أقرب المقربين إليه، كان يقبّل يده وينحني أمامه، أما السيِّد الإمام نور الدين فكان مفتونًا بجمال زينة ويومًا ما جاء إليّ يطلب المساعدة.. التوسط بينه وبين زينة، فرفضتُ الطلب فورًا.

ارتفعتْ الهمهمات من الطرفين ودام اللّغط وعبارات السخط والويل والثبور لرجل الدين المقتول، تبادلنا أنا وأمي النظرات المريبة، وكنتُ طوال الوقت أستحضر أمامي الأحداث السابقة في تلك الليلة المظلمة أمام باب دارها: هي وملا نورالدين وامرأة أخرى لم أستطع التعرف على وجهها، لابد أن تكون زينة إذًا.

عادتْ تتحدث بصوتٍ مبحوح، فتبرع شمس الدين الكنَّاس الأعور، فالتقط المكبر ووضع فوّهته أمام وجه العجوز التي شكرَته وسعلتْ فيه أولًا للاختبار، ثم استأنفتْ الخطاب بدءًا من النقطة التي توقفتْ عندها:

- يبدو أنها اعتادتْ أن تستدين منه واستغل تعاستها، وعَلِمَ زوجها بذلك فقتلها غسلًا للعار وتعلمون البقية، ولا أعلم أكثر من هذا، وليستْ هذه الفضيحة الوحيدة لملا تور، وليستْ زينة الضحية الوحيدة له.

قطعتْ كلامها وجالتْ ببصرها الأرجاء، ثم عادتْ إلى الكلام وهذه المرة بالسؤال:

- هل أم صفية بين الحضور فإني لا أراها؛ لأنني لا أرى جيدًا؟

تقدّمتْ أم صفية إليها بقامتها الفارعة وأناقتها وشخصيتها اللامعة المحبوبة بين أهل الحارة وخاصةً شارعنا (شارع الجميلات) فارتقتْ المنصة ومالتْ إليها برأسها وتهامستا فيما بينهما بكلماتٍ قليلة، هزتْ المرأة رأسها بعدها بالإيجاب وعادتْ إلى مكانها بين أمي وأم ماجدة، فقرّبتْ العجوز رأسها من الجهاز وارتفع صوتها:

- صفية بنت حزقيل هي الأخرى ضحية من ضحاياه.

قالتْ هذا وهي تصرف على أسنانها الهشة، وانصبّتْ العيون على صفية التي احمر وجهها فصار بلون الدم، كان التوتر باديًا على وجهها والخجل شلّ حركتها، خفضتْ رأسها أولًا ثم استأذنتْ من أمها وعادتْ إلى البيت لا تلتفتُ إلى أحد.

علا الصخب وصرخات الاحتجاج والثبور، عادتْ صورة تلك الليلة المظلمة إلى ذاكرتي: صفية ووكالة في حركة مكوكية بين مسكنيهما، وعادني صدى صوت كاكه هادي: "هؤلاء يريدون تشوّيه سمعة الشخص أولًا؛ ليبرروا دافعهم السياسي من ذلك وهو إقصائه من البنك والاستيلاء على إيداعاته وممتلكاته" وصوت وكالة وهي تقول لصفية الباكية في اليوم التالي من اعتقاله: "بسيطة بسيطة سأوصل الخبر إلى ملا نور وسأبلغه بالأمر الفظيع، وهو إنسان طيب كما تعرفوه ولا يرفض لي التماس، هو الوحيد القادر على إخراجه من السجن".

بغتةً ارتفعتْ أصوات من جهة الرجال، تقول:

- إن لم تكونِ شريرة.. فلماذا وقفتِ معه وقدمتِ له كل هذه الخدمات؟.

وارتفعتْ أصوات أخرى تجيب:

- إنه الطمع.. الطمع، إنها امرأة مرابية طماعة لا دين لها سوى المال.

هزتْ رأسها بالنفي ونظرتْ إلى مصدر الصوت، ثم جالتْ النظر في الجمع الذي عاد إليه الهدوء في انتظار الرد والدفاع من جانبها،

وجاء صوتها المدافع على الفور:

- كنتُ مرغمة، لقد سلبني كل شيء، أدركتُ بعد فوات الأوان أن الورقة التي وضعتُ توقيعي عليها إنما كانت اعترافًا منّي بتنازلي عن حصتي في الدار السكنية هذه التي أسكن فيها - أشارتْ بإبهامها إلى الوراء - فلو لم أطعه ولم أُنفذ طلباته لرماني خارجًا على

الشارع، هذا عدا عن تهديداته لي بأنه سيكلّف أحدًا بقتلي أو زجي في السجن إن لم أُنفذ أوامره، وهناك الكثير من الأمور الأخرى التي استعملها وبدون رحمة في سبيل إجباري ودفعي إلى هذه الأعمال المشينة التي أخجل وأستحي بسببها من البقاء بينكم وسألوذ بالفرار، إنه لعار عليّ أن أرفع رأسي من اليوم أمامكم.. عار، أنا عار، أنا خزي.. يا ويلي ذهب ديني وخسرتُ ديني ودنياي بسبب هذا المحتال والأفاك.

أجهشتْ في البكاء، فارتفعتْ الهمهمات والغمغمات ووجمتْ الوجوه وتشاورتْ النساء والرجال فيما بينهم في حالة من الفوضى والاضطراب، أصوات نادتْ بأنها مذنبة وأصوات صاحتْ بأنها بريئة مجبرة، بعدها عاد السكون تدريجيًا إلى الشارع.

لكن وفجأة علا اللّغط مرة أخرى إلى الشارع، الوجوه استدارتْ تتساءل فيما بينها، وكل العيون تركزتْ على منظرٍ مهيب فغرتْ الأفوّاه له، وخرستْ الألسن بهيبته.

• • • •

(٢٩)

الرجال الذين خرجوا من بيت كاكه هادي كانوا ستة في العدد، الرجال ذوي الشأن والنفوذ في شارع الجميلات وفي حينا الذي سماه بعض العلماء بـــ (حي الأنبياء) مجازًا، العيون انصبَّتْ على الأشخاص الستة وكانوا بالتسلسل: كاكه هادي غاندي، ملا عبدالحكيم عبد الكريم، المعلّم ولي مازدا، السيد حزقيل بن حنا، السيد عيسى بن عمانوئيل، ومدير النادي المعروف بـ (الساقي) سمعتُ شيخًا مسنًا يبتسم بفرحٍ غامر، ويقول لصاحبه:

- ها هم الأحزاب والمعارضة يبدو أنهم حلوا جميع خلافاتهم واتفقوا على عملٍ مشترك لخدمة حينا العزيز.

لم أتمكن تمامًا من تمييز الطرفين، لكنني عرفتُ أنهم يمثلون شريحة واسعة من المجتمع.

انبرى من بينهم كاكه هادي أولًا، وسار إلى أمام المنصة (المدرج) وانتقلتْ معه العيون، كنتُ في تلك اللحظة أقف بمحاذات أمي في صفٍ واحد مع أم صفية وأم ماجدة وأم سلمان.

رفع رأسه إلى العجوز التي ظلتْ تتابع خطواتهم بدهشة وفزع، لكنها واجهتْ كاكه هادي بابتسامة متكلّفة باهتة وبفمٍ مغلق، والذي بادرها على الفور بالسؤال:

- وكالة هانم.. سلام عليكِ، هلّا تحدثتِ لنا عن القصاصات والورق الممزق الذي كان سيدكِ يلتقطه من مياه المجاري والنفايات؟ فأنا لم

أصدق ما قيل بشأن ذلك ومن البداية، أعني: ما قيل بلسانه وبلسان مريديه.

جفلتْ العجوز لظهور هذا المارد ومثوله أمامها، هذا العمود الشاهق، مرتْ ثوانٍ قبل أن تسترد أنفاسها، قرَّبَ الكنَّاس الأعور فتحة المايكريفون منها، فأحنتْ رأسها وتنحنحتْ وأجابتْ بكل احترامٍ وتبجيل:

- سيدي أستاذي ومعلّمي كاكه هادي أزهو وأفتخر بحضوركَ ويسعدني جدًا أن أخدمكَ، ودعني أشرح لكَ حقيقة القصاصات وأشلاء الجرائد والمجلات هذه.

قاطعتْ الخطابَ لحظة ترطب شفتيها كقشر البصل:

- القصاصات والأوراق الممزقة وقطع الجرائد البالية، كانت لغاية تختلف تمامًا عمَّا كان يدعيه إنسان بوجهين ولسانين، ولا يخفى على أهل المحلة وخاصةً سكان شارعنا الجميل شارع الجميلات أنه كان يلتقط هذه النفايات الورقية من أمام بيوت الجميلات فقط و...

قاطعتْها أصوات هادرة تلعن ملا نورالدين، فرفع كاكه هادي يده يطلب السكوت بأدبٍ جمٍّ وابتسامة مشرقة، ثم أومأ للعجوز يقول:

- تفضلي وكالة أكملي.

وواصلتْ شاكرة إياه:

- ربما لاحظ الأعزاء أولياء الأمور بأعينهم أن هذه القطع المقطوعة من الصحف القديمة، لم تكن موجودة أمام كل بيت بل كانت موجودة أمام بيوت الجميلات فقط.

عادتْ الأصوات تطالب بالتفسير:

- وكيف أن هذه النفايات وقعتْ فقط أمام بيوت الجميلات دون القبيحات؟

سحبتْ نفسًا طويلًا، ثم قرَّبتْ فاها من المكبر:

- حسنًا ذكرتموني بهذه النقطة الهامة، إنها فرصةٍ لي كي أُثبتَ لكم أني هنا أقف أمامكم كي أُثبت لكم صدقي وحسن نيتي، ولو لم أكن صادقة لأخفيتُ الأسرار إلى يوم يقبض الله روحي، فلستُ مجبرة ولم يجبرني أحد، وأعترف بمحض إرادتي دون ضغطٍ أو تهديد، فاسمعوا سيداتي سادتي أقولها دفعةً واحدة.. أنا التي كنتُ أُساعده في...

قاطعتْها الأصوات من كل طرف:

- كيف؟

- هاكم القصة إذًا.

عادتْ وكالة تقول:

- كان يأتي في الليل إلى بيتي ويضع في يدي كيسًا معتمًا من النايلون منتفخًا بما حشرتْ فيه من أوراقٍ، وكان يتعمد اختيارالليالي الحالكة، ويأمرني برميها أمام البيوت التي هو يعيِّنها لي وأنا أقوم بالمهمة صاغرة، وإن لم يجد ورقًا جافًا كان يأتيني بنفس الكيس الذي عبأه نهارًا؛ كي أقوم بإعادة محتواه إلى المجاري نفسها ليلًا؛ ليتخذ من ذلك ستارًا ينظر من ورائه إلى أعراض الناس.

هدرتْ أصوات كالرعد:

- يا للنذالة.. يا للسفاهة.. يا للفظاعة.. يا له من إبليسٍ مارق.. ويا لكِ من عجوزٍ داهية!

تهاتفتْ أصوات أخرى تقول:

- لو كان حيًّا لشنقناه على أعمدة الشارع.

أما أنا فتذكرتُ تلك الليالي الظلماء حينما كانت العجوز تقف بالباب ومعها ملا نور وامرأة لم أتبيَّن وجهها قد تكون زينة.

وتباحث الحشد الأمر فيما بينهم وتشاوروا للحظات، والكل يبدي استنكاره ودهشته للرواية الغريبة، وعندما عادتْ العيون إليها وجدوها تنتحب، ناولها شمس الأعور الكنَّاس منديلًا ورقيًا تناولته، ثم ألقتْ نظرة تفحصية عليه فأعادته إلى شمس في الحال، وهي تغمغم:

- شكرًا.. شكرًا شمس.

ومسحتْ دموعها القليلة بطرف سبابتها، ثم انبعث صوتها من جديد من فوَّهة الجهاز:

- أردتُ أن أفشي سرَّه في حينه وأخاطر بحياتي، لكن مَنْ كان سيصدقني بعد أن نال كل الحظوة وارتفعتْ شعبيته عند العامة والخاصة، كونوا واقعيين.. فماذا كنتم ستقولون؟ ومن ثَمَّ.. مَنْ كان سيصدقني؟ أحلف أنكم كنتم ستقولون بعضكم لبعض: "إنها مجرد عجوزة ثرثارة لا تعي.. ماذا تقول؟" ليس إلَّا.. وقد جربتُ وأدليتُ بعض المعلومات لبعض جاراتي، فقلنَّ شفاكِ الله من داء الحسد.. تتوه!.

عاد إليّ مشهد تلك الليلة بعد منتصف ليلٍ بلا نجوم ولا قمر، خرجتْ العجوز تحمل بيدها شيءٍ معتم وتمشي بمحاذاة المجاري، وصلتني فرفرفة وصوت احتكاك شيء بملابسها السوداء أشبه بكيس من النايلون.

تبادل الناس النظرات المريعة، وعلتْ علامات الاستفهام كل الوجوه، وأخذ الآباء والأمهات يتساءلون فيما بينهم، ويفكِّرون فيما لو كانت هناك قصاصات مرمية في مياه الغسيل الجارية أمام منازلهم.

فجأة أحسستُ بيد أمي على كتفي، أمي في عباءتها السوداء التفتُ إليها فرأيتُ وجهها متقعًا إلى حد الاحتقان، شكتْ لي أنها أُصيبتْ بدوار لهول ما سمعتْ من أحداث لا يصدقها عقل راشد، بغتةً بدأتْ شفتا أمي ترفرفان وهي تردد مع نفسها كالمخبولة:
- حتى صفية لم تنجُ منه وحتى عاشرة الطفلة لم تسلم منه، يا للويل.. يا لتعاسة طفلتنا! إنه نكَّل بها، رماها أبوكَ المتدين العاقل بين فكي قرش، زوج ابنتي.. دجال، مفتري، قاسي ظالم، عديم الخُلق والمروءة، مراهق أهوج، الله لا يجيركَ يا مصطفى.

رفعتْ عيناها إلى السماء تتمتم بعباراتٍ مبهمة، وجاءنا بعد قليل نبأ مفاده:
(أنه أُغلق مسجد ملا نورالدين والدور والأجنحة العائدة له، وأنه كُتِبَ على الباب.. وهكذا ينتهي عهدٌ من سفك الدماء والفساد والدجل والشعوذة).

ومنذ ذلك اليوم اختلفتْ الأنباء وتباينتْ التفاسير حول مقتل ملا نورالدين؛ لأنه لم يرَ جثته أحد سوى امرأته الشابة الغائبة عن الأنظار، فهناك مَنْ قال: إنه ذبح بسيفٍ، ومنهم مَنْ قال: لا إنه قُتِلَ بخنجرٍ، وبعضهم قال: لا إنه قُتِلَ بالسم.

وأخيرًا جاء خبر مفاده:

(أن أرملته هي الوحيدة التي تعرف مكان ضريحه، لكنها لا تخبر أحدًا بالموقع خشيَّة أن يتحول قبره إلى مزار يؤمه المغفلون).

● ● ● ●

(٣٠)

سارتْ سيارة التاكسي على طريقٍ ملتوٍ، كان الشارع المعبَّد الضيق يسع بالكاد لسيارتين، كنتُ جالسًا في المِقعد الخلفي مع رجلين في الملابس القروية، كانت رائحة العرق ودخان السجائر تملأ الفسحة الضيقة، فتحتُ النافذة العتيقة للسيارة العتيقة فتدفقتْ هبَّة هواء أعادتْ إليَّ شيئًا من الانتعاش.

النسمة كانت قوية بحيث أطارتْ كوفية الرجل الجالس عن يساري الذي سارع ووضع يده فوق رأسه في آخر لحظة، وهو يسترق نظرات معاتبة منِّي اضطرتني إلى غلقها ثانيةً، أغمضتُ عيني ثم فتحتُهما التلال ترشق أمامي بسرعة، أغمضتُهما حالمًا بدجاجتي الشقراء.. أين هي الآن؟ وماذا تفعل الآن؟ لا أدري.. ما سر تذكُّر الأحباب واسترجاع الذكريات في الأسفار؟.

وجه سلمان حضر أمامي بشاربه الكثّ وعينيه وصوته الرخيم الهادئ، وإصراره على إعادة أشعار الشاعر (أدب) الإباحية في جولاتنا في الشارع العريض، جولات هيكل وجيكل ومغامراتهما الغرامية، اختفى وجه سلمان؛ ليحلَّ محله وجه تارا الشاحب.

كان الدخان يحجب الرؤية، فسحبتُ الزجاج إلى أسفل عازمًا العقد على أنني سوف أخير الرجل بين التوقُّف عن التدخين أو السماح بدخول الهواء، كان غارقًا في حديثٍ حول تجارة الحبوب والحاصدات مع صاحبه الذي كان يحتل الطرف الآخر من السيارة، لاح لي من خلال الزجاج الأمامي من بعيد منظر جبلٍ واطئ،

شعرتُ بانتعاشٍ واضح وأنا أستنشق نسمة الهواء النقي الساحر، ولولا رقبة السائق البدين لسهَّل عليّ مشاهدة قسمٍ أكبر من الجبل، وتعجبتُ لبدانة السواق، أغمضتُ عيني فظهر طيف من العدم، شيء معتم ثم تمثَّل هذا الشيء في لحية أبي التي لم تفارق ذهني منذ يوم وفاته، وضعتُ نصفه بعد إزالة الصابون في قارورة حمراء، أي: النصف الحياتي، ونصفه الآخر في قارورة صفراء، أي: النصف اللاحياتي المماتي.

الدين سلاح ذو حدين مَنْ يعيش به كملا نور ومَنْ يموت به كأبي، إنه سمٌّ ممزوج بعسل، والكيِّس مَنْ يميِّز بينهما ويستخرج العسل من نفس الإناء، وأخيرًا ماتا جرَّاء استعمالهما الخاطئ للدين، هذا اتخذه ستارًا للحرية المطلقة والعربدة، وهذا سجنًا وقيدًا وغلًا يشل حركته ويحصره في زاوية لا يرى فيها إلَّا نفسه، ولقيا نفس المصير.

وبينما كانت السيارة العتيقة تتلوى وتسير فوق شارعٍ رديء يمتد عبر أراضٍ متعرجة وكثبانٍ وسهول تتقاسم فيها الخضرة والصفرة ألوان الطبيعة الزاهية، قفزتْ إلى ذهني صور أختي وفريدة، إنهما لوحدهما وقد خلا لهما الجو، فمَنْ أُصدِّق هي أم الشواهد البيِّنات أم فريدة التي هجرتني وأهملتني منذ بدء زياراتها لها في بيت ملا نورالدين والقُحبلة والرسائل والصور والعناق والضم؟ لا أنا لا أحلم هذه هي الحقيقة الكارثية، تتمثل في كلمتين: "إنهما صديقتان شاذتان وتنامان في فراشٍ واحد".

في تلك الأثناء، بدأتْ السيارة تسير على طريقٍ وعر بحيث وردتْ مسمعي أصوات تكسُّر وتطاير أحجار من تحتنا، من بعيد لاحتْ

تباشير الجبال الزرقاء الواطئة ووراءها وفي صفين متقابلين سلسلة الجبال العالية وخطوطها وأخاديدها العميقة بطول وعرض الجرم الهائل الطويل، والتي بانتْ من بعيد كخطوطٍ متوازية عميقة تتخلَّلها أخاديد وشقوق أفقية، كانت الشمس ترتفع في ضحى ذلك اليوم وبسرعة عجيبة لم أجد لها تفسيرًا، وأضحى الطريق الطويل قصيرًا في نظري، أتذكر أول مرة زرتُ فيها مدينة السليمانية مع أبي في زيارة أحد الأقارب وكان ذلك قبل خمس سنوات، أن الطريق امتد إلى ما لا نهاية، سألتُ السائق البدين الذي بدا لي نائمًا:

ـ كم بقي من الوقت للوصول؟

رفع رأسه الضخم، وأجاب مخاطبًا إياي في المرآة المعلَّقة أمامه:

ـ إن لم يحدث أي ثقبٍ في الأُطر سنصل بعد نصف ساعة من الآن.

الطريق إليها ساعتان إذًا فقد مرتْ ساعة ونصف دون أن أشعر بها، تذكرتُ أنني في البداية غفوتُ بل الأحرى اختنقتُ بسبب الدخان، وأفقتُ بعد نصف ساعة بسبب حركات السيارة العنيفة المهتزة يمنةً ويسرةً فوق الحجارة الصغيرة والحُفر المنتشرة، وتذكرتُ شيئًا آخر فبادرتُ السائق وأنا أرفع صوتي؛ كي يُسمع وسط صياح الفلاحين:

ـ هل يؤدي هذا الطريق إلى السليمانية حقًّا؟ إنه لم يكن بهذه الوعورة من قبل.

ضحك السائق باقتضابٍ وضحك جاري المدخنة بصوتٍ أشبه بصوت قطة خرجتْ من الفرن، ثم قال بصوته الأجش:

ـ نحن خرجنا عن الخط العام بعد نصف ساعة من خروجنا من المدينة.

تأكد لي أني كنتُ نائمًا حينذاك، وفجأة أحسستُ بخدرٍ في أطرافي وانتابني نُعاس شديد وشعرتُ بدوخان وغثيان، الطريق إلى الجبل جميل لكنه لمَنْ لم يعتاد عليه صعب، ولم تدم معاناتي طويلًا إذ فقدتُ الشعور بما حولي في سُباتٍ طويل عميق لذيذ، وغفوتُ هذه المرة على صوت ويد السائق الذي قال لي بكل رفق وهو يمد يده لمساعدتي في الخروج:

- ها قد وصلنا سيدي.

فتحتُ عيني وفركتّهما وخرجتُ بمساعدتّه وشكرتّه وصافحته، وسألتّه وأنا أقف على حافة الطريق الحجري مقابلًا لجبل متوسط الارتفاع:

- هل لكَ معرفة بالمكان؟ فإني أبحث عن دائرة الزراعة، وبالتحديد شخص اسمه سلمان هادي.

- نعم.

أجاب ثم سأل:

- هل تقصد سلمان المرشد الزراعي الولد الطيب؟ إن تقصده هو فهو قد رَكِبَ معي عدة مرات إلى المدينة التي جئنا منها، له شارب أشقر ويرتدي بدلة فستقية اللون وعيون خضر و..

قلتُ له وأنا أكاد أطير من الفرح:

- تمامًا هذه مواصفاته.

فمدَّ يده باتجاه الجبل والتلال المحاذية له مشيرًا إلى بنايتين صغيرتين توءمتين بيضاء اللون كالطباشير، قائمتين فوق مرتفعٍ يقابل الجبل وبين المرتفع والتلال وادي أخضر قليل العمق ضحل تترقرق المياه الجارية من خلاله، وقال:

ـ هناك يسكن كاك سلمان، سلمان ذو الشوارب الصفراء.
ضحكتُ للتسمية الجديدة، قال يوضح:
ـ إنه محبوب وله شعبية وله علاقات طيبة مع أهالي القرية، وقد أصبح بمرور الزمن يُعرف بهذا الاسم تمييزًا له عن سلمان آخر له شوارب سوداء، وهناك مَنْ يسميه بـــ (أبو الشوارب الحُمر) وأنا أرى اللون في الحقيقة بين الأحمر والأصفر.
قال كذلك ثم شدَّ يدي برفقٍ مبتسمًا، ثم ارتقى سيارته التي تحركتْ ببطءٍ وكسل إلى الأمام؛ ليتركني وحيدًا على قارعة الطريق، شعرتُ بشيءٍ من الوحشة والخوف:
ـ كيف سيقابلني سلمان؟ وهل هو موجود في هذه الساعة؟ وإن لم يكن حاضرًا.. فما هو البديل؟.
بعد السير في طريقٍ ترابي حجري لمدة عشر دقائق، رأيتُ من بعيد شخصًا جالسًا على صخرة ضخمة ووجهه في الوادي سارحًا في تأملاته، وبجانبه فتاة وهي بدورها تنظر في نفس الاتجاه، كان يرتدي سروالًا فستقيًا بنفس اللون الذي كان يرتديه أيام الملاحقات والمغامرات، وسعتُ الخطى إلى أن صارتْ المسافة بيني وبينهما حوالي ثلاثمائة متر، ولم يتنبه هو إلَّا بعد أن وصلتْ مسامعه قرقعة الأحجار الصغيرة والحصى تحت حذائي الجبلي المتين، فحانتْ منهما معًا التفاتة سريعة، فإذا هو حقًّا سلمان في سرواله الفستقي وشواربه الشقراء، انتفض قائمًا وهو يرفع يديه واندفع في اتجاهي بسرعة البرق وأنا فعلتُ بالمثل، والتقينا وتلاحمنا وتعانقنا في منتصف الطريق بجانب المنزل الأول حيث لاحتْ رأس امرأة وراء الشباك تراقبنا بفضول، قبَّلنا بعضنا البعض على الخدين

وسحبني إلى الصخرة وأجلسني بجواره على مرتفعٍ صخريٍ وهو يتمعن النظر فيّ من تحت إلى فوق، ويقول بعجبٍ:

- مَنْ أرى لقمان بلحمه وعظمه؟!

وقدّمني إلى الفتاة الشابة متوسطة الجمال:

- إنها شيرين جارتي تسكن مع أمها.

- لقمان صديق العمر.

تصافحنا وتباسمنا بحلاوة، وحينها اعتذرتْ الفتاة ومضتْ صوب المنزل المجاور.

سلمان تغيَّر كثيرًا منذ المرة الأخيرة التي رأيتَه فيها، وجه ضيق، بشرة سمراء، عيون منتفخة قليلًا، ضخامة وعرض أكتاف، فبدا لي قويًا متينًا متانة الجبال، وشفتاه قد فقدتا شيئًا من الامتلاء والغلاظة، قال لي وهو يتأملني بشغفٍ والدهشة لا تفارقه:

- أريد أن أسألكَ.. ما الذي أجائكَ إلي يا ناسي الأصدقاء؟.

فتحتُ فمي لكنه كان أسرع من أن أفتح فمي، قال لي وهو يتفحصني بدقة:

- أعرف أن الطريق قد آذاك، لكنني أرى أن علامات الإرهاق على ملامحكَ أقدم مما اعتراكَ جرَّاء السفر.

وقبل أن أستطيع أن أنبس بكلمة، أمسك بيدي وقادني إلى داخل المنزل وأجلسني مقعدًا وثيرًا في غرفة صغيرة متواضعة، الأثاث نصف مفروش ذات سقفٍ عالٍ من الكونكريت، لفتَ نظري كتاب كُتِبَ على غلافه (ديوان أدب) تبادلنا النظرات الصامتة ومع ذلك أفصحتْ عن الكثير عمَّا خالج نفسينا من مشاعر جيَّاشة في تلك

اللحظة، وكانت هناك بندقية صيد معلَّقة بمسمارٍ طويل عريض في زاوية من الغرفة، التفتَ إليّ وقال يشير إلى البندقية:
- أصطاد بها القبج دون غيره من الطيور.

لاحتْ على وجهي علامة استفهام، فأخذ يعلّل:
- لأن طائر القبج عدو نسله الوحيد من بين كل الطيور.

سكتَ ثم استطْرد:
- سأسرد عليكَ يومًا ما سرُّ كرهي لهذا الطائر الجبلي.

خيَّرني سلمان بين الجلوس والاستلقاء وهو يشير إلى سريرٍ خشبي عليه فراش متواضع قديم، اخترتُ الجلوس، أي: الوضع الذي كنتُ عليه، وطالما اتخذتُ مجلسي مضى بعد أن استأذن منّي إلى غرفة صغيرة يدخلها نور ضئيل، وعاد يمسك بين يديه صينية منقوشة بأنواعٍ من الطيور زاهية اللون، وقال لي وهو ينحني على المنضدة الصغيرة بجانبي؛ ليرصَّ عليها الأكواب والأطباق:
- شاي وجبن وخبز حار طيب وقيمر (قشطة).
- هذا ما احتجتُ إليه تمامًا وكأنكَ في قلبي يا صديقي.
كانت حقًّا وجبة شهيَّة مغذيَّة، احتجتُ بعدها إلى شيءٍ من الراحة تثاءبتُ، أشار صاحبي إلى السرير الخشبي المغطى ببطانية عتيقة لكن نظيفة جدًا.

• • • •

(٣١)

استفقتُ بعد نصف ساعة من غفوتي، كان السكون يطبق على المكان، من النافذة الصغيرة المطلة على الفناء لاح لي صاحبي قابعًا في موضعه الذي رأيتَه أول وصولي، ارتديتُ حذائي ومعطفي الجلد الطويل الأسود على بنطالي الرصاصي السرج المتين، ومضيتُ إلى حيث جلس سلمان.

كان الجو لطيفًا تتخلَّله نسائم ربيعية دافئة منعشة، وثمة راعٍ يُسرح أغنامه بعيدًا وثغاء الأغنام تتعالَ من خلفهم، ما أروع منظر قطعان الماشية خلال رحلتها إلى الأودية والهضاب المحيطة بالقرية، صعداً نحو مركز القبة الزرقاء الشفيفة يرتفع قرص الشمس، فتنبعث في الجو رائحة عشبٍ زكية لطيفة.

اقتعدنا الصخرة كتفًا لكتف وعيوننا تتجه إلى الوادي الصغير، وخرير المياه يبعث في روحي لذة ونشوة طالما اشتقتُ إليها.

ـ لقمان أنا سعيد جدًا جدًا بلقائك طالما اشتقتُ إلى مثل هذا اللقاء هنا، ولكن قبل كل شيءٍ أريد أن أعلم.. ما الذي جاء بك؟ لم تفكِّر بي يومًا، لا أعتقد أنكَ جئتَ اشتياقًا بل لمهمة.

أول سؤال بدر من صاحبي، ففجأني به وألقى شيئًا من الخيبة في قلبي.

قلتُ بلا تردد:

ـ لكلتيهما، أي: للزيارة وأمر هام.

- الوحدة هنا مشكلة لكن [illegible] صاحبي ولم يكمل).

قلتُ وأنا أُشبع ناظري بمنظر الوادي الأخضر والنهر الجاري فيه يلمع تحت أشعة الشمس الدافئة، وقطيع الماعز الصاعد على الجبل المكسو بالشجر والنبات:

- في هذه الطبيعة الساحرة لا يحتاج المرء إلى زوجة.

ثم تذكرتُ الفتاة شيرين، فقلتُ له-مستخبرًا:

- وخاصةً لمَنْ تسكن في جوارِه فتاة لطيفة كهذه.

قاطعني بسرعة:

- وخاصةً إنها غير محجبة.

جفلتُ لهذا التصريح من جانب صاحبي، فقد ذكَّرني بأيام جولاتنا وتارا، وتأففه من الحجاب.

هزَّ سلمان رأسه ثم حملَّق في وجهي يستذكر الشارع العريض، كما حدستُ ومتزامنًا معي وصدق ظني، فسأل صاحبي عن الحاج عبدالله البقال.

فأجبتُ سؤاله بسؤال:

- أتعلم أنه تزوج من العجوز وكالة؟

- أحقًّا؟ (تساءل سلمان بنبرة تنم عن شكوكه في الخبر)

أومأتُ إليه بنعم.

ضحك صاحبي طويلًا، ثم هزَّ رأسه يقول:

- كان الله في عونكَ يا حاج.

لم أنتبه لعبارته الأخيرة؛ لأنني كنتُ أُحملّق في تلك اللحظة في غلاف الكتاب الذي كان يضعه فوق فخذه الأيمن، شَعُرَ بحملّقتي فقال يجيب على السؤال غير الموجَّه:

- إنها رواية باردليان البطل الفارس الشهم، إنه خفف وحدتي.

فأخذ يقصُّ عليّ بكل شوق الأحداث الشيِّقة والمغامرات الغرامية، وخاصةً مغامرات الملك لويس السادس عشر مع محظيته والطاحونة والأشقياء والفارس الشجاع باردليان، فجعل يصف شهامته وشجاعته بلهفة وحماس منقطع النظير وبريق من الإعجاب ينبعث من عينيه.

وبغتةً أشار إلى الوادي، وقال:

- أحيانًا أُفكِّر في بناء طاحونة هواء هناك على حافة الوادي.

ظننتُ أنه يهزأ، نظرتُ إليه بطرف عيني اليمنى نظرة حدسٍ مغزاها، فقال يوضح ويخيِّب ظني:

- أنا زراعي ومن حقي أن أُطالب بطاحونة هواء، والغرض من هذا المشروع بسيط، حبي ولوعتي بوجودها ومنظرها يذكِّرني بحياة الفروسية، فلا توجد حياة أحلى من حياة الفروسية، وقد جربتها بنفسي.

- ويحكَ.. ماذا فعلتَ؟!

في تلك الأثناء وصلتْ شيرين وهي ترتدي فستانًا ومعطفًا جديدين وسلّمتْ، وكادتْ تعود أدراجها بعد أن رأتني لولا أن طلب منها صاحبي أن تنتظر وتسمع الحكاية.

- مثلْتُ مع شيرين تمثيلية أو قُلْ مسرحية.

استطرد موضحًا وعينٌ عليّ وعينٌ على شيرين التي وقفتْ بجانبه ويدها على كتفه:
- شيرين وقعتْ هناك عند الوادي قرب الساقية في قبضة شقي، فأخذتْ تصيح وتستغيث بي، هناك انظر، هناك كثبان ترابية تخيلتُها طاحونة فلم أتباطأ لحظة وشرعتُ سيفي...

قاطعته بهلع:
- هل تملك سيفًا؟
- سيف من خشب.

أجاب وأضاف مفصلًا:
- والشقي هذا كان كبشًا ضخمًا ذا قرنين طويلين، كان هذا يحاول اختطافها فانقضضتُ عليه وصرتُ أخوض معه مبارزة شرسة، أنا بالسيف والكبش بالقرنين وبعد قتالٍ عنيف أصبته في رأسه بضربة أوقعته أرضًا.

توسعتْ حدقتاي لِمَا سمعتُ، وغمغمتُ أُحدِّث نفسي في ذهولٍ:
- لا يصدق.. مبارزة بين سيفٍ وقرون.

كانت شيرين تنصتُ، فقلتُ لها دون أن أرفع رأسي إليها:
- أصحيح ما يقوله دون كيشوت؟

أجابتْ مبتسمة بثغرها الكبير ووجهها المدور الأسمر:
- لم أسمع بالاسم الذي ذكرته، ولكن القصة صحيحة وتحتاج إلى تتمة إن سمح لي سلمان.

أومأ إليها سلمان بما يعني أن لها الحرية، فأتمتْ القصة:

- ولولا الراعي الذي بارزه بالعصا لعشرة دقائق لكان قد قضى على الكبش.

- ومَنْ انتصر أخيرًا؟ (سألتُها وقد تملكتني دهشة ورعشة).

أجابتْ وهي تضع يدًا على رأس صاحبي:

- طبعًا الفارس، هذا الفارس وثب عليه وانتزع العصا منه وصار يضرب على مؤخرة المسكين الذي هرب منه، ولم يجرؤ العودة إلى قطعانه إلَّا بعد حلول المساء.

نظرتُ إلى سلمان الذي كان ينظر بزهوٍّ وخيلاء المنتصر، وقلتُ له:

- سلمان.. أنتَ لا تتخلى عن خيالاتكَ ومغامراتكَ؟ أراكَ هذه المرة عدتَ بنا إلى القرون الوسطى يا دون كيشوت آخر الزمان.

استرخصتْ شيرين وغادرتْ، فأشار إليّ أن أنهض ففعلتُ، فبعد ثوانٍ وجدتُ نفسي مع صاحبي أسير على المنحدر المفضي إلى الوادي والجداول والتلال والطبيعة الخلَّابة، وسرنا قُدمًا حتى بلغنا حافة الجبل ثم عدنا.

• • • •

في الليل افترشنا خيشة من القطن المندوف مسندين رأسينا إلى الحائط الحجري المطلي بالجص ممددين رجلينا أمامنا، ولا يضيء الغرفة سوى فانوس نفطي ونور القمر البدر، وكانت الحيطان شبه مجردة من النقوش والرسوم إلَّا من سجادتين رسمتْ على إحداهما

غزالتين في حالة ركض وقفز وعلى الأخرى حصانين يعدوان، وانبسطتْ فوق أرضها حصيرة مزركشة.

جلسنا نتبادل الذكريات وسط أصوات الطيور والأنهار ونقيق الضفادع وأصوات سمعتُها لأول مرة، فتخيلتُ أنها أصوات ذئاب أو حيوانات مفترسة تسكن في كهوف الجبل، كان لجمال الطبيعة الساحرة في الليل شكل آخر ولون آخر وصورة أخرى وصوت آخر، فقلتُ له:

- أجمل بقعة، إنكَ في جنة وحقكَ أن لا تعود.

- جنة لكن...

قطع كلامه واسترق إليّ نظرة فاحصة بعينه اليسرى وتنهد، وقال للمرةِ الثانية مؤكدًا:

- لقمان، أنا سعيد جدًا لوجودكَ معي لكن أنتَ جئتَ لا لزيارتي، بل لغرض آخر فالقِ ما في جعبتكَ.

فقصصتُ عليه الحكاية، وما كان عجبي شديدًا أنه بعدما أتممتُ القصة لم يبدُ عليه التأثر الذي كنتُ أتوقعه، وبدلًا استغرق في صمتٍ لا نهاية له كمَنْ يستذكر الأحداث الماضية ويحضّر ويفكّر برأي ووجهة نظر، ثم رفع رأسه أخيرًا:

- السؤال الذي فرض نفسه، هو.. لماذا كل هذا الصمت الطويل؟ وأخفيتُ عنّي الحقيقة.. ألم نكن أقرب صديقين؟.

قلتُ:

- لم أكن واثقًا من الأمر بادئ الأمر.

- والآن؟

- واثق وأقوالي مدعومة بالأدلة.

مدَّ يده إليَّ قائلًا:
- هاتها إذًا.

▪▪

أخرجتُ القصاصات من جيبي وناولته إياها، تناولها ووضعها على الأرض بجانبه، ثم التقط الرسالة التي وضعتُها فوق وهي نفسها التي أريتُها لفريدة، فتأملها وتفحصها مليًّا ثم سأل:

- كيف وصلتَ إلى هذه الرسالة؟

- في غرفتِها.

قلتُ وفصّلتُ:

- كانت تكتب وتكتب بلا انقطاع، حتى سألتُ فريدة يومًا فيما لو كانت الرسائل حقًّا لها، وهل هي تحبكِ الحب الذي بيني وبينكِ؟ أجابتْ: "لم أستلم أيَّة رسالة منها في حياتي، ولم أشعر بأيِ شيءٍ غير طبيعي من ناحيتها، لكنني مع ذلك لابد أن أعترف أنها كانت في الأيام الأخيرة شديدة الالتصاق بي وتعبِّر عن حبها لي ومتانة روابطها معي وأنها مكتئبة، وأكثر من مرة عبَّرتْ لي عن ثقتها بي وتقول لي: أنتِ الوحيدة الوحيدة الصادقة، أنتِ وأمي، لا أحد لي سواكما، والآخرون كلهم يراقبونني".

وقرأ الرسالة بصوتٍ مسموع:

(حبيبتي الغالية فريدة أنا مشتاقة إليكِ جدًا جدًا، حبي لكِ فوق طاقتي، أحلم بكِ ليل نهار، أنتِ حلمي، أنتِ حياتي، لا أطيق الحياة بدونكِ، أنام مع ذكراكِ وأستيقظ على ذكراكِ، عاشقة أنا، أتوق إليكِ: إلى همساتكِ إلى لمساتكِ، إلى رموشكِ وغمزاتكِ، أسألكِ وألتمس إليكِ أن لا تخيِّبي رجائي بأن تسمحي لي أن أراكِ كل يوم،

بل كل ساعة لا كل دقيقة، لا أريدكِ مع أي شخصٍ آخر فتاة كانت أو فتى، أغار عليكِ من نسمة الصباح، أغار عليكِ من الهواء الذي يدخل خياشيمكِ، أغار عليكِ من الفراش الذي يغطيكِ، أغار عليكِ من الملعقة التي تلامس شفتيكِ، كل شيءٍ فيكِ رائع رائع، خديكِ قمران، شفتيكِ أحلى وردتين في البستان، عنقكِ يحسدكِ عليه طيور الأوزة البرية، عيونكِ أوسع من عيون الغزلان، عيونكِ الخضر الخضر جدًا جدًا وشعركِ الأصفر الأشقر الحريري، كل شيءٍ فيكِ جميل: وجهكِ الصبوح الذي يضاهي القمر التم، قولي لي شيئًا، أي شيءٍ، اكتبي لي أرجوكِ أصغر لفظة في قاموس اللغة، وهي: حب، قولي أحبكِ، آه كم أود أن يجمعنا سقف واحد وبيت واحد كما يجمعنا قلب واحد، قُبلاتي الحارة لكِ، حبيبتكِ الوفية تارا).

تأفف بعد أن وضع الورقة على الأرض:

- يا له من خطٍ رديء! كان خطها أجمل من هذا بكثير، أكاد أشك أنها هي التي كتبتها.

ثم رمقني بنظرة ماكرة، ثم ألقى نظرة جانبية عليّ وقال يتساءل:

- يعني أنكَ تشك في أن هناك علاقة شاذة بينهما، الويل لو كنتَ فكرتَ هكذا.. فهل من أجل هذه القصاصة حلّتْ بالبنت نائبة الزمان؟.

ودون أن ينتظر جوابًا منّي، التقط الرسائل الثلاث وأخذ يتأمل محتواها واحدة واحدة لبرهة، ثم أخذ يضحك باستهزاءٍ ما أثار حفيظتي وألقى الرسالة بجانبه على الأرض، ثم قال بنبرة إلى الهُزء أقرب منها إلى الجد:

- كَبُرَ في عينيكَ الأمر وظننتَ أنها رسائل غرام من فتاة لفتاة، أي: هي شاذة وتميل إلى بنات جنسها.

أومأتُ بالإيجاب، صمت ثم قال بعد أن رماني بنظرة ساخرة:

- أعلم صديقي، أنتَ قرأتَ هذا في المجلات الرخيصة التجارية، ففتياتنا لا يعرفنَّ مثل هذه العلاقات أصلًا.

تذكرتُ قصة فريدة التي قصتها علي: (أن هناك طالبة أحبتْ مدرستها حبًّا شاذًا وأنها شغفتْ بها حبًّا ولاحقتها، ثم شعرتْ المعلّمة بذلك فأنذرتها وأخيرًا عَلِمَتْ المديرة فحدثتْ فضيحة) لكني آثرتُ السكوت تحاشيًا لإثارته أكثر، وخاصةً بعد أن ظهرتْ على وجهه بوادر السخط ورفرفتْ شفتاه بسرعة متناهية، الحالة التي اعتدتُ على رؤيته فيها متى ما استبد به الغضب العاصف، ومن ثمَّ لفتَ نظري شيء جديد مخيف وهو أنه مدَّ يده إلى حزامه، فظننتُ أنه ربما يخفي هناك حسامًا مهندًا أو سيفًا خشبيًا، فإن كان قد هزم كبشًا بقرون.. فكيف لا يهزمني وأنا بلا قرون؟!.

ثم عاد يقول مؤكدًا:

- هذه العلاقات الشاذة تنشأ في المجتمعات الغربية، ولا وجود لها في مجتمعاتنا.

نفيتُ مضطرًا بالقول:

- نعم موجودة ولكن بسبب الخوف يستحيل الإعلان عنها، فإعلانها يعني موت أحمر.

تفحَّص وجهي بتحدٍ، وقال:

- قُلْ أنتَ بصراحة.. هل وجدها أبوكَ في غرفتها أم أنتَ؟.

- أنا.

ـ إذًا تأكد لدي بما لا يقبل الشك أنكَ أنتَ سبب الشقاء وأنتَ المخبر.
قلتُ باستسلام:
ـ والأفضل نصف مخبر. (شعرتُ بعدها براحة نفسية).
ـ الحمد لله.
قال وهو يمسح ذقنه بيده اليمنى:
ـ ها قلتَها بلسانكَ اعترفتَ بنفسكَ، فقد سمعتُها من مصدرٍ آخر لكن الشكوك تبددتْ بعد أن قلتَها بلسانكَ أنتَ.
قلتُ له بشيءٍ من الحرج:
ـ ثم كان لابد أن أفعل ذلك.
قال:
ـ بأي مبررٍ؟
قلتُ:
ـ كي أبعدها عن فريدة، فقد كلفني أبي بمراقبتها أمانة كأخ أكبر، وكان غرضي الوحيد عزل تارا ومنعها من الوصول إلى فريدة ـ كما قلتُ ـ ولم أرد سوى الخير للجميع، ولم يكن قصدي الشر أو النكاية بل عمل الخير وإلّا لكانت العواقب أوخم.
قال مستطلعًا:
ـ لكنكَ لم تقل الحقيقة لأبيكَ.
ـ كيف؟
سألتُ وأنا أنظر إليه شزرًا تحت ضوء الفانوس الأصفر، أجاب بنبرة قوية:
ـ لأنهم اتهموني أنا في الجريمة (جريمة الحب) أنتَ كذبتَ في الإخبارية.

اعترفتُ للتو:

- نعم كذبتُ عليه، لم أقل أنها تحب بنت الجارة وإلّا لحدثتْ فتنة كبرى بين الأسرتين، بل فضيحة عارمة عاصفة.

لمعتْ عيناه وهو يتصور.. ماذا كان سيحدث لو أخبرتهم بالحقيقة؟

وأخذ يهزُّ رأسه هزًّا عنيفًا، واصلتُ منتهزًا الفرصة للبوح بالبقية المستعصية:

- فقلتُ لأبي بدلًا من أنها تحب فريدة أنها تحبكَ أنتَ، وهذا أهون خاصةً فقد لمح أبي أخيرًا إلى هذه النقطة، وحذرتها ونصحتها بالابتعاد عنكَ كونكَ لا تليق بها؛ لأنكَ كسلان وأنكَ ليس لكَ مستقبل وما إلى ذلك من مبررات.

- لكن تارا دفعتْ الثمن، دفعتْ الثمن غاليًا وهي الضحية لا أنا.

قلتُ بإصرارٍ شديد:

- كان لابد من ردعها بأي ثمن.

سألني فجأة:

- أنا لم أكن ضد علاقتكَ بفريدة وأنتَ.. ماذا كان موقفكَ؟.

قلتُ بلا تردد:

- بيني وبينكَ.. أنا كنتُ ضد أي علاقة حب بينكَ وبين تارا.

لم يتأثر كثيرًا على عكس المتوقع، صمت للحظاتٍ ينظر إلى الأمام بشرود، ثم قال بفتور:

- يا ترى.. ما دعاكَ إلى هذا النفور منّي؟.

قلتُ بلهجة لا تخلو من تحدٍ:

- خلاصكَ، ووقوفكَ أمام موقف الباص رجل على رجل، وفي السينما وتبدُّلكَ وتنقُّلكَ من حالٍ إلى حال، وأنتَ تتراوح بين خلاصٍ

وتوبة، وكيس النايلون المعبأ بالسائل المنوي، سلمان وبكلمة واحدة:
أنتَ لم تصلح أن تكون زوج أختي بعقليتكَ الازدواجية، والتيار - النتلة - الكهربائية في رقبتكَ.
ضحك ملء شدقيه رغمًا عنه، كان يريد أن يداري حرجه كما حزرتُ، وفجأة انقطعتْ ضحكته ورماني بنظرة نارية، وقال لي وقد تبدد كل أثر لنوبة الضحك التي انتابته قبل لحظات:
- ولذلك سعيتُ إلى الهروب منكَ، وسأهرب منكَ مرة أخرى إن دعتْ الضرورة.
وضحك في وجهي بسخرية وباستهزاء، قلتُ له بعد أن ورد ذهني بغتةً ما غفلتُ عنه قبل قليل:
- لكن بعدما شعرتُ بأن هناك ترابط من نوعٍ غريب غير عادي بين الفتاتين، تمنيتُ من ربِّ العباد لو كنتَ أنتَ الذي وقَّع أختي في حبها لا أختكَ.
ساد صمت طويل لم يسمع خلاله سوى أصوات الحشرات ونقيق الضفادع وأصوات أنفاسنا الهادي الصاعد والهابط بسرعة ورفرفت اللهب المتناقص في داخل الفانوس الصغير.
بعدها رفعتُ رأسي إلى صاحبي، وقلتُ له بهدوءٍ وأنا أضع يدًا على كتفه المتين:
- سامحني أخي، وقل عفا الله عمَّا سلف فالآتي أهم.
ومرة أخرى أدهشني ببروده حين قال لي بكل هدوء:
- أنا أُسامحكَ وقد تكون محقًّا قليلًا، أبوكَ لم يرحم في هذه المسائل، الحب جريمة عند أبيكَ - الله يرحمه.
ثم قصَّ عليَّ قصته:

ـ الحقيقة أنه لم يرحمني أنا كذلك.

سألته بعجل:

ـ كيف؟

أجاب باقتضاب:

ـ ستعرف.

ظهر على وجه صاحبي هذه المرة تأثر واضح وطار اللون من وجهه، للحظاتٍ لم يصدر منه سوى زفرات وتأففات، ثم عاد يقول بصوتٍ نابع عن تحدٍ وأمل:

ـ كل شيءٍ تغيَّرالآن يا صاحبي، أنا موظف محترم براتبٍ ممتاز ولي أرض زراعية شاسعة وحيوانات، والحياة بكل مباهجها ومسراتها.

في تلك الأثناء أذنَ المؤذن لصلاة العشاء فقام للصلاة، وبعد إقامة الصلاة في الغرفة المجاورة، عاد إليّ فقلتُ له بلهجة بين الجد والهزل:

ـ وأنتَ لا تصلي؟

ـ أنا لا أُصلي وشربتُ وسكي عدة مرات مع أبيكَ.

قاطعني ولاح لي أن الحديث راقٍ له فعلًا، فقال مستفهمًا:

ـ وسكي فقط! وماذا عن الشراب والنبيذ؟.

هززتُ رأسي بالنفي، وهزَّ رأسه بالعجب فقال يوضح لي:

ـ النبيذ المعتق خير من ألف وسكي، فالفرسان الثلاثة احتسوه قبل خوض غمار القتال.

تساءلتُ مذهولًا:

ـ نبيذ وصلاة معًا؟!

أجاب غير هيَّاب ولا منفعل:

- أحتسيها فقط في المناسبات.

ثم أضاف بلهجة جريئة بعد أن رأى حيرتي:

- نبيذ، صلاة، توبة، خلاص، وما الفرق؟ كلها مسرات ومباهج وزينة الحياة، نحن لسنا معقدين مثلكم.

قلتُ له مستهزئًا به:

- إنك تذكِّرني بدجاجتي الشقراء، تبيض بيضات ذات صفارين.

• • • •

(٣٢)

مضتْ ثوانٍ لم نسمع خلالها سوى هبَّات هواء منعشة تندفع خلال كوة صغيرة تحت السقف إلى الداخل، وعدا عن أصوات الحيوانات تأتي من بعيد خِلتُ أنها لذئابٍ أو ثعالب، وعدا عن خرير النهر الصغير الذي يمر في قعر الوادي الضحل، وأخيرًا قال متسائلًا وتعبيرات وجهه تنم عن الصرامة والجدية والاستهزاء في آنٍ واحد:

ـ وانفلصتَ عنها لشكوكك أنهما من الشواذ.

قلتُ وأنا أُداوي حسرتي بتنهيدة عميقة قصيرة:

ـ ظننتُ في البداية أنهما ربما تمثلان مجرد تمثيلية، وفريدة أوضحتْ لي أنها لعبة أطفال من باب المحاولة والفضول والتجربة وصدقتها خاصةً أنهما كانتا في طور المراهقة، وقد أخبرتني ذلك في لقاءاتنا في الغابة، ومن ثمَّ رويدًا رويدًا تبيَّنتْ الصورة الحقيقية لهذه العلاقة الغريبة: أن تارا هي من ذلك النوع واستطاعتْ أن تغوي فريدة لهذا الغرض؛ لأن فريدة كانت متعلقة بي جدًا فطلبتُ منها عدم التقرب من تارا إن كانت حقًّا تحبني تحاشيًا للمشاكل، وفعلتْ كما ظننتُ، لكن وبعد استئناف الاتصالات بينهما بعد زواج تارا وعودة علاقاتهما وزيارات منتظمة لفريدة لها رغم تحذيراتي المتكررة، لمستُ تغييرًا ملحوظًا لتصرفاتها وتعاملها معي بشكلٍ مختلف تمامًا من فتور وبرودة وتهرب من ملاقاتي، وأنا لا أشك

في أن تارا تجيد الخداع والتضليل والمراوغة، رغم كونها تقوم بواجباتها الدينية.
أطبق بيده على كتفي وعصره وأرعد دون وعي منه محذرًا إياي:
- ويلكَ ليستْ هناك فتاة أنظف وأتقى وأنقى وأشرف من تارا أختكَ.
ثم تمالكَ وفك قبضته، وقال بصوتٍ رقيق متراجعًا عن حكمه بشيءٍ من التردد:
- قد تكون مصيبًا.. نعم.. صحيح.. تارا كانت غامضة بعض الشيء تمامًا كما قلتَ، وكانت تكتب أكثر مما تتكلم، شيء مثير للتساؤل.
وبحركة مباغتة التقط الرسالة من الأرض من على يمينه، ثم رفع رأسه إليّ يقول بحدة وتحدٍ لم آلفهما من قبل:
- هل هذه الرسالة هي التي دعتكَ تذهب هذا المذهب وتحكم عليها بالشذوذ؟
قلتُ مضيفًا:
- نعم وضبطهما أكثر من مرة خارج البيت، يد في يد ورأيتهما على الطريق إلى الغابة ولوحدهما، أنتَ تعرف أن الغابة مأوى العشاق، وفي داخل موقف الباص عدة مرات كانتا ملتصقتان تمامًا وكانت تارا تقبّل فريدة بشوقٍ على الخدود.
نظرتُ في وجهه فلم آنس سوى الإنصات والاهتمام، فتشجّعتُ ومضيتُ في الطريق نفسه:
- وجئتُ إليكَ هنا ومعي صور ورسائل ودلائل تبرهن وتثبت ادعائي.
هزّ رأسه بأسى، وقال:

- لا داعي للبراهين.. لا داعي، ولكي أخفف عن كابوسكَ وآلامكَ وأوهامكَ وأقتصر عليكَ الطريق..

توقف وسحب نفسًا طويلًا، ثم ألقى عليّ نظرة حواليه كمَنْ يريد التأكد من عدم وجود شخص آخر في الغرفة، ومال إليّ ثم قال بصوتٍ هامس:

- تارا كانت تحبني.

انتفضتُ كالملدوغ وتناهتْ ضربات قلبي إلى مسمعي.

- وصدقتْ إخباريتكَ فقد أخبرتَ والدكَ الحقيقة.

زاغتْ عيني وضاقتْ نفسي وأحسستُ باختناقٍ ينخر حلقي.

- وأعيد وأكرر إنها أنقى وأتقى وأشرف فتاة، كانت تحبني حبًّا صافيًا، ما يسمى بالحب العذري الخالص من رغبة الجسد.

وقع الفأس على الرأس، وحينها وبعد فوات الأوان أدركتُ أن صاحبي استدرجني بذكاءٍ إلى موقعٍ مناسب يسهل عليه معه توجيه الضربة القاضية، هذا بالرغم من قناعتي أن حظه من العلم والذكاء كان ضئيلًا.

تجمد الدم وتوقف النفس، أحسستُ أن أحدًا دفعني على غرة وألقاني في بحرٍ من الجليد فاقشعر له كل بدني، توقف دماغي وفقدتُ الشعور لبرهة فيما حولي ودارتْ راسي، ودارتْ الأرض تحت قدمي، وعيوني لم تعودا تريان ما حولي إذ غشيتهما غشاوة معتمة.

فجأة ظهر طيف تارا أمامي بردانها وحجابها وصلواتها تعانق سلمان، وتهمس في أذنه الصغيرة: أنا أحبكَ، ويهمس هو لها بالمقابل: خلاص خلاص انتهيتُ، وتنبعث أصوات أغاني عاطفية غرامية من مكانٍ غير بعيد، والسُمَّاق يملأ الصحن الخزفي

المزخرف بألوان مختلفة والموضوع تحت المنضدة الصغيرة.
اشتعل في نفسي بركان سرعان ما خمد بعدما سألته فيما كان صادقًا وجادًا في كلامه، فأومأ بنعم وهو شبه مغمض العينين، فحينها حلَّتْ محل الفوران والثورة والهيجان سكينة وراحة خفيَّة كمَنْ تلقى البنج الثاني بعد العملية الجراحية المعقدة.
أعطاني زمنًا كافيًا لهضم اللقمة الجسيمة الدسمة، وبعد أن عَلِمَ أن شيئًا من الهدوء والتوازن عاد إليّ، قال لي موضحًا بلهجة الواثق:
- أما بشأن الرسالة فلابد أن أعلِمكَ أنها كانت معنونة وموجهة إليّ.
جفلتُ وهتفتُ وأمسكتُ بساعده أهزه هزًّا عنيفًا:
- ماذا قلتَ؟ أعد، يبدو أنني أصبحتُ لا أسمع جيدًا.
فعاد مؤكدًا:
- نعم كتبتْ لي رسائل عدة، وعلى الرغم من تيقنها أنها لا تقع إلّا في يدي كانت تتحفظ وتحذر جدًا، فتكتُب معنونة إلى فريدة وغالبًا تحت موضوع إنشائي غير مباشر، وأنا أحتفظ ببعضٍ منها عندي كذكرى أقرؤها بين الحين والحين، ونقلتُ بعض عباراتها الجميلة إلى دفتري، وسأقرأ عليكَ بعضًا منها بعد أن أشرح لكَ سر الرسائل.
وثبتُ من مكاني أرج يده رجًا عنيفًا وأخذتُ أصرخ في وجهه:
- لا قُلْ غير ذلك، قُلْ غير ذلك ولا تمزح، وقُلْ الحقيقة، أتعني أختي تارا كانت تكتب الرسائل هذه إليكَ؟
أجاب ببرودٍ وهدوءٍ تام:
- أجل.

توقف وتنهد ثم استطرد يقصُّ بقية القصة:

- وكانت تخاف كذلك أنها قد تقع بطريقة أو بأخرى في يد خال فريدة والذي حُكِمَ عليه بالسجن المؤبد، عاد إلى الأرض ويرقد بسلام تحت الأرض وهو حي، أو ربما يطيِّرها الهواء فيطيح بها إلى الحديقة التي يجلس فيها أبوكَ السلطان الجبَّار - رحمه الله - وكانت أحيانًا ترميها إليّ من فوق السور الفاصل بيننا فوق، وأحيانًا وراء وكر الدجاج إن شعرتْ أن لا أحد موجودًا، وفي كل المرات أفتحها في البيت فأجد جميعها معنونة تحت اسم إنشاء، وكانت بعضها حقًّا مواضيع إنشائية صرفة؛ كي تستطيع تمويه وإخفاء الأمر، وتلح عليّ أن أمزقها وأُلقيها في تنور أمي حال التفرغ من قراءتها لإخفاء أي أثر، رغم ثقتها أن الرسائل الإنشائية مهما كانت مواضيعها فلن تتعدى حدود الخيال ولا تمس الحقيقة بشيء ولا تمت إليها بصلة، وليستْ تحمل اسمها ولا توقيعها لكنها كانت بالغة الحذر والذكاء رغم صغر عمرها، فتحسبتْ للأمر الأسوء: قد يتعرفون عليها بواسطة خط يدها، وقد احتاطتْ لهذا الأمر أيضًا فكتبتْ رسائلها عمدًا بخطٍ رديء، أما الرسائل المعنونة إلى فريدة فكانت تدسها في جيبي، وهي في حالة مسير خوفًا من الشكوك، لكن يبدو أنها نسيتْ في غمرة قلقها، والمرء قابل للخطأ والنسيان، أن تتخلص من بعضها وربما اختلط عليها الإنشاء والرسالة، فقد كانت تكتب نصوص إنشاء مدرسية حقيقية، كما كنتُ أفعل أنا في أوقات الفراغ، وكانت شغوفة بالكتابة كما تعلم، فوقعتْ هذه لسوء حظنا في يدكَ وأنتَ كنتَ مراقبًا جاسوسًا كما أعلم لأبيكَ وسلَّمتَ إليه الأمانة بأمانة.

نظرتُ إليه وأنا في حالة غليان، وقلتُ له بتهكمٍ وبنبرة ساخرة:
ـ صحيح وكما قلتَ ليس هناك أنظف منها وأنقى، وأنا أظل على رأيي أنها تجيد فن المراوغة والتضليل.
لم يلقِ أي اهتمامٍ على تعليقي، فبعد سكونٍ طويل نسبيًا أخذ ينظر إليّ طويلًا محملقًا، ثم أردف قائلًا بصوتٍ ارتفعتْ نبراته عن المعتاد:
ـ أما خفت أن يذبحها يا مفتن يا واشي؟
لأول مرة يعصف به الغضب بهذا العنف، بعد أن سكتَ عنه الغضب وجهتُ إليه سؤالًا عرفتُ جوابه مقدمًا وذلك للتأكد:
ـ وأنتَ لم تبادلها الحب، فصار العذاب مكررًا مضاعفًا.
تنهد صاحبي بعمقٍ، وقال بعد تفكيرٍ قصير:
ـ في الحقيقة كان هناك ميل طفيف خاصةً في البداية، لكنه سرعان ما تلاشى تحت سلطان الخوف، وبصراحة أقول الحجاب لعب دورًا سلبيًا في هذا المجال.
مضتْ فترة من الوقت عصيبة علينا، ساد صمت مطبق، تأخر الليل فقام وجلب قدحًا كبيرًا من الشاي مع فطيرة (سندويج) ووضعها أمامي، وهو يقول:
ـ أعتذر نسيتُ أنكَ ضيفي، خبز التنور خصوصي وزبدة ومربى التين من النوع الأصلي الصافي، الأهالي يهتمون بي ويبتغون مرضاتي.

لم أشعر لا بحركته ولا بصوته، فقد كان هناك ما يشغل بالي في تلك اللحظة، وبعد أن أفقتُ من تخيلاتي التفتُ إليه وقلتُ له بانشراحٍ:

- سلمان أتعلمِ أنني أحس في هذه اللحظة بأنه انزاح شيء من الثقل من على كتفي، أشعر بأن الوزن خفَّ من على عاتقي بعد أن عَلِمتُ الحقيقة المرة الحلوة.

خرجتْ اللفظة الأخيرة دون إدراكٍ ووعيٍ منِّي.

عادتْ إليّ أطياف الصور والمشاهد والأصوات.. تارا في عصر ذلك اليوم الذي زارنا فيه سلمان، وهي تخفي المفتاح في قبضتها تشبك يديها وتخر على ركبتيها، وتقول بتضرعٍ: "كا كه أحلف لك أنني لم أقابل أحدًا فوق.. أحلف بالله".

استغرقنا في سكونٍ قصير، عاد بعده صوت سلمان الرخيم يتسرب في المكان:

- لم يكن خوفي من أبيكَ بأقل من خوفها منه، لم تتجرأ على الاقتراب منِّي، وكانت مفاجأة كبيرة لي عندما اقتربتْ منِّي يومًا ودستْ يدها في جيبي تضع فيه قصاصة ورق، فشعرتُ برعشة يدها في داخل جيبي، مسكينة خوفها كان مرضيًا، فكلا الحركتين: الاقتراب والتسليم لم تستغرقا سوى لحظات، وخاصةً *أننا*...

وفجأة انبثق سؤال في رأسي فوجهته إليه:

- وهل كانت فريدة تعلم أن تارا كانت تحبك؟

- أجل.

أجاب صاحبي وأضاف:

- وهذا شيء منطقي، لكنها خافتْ هي كذلك من والدكما فأخفتْ الخبر عنك.

- وهل عَلِمتْ فريدة بأمر الرسائل الإنشائية؟
أجاب:
- كلا، أبدًا.
- وكيف لي أن أصدّقكَ؟
هزَّ رأسه كالحائر، ثم قال بفتور:
- صدق أو لا تصدق ولكي أجعلكَ تصدق أقول أنه بعد تحذير المدعو علي لي...
قاطعته:
- متى جاء هذا التحذير وبالأحرى متى نشأ هذا الحب؟
ضحك صاحبي بأنفه، ثم قال بأسى:
- أتعلم أن حبها بدأ قبل حب فريدة لكَ؟
سكتَ يرمقني بنظرة فاترة، ثم قال ببرودٍ وكأن الأمر لا يخصه:
- في نهاية شهر مايس وبداية شهر حزيران من ذلك العام أيام دراستنا الثانوية، أي: قبلكما بشهرٍ ونصف تقريبًا.
نظرتُ إليه بفضولٍ أستزيد، فقال متواصلًا:
- يومًا لقيتُ فريدة وتارا صدفة في سوق المحلة، كنتُ عائدًا من الحلاق وتكلَّمنا قليلًا، ولم ترفع خلالها أختكَ رأسها خجلًا أمام الناس، كانت ترتدي الحجاب لأول مرة، فكانت تخجل كثيرًا للظهور هكذا أمام الطالبات، وهي لا تزال صغيرة تقول أبدو هكذا كالعجائز.

ضحكتْ فريدة وهي تخرج مرآة من حقيبتها المدرسية، وضحكنا معها طويلًا نشير وأيادينا ممدودة إلى رأسها المغلف، حتى دمعتْ عيوننا، سألتني:

- هل أبدو قبيحة هكذا؟

قلتُ:

- لها أبدًا.

ثم أزالتْ الحجاب:

- انظر أهكذا أحسن؟

قلتُ:

- الحقيقة تقال: نعم أنتِ هكذا أجمل، الحجاب يخفي جمالكِ كثيرًا. ثم ندمتُ على ذلك، كانت تارا كثيرًا ما تشكو لفريدة بأنها مرغمة على تغطية شعر رأسها، تسخر من الحجاب: "إنه يغطي الجمال ولا يغطي العيوب، فالعيوب في النفوس لا في المظاهر" وجدتها ذكية جدًا في هذا العمر، قالتْ الحقيقة وأصابتْ، بعد يومين وبينما كنتُ عائدًا من المدرسة إذ رأيتهما معًا تجلسان على مصطبة في زاوية بعيدة عن أنظار الناس، أشارتْ إليّ أختي أن أجلس معهما ففعلتُ، كانت قسمات وجه تارا طوال فترة جلوسنا القصيرة تشي بأنها تريد أن تقول شيئًا لي وبحضرة أختي لكن الخجل كان أقوى، ولمّا افترقنا وابتعدتا عنّي، فإذا برجلٍ انبرى لي من العدم قُلْ اسمي سرمد أُنذرك من الاقتراب من ابنة عمي مرةً ثانية، وبعد عودتي إلى البيت أعلمتني فريدة أن تارا غارقة في حبي، وأنها تخاف وتخجل من المصارحة، وأنا أخبرتُها بأمر هذا الرجل المجهول فارتعدتْ للأمر رغم شجاعتها، كانت تعرف أباكَ جيدًا، وحذرتني هي بدورها من الاقتراب من تارا، وحذرتَها وحزنتُ جدًا لذلك، قائلةً: "إنها ستصاب بإحباط" وبعد هذا التحذير الصادر من فريدة

قررتْ تارا أن تتحرك على طريقتها الخاصة، ولم تجد سبيلًا آخر للتعبير عن مشاعرها الجيَّاشة وإحباطها سوى مخاطبة ومغازلة الورق وبث شكواها لي، في هذه الرسالة التي لم تصلني يبدو أنها فقدتْ الصبر وتجرأتْ أن تطلب منِّي كتابة رسالة لها، إحباطها كان شديدًا خاصةً أنها كانت حينها تعرف بعلاقتكَ الحميمة المطلقة بفريدة.

رمقته بنظرة خاطفة، ثم سألته:

ـ وهل كتبتَ لها رسالة؟

تنهد صاحبي ورفع رأسه إلى سماء السقف، ثم تنفس بعمقٍ، ثم أجاب بعد أن لفظَّ نفسًا خارجًا بقوة:

ـ نعم كتبتُ لها موضوع إنشاء بسيط: حذارِ حذارِ أن تلعبي بالنار، وعليكِ أن تنسيني.

قطع يفكِّر ثم عاد يكمل:

ـ ومنذ ذلك الحين، لم أتلقَ أيَّة رسالة إنشائية منها، وإن كانت كتبتْ رسائل أخرى بعد ذلك اليوم، فلنفسها لقضاء وقتها والتنفيس عن همومها.

سألته باهتمام:

ـ هل كان لسفركَ إلى القرية ذلك الصيف علاقة بقصة الحب؟

أجاب على الفور:

ـ كان لسفري إلى القرية في ذلك الصيف سببان بل ثلاثة: تسهيل الأمر عليها كي تنساني وللراحة، وكذلك من أجل فسح المجال لكما أنتَ وفريدة للتحرك بحرية أكثر، وتوفير مناخ أحسن لكما للالتقاء أينما تشاؤون، وكل ذلك بتخطيط وتدبير من أبي ومشورته.

قلتُ له غير مصدق:

- أتعجب منكَ سلمان كل هذه اللامبالاة، بينما كانت تارا تعاني بسببكَ وعدم تجاوبكَ مضطرًا ومختارًا.

لم يعلِّق على كلامي، فساد سكون لم نسمع خلاله سوى أصوات خافتة لأنفاسنا المتلاحقة بسرعة، بينما كانت الحشرات الصغيرة ترفرف ساعية فوق الفانوس، وأخيرًا استأنف صاحبي يكمل:

- كان لتلقيّ هذه الرسائل بعد عودتي خيبة أمل كبيرة لي؛ لأنها لا تزال تذكرني وتهيم بي، لا أدري.. أي شيءٍ جميل فيّ أُعجبتْ به؟.

قاطعته وأنا أكتم ضحكة رغم خطورة الموقف:

- لم تعرف أنكَ أخطر من القنبلة الذرية يا صاحبي.

ضحك رغمًا عنه بعد أن فَهِمَ مغزى كلامي، ثم واصل كلامه:

- حينها كان قد حصل التقارب بينكَ وبين فريدة، فاضطرتْ تارا أن تخفي عن فريدة أمر الرسائل بعد تطور العلاقة بينكَ وبين فريدة إلى علاقة حب؛ لأنها عَلِمَتْ أن أباكما قد عيَّنكَ مراقبًا عليها ربما خلفًا لمامند البعيد، ولنفس السبب أخفتْ فريدة عنكَ يا لقمان أمر الحب الأبتر الذي اندلع في قلب تارا المراهقة.

• • • •

(٣٣)

نظرتُ إليه بطرف عيني، فوجدته ينظر إلى أمامه في شرودٍ، فقلتُ له مستطلعًا:

ـ إنكَ وعلى هذا البعد تعرف الكثير يا صاحبي.

لم يعلّق على ملاحظتي، وبدلًا أخذ يوغل في سرد تفاصيل أخرى، فقال لي وابتسامة مريرة على وجهه:

ـ ولعلمكَ عرفتُ بموضوع الصور والرسائل وكل شيءٍ وملاحقاتك ومراقبتكَ لهما، والرسائل التي سرقتها من تحت مخدتها.

انتفضتُ من مكاني صائحًا:

ـ أنا.. كيف تجرأتَ على اتهامي؟.

ـ كيف عرفتَ؟

ـ وصور فريدة التي انتزعتها من غرفة تارا وعلقتها في غرفتك.

ـ كيف عرفتَ؟

عاد يتأملني من جديد بعينين اشتدتْ الخضرة فيهما، وبشفتين ازدادتا امتلاءً في عيني في تلك اللحظة، ثم عاد يؤلمني ويغوص بمشرحه أعمق في لحمي:

ـ واعترفتْ أن ملا نور الدين اغتصبها.

كادتْ مقلتاي تُنتزعان من مقلتيهما، وانا أصرخ به وأهزه هزًّا بكلتا يديّ:

ـ ماذا تقول.. اغتصاب؟!

تجاهل محدثي سؤالي، وواصل حديثه دون أن يهتم لتأثري وصرختي:

- لم ترضَ بالمضاجعة، الطفلة تارا خافتْ في ليلة الدخلة وفي معظم الليالي التي تلت، ارتعبتْ من منظر ملا نورالدين وهو يهبُّ بالانقضاض عليها، فلم تطاوعه فخدرها ثم اغتصبها، وبعدها أرادتْ تارا أن تنتحر لكنها خافتْ من الله فحسب الشرع: (قاتل النفس في النار) وخافتْ على أبيها بسبب مرض القلب خافتْ أن يتوقف قلبه ويموت فتكون هي السبب، كانت تحبه فوق ما تتصور رغم كل ما فعل بها، كانت تقول: "رضا الله من رضا الوالدين" تصوَّر رغم كل ما عانته من مصائب بسببه خشيَّة أن يصيبه شيء ما يسيء إلى نفسه المريضة وجسده العليل.

تجمدتُ في مكاني أُحملق في فيِّه مستزيدًا الغرائب والأحداث الأشبه بالخيال، أضاف صاحبي يقول:

- وبعد حادثة الاغتصاب لم يتقرب منها إلَّا نادرًا، ملا نور الدين هجرها تقريبًا؛ لأنه كان يحب الأرامل والصبايا وحتى الأرامل العجائز ومن ضمنهنَّ العجوز وكالة، وكان يملك أكثر من امرأة في القرية ويتباهى ويقول: "وما ملكتْ أيمانكم" ثم ضربها بعد نقارٍ حار بينهما فأسقطتْ الجنين.

ظلَّ صوت صاحبي يطن كالبعوض حولي:

- هددها بالزواج من امرأة أخرى إن ظلتْ لا تنجب بنتًا.

- بنتًا؟ (قلتُ بإعياءٍ).

- نعم إنه يحب ولد أُنثى لا ولد ذكر على عكس العالم، وهددها أنه سيتزوج عليها إن كان المولود ذكرًا، ومن ثمَّ وهي حامل بطفلها

ضربها ثم اغتصبها لمجرد أنها قالتْ وبكل عفوية: "أدعو الله في كل صلاتي أن يكون الوليد ذكرًا".

دارتْ الأرض أمامي وتراءى لي أن السقف يهبط ويرتفع فوقي وأنا أنظر ولا أرى بلا وعيٍ، أسمع طنينًا في أُذني فغدوتُ لا أسمع إلَّا أصوات غريبة: دوي، أزيز، مفرقعات، أُصبتُ بدوارٍ وجفَّ حلقي وطار اللون كليًّا من وجهي وأخذتني رجفة في يديَ وأطرافي بعد أن سمعتُ من هذا الصديق كل هذه الخفايا المروعة التي لم يَدُرْ يومًا في بالي ولا خاطري وخارج دائرة الوجود في وجودي، وتمادى صاحبي في تعذيبي بلا رحمة:
- فمنذ اللحظة التي زُوجتْ تارا قسرًا أصبحتْ مهمة فريدة الوحيدة حمايتها، ولو كانت على حساب تلقي الضربة تلو الضربة والنكسة بعد النكسة والعذاب فوق العذاب، فلقد أقسمتْ فريدة أن لا تفارقها في أحرج لحظات حياتها مهما كانت الظروف.

وضعتُ رأسي بين ركبتي وأغمضتُ عيني وطاف بي الخيال إلى الماضي إلى تارا المتشكية عندي في غرفتها: (فريدة إنها الوحيدة التي تفهمني، الوحيدة التي أبث لها شكوايَ، الوحيدة الرقيقة معي الرفيقة لي، لا تكسر خاطري أبدًا تلبي لي حاجاتي، فلو طلبتُ منها روحها وهبتْ لي إياها رباه...).
ارتفع صوت معذبي:
- فريدة هي الوحيدة التي فهمتها، الوحيدة التي وقفتْ بجانبها، نحن لم نفهمها إنها أرادتْ أن تحب كما أحب أخاها، فكانت فريدة لها

الملاذ والمنبر الحر والقاضي العادل بعد أن ظُلِمتْ في بيت أبيها وأخيها الكبير، فكانت تبث عندها حقها في المساواة في الحقوق.
صدى صوت أبي الهامس لأمي في الطارمة في اليوم الذي خرجتُ مع فريدة لأول مرة إلى الغابة ينساب إليّ خلف الباب مترافق مع رنين أقداح الشاي: "ليتها كانت ولدًا ذكرًا حبيبة لكنا في راحة وأمان".
ـ ومن ثمَّ أنتَ كذبتَ وأنكرتَ أنكَ أنتَ المخبر، وأنكرتَ أيَّة علاقة بين الرسالة التي أريتها إياها وبين ما حدث لأختكَ.

تلاحقتْ اتهامات سلمان بلا هوادة ولا رحمة، صمت سلمان وهو يتنفس بشدة وقد توسعتْ فتحتا منخريه وعلا الزبد فمه، ثم وجَّه إليّ نظرة ثاقبة حادة كالسكين وقال بصوتٍ عميق فيه رهبة:
ـ ومن تلك اللحظة انقلب حب فريدة إلى كره تجاهكَ.

قلتُ له:
ـ وكيف لا أُمانعها من زيارة تارا، وأنتَ تعلم وقلتَ بنفسكَ أنه كان يحب الأرامل والصبايا وحتى الأرامل العجائز ومن ضمنهنَّ العجوز وكالة، وكان يملك أكثر من امرأة في القرية ويتباهى ويقول: "وما ملكتْ أيمانكم" ثم ضربها...

سكت لحظة ثم عاد كالكابوس يجثم على صدري:
ـ في الحقيقة إنها أرادتْ أن تتعذب كما تعذبتْ أختكَ، وتقف بجانبها في السراء والضراء.

شعرتُ بإعياءٍ شديد ورغم حاجتي إلى النوم ونعاسي ورغبتي إلى الراحة، لكن رغبتي في معرفة الحقائق كانت أقوى من كل حاجة ورغبة، وجهتُ إليه سؤالي الهام:

- هل لي أن أعرف من أين لكَ كل هذه المعلومات، وكل هذه التفاصيل؟

قال ببساطة:

- هذا ليس من شأنكَ.

فقدتُ الصبر فوثبتُ عليه وأطبقتُ على عنقه، فدفع يدي بقوة بيدٍ كيد فلاح جبلي، قلتُ له بعد أن استرددتُ أنفاسي:

- ولماذا كل هذا؟ ألم أكن أحبها.. ألم تبادلني حبًّا بحبٍّ.. ألم نعش أجمل فترات حياتنا؟

أجاب بصوتٍ كطَرق النحاس:

- نعم، على حساب تارا الطفلة.

صمت رهيب ساد الجو، الفانوس أخذ يرتعش كمَنْ سمع هذه الأسرار الخفيّة طوال الوقت.

- إنهما معًا ينامان.

- ومعًا يستحمان.

- وستراهما مستقبلًا في نفس الملابس ونفس تسريحة الشعر.

كانت هذه الكلمات الأخيرة التي رشقها صاحبي القاسي في تلك الليلة الليلاء كسهامٍ مسمومة في وجهي، قبل أن أتوجه إلى فراشي جائعًا تائهًا خائبًا.

• • • •

(٣٤)

في الصباح بعد الفطور المتألّف من الشاي والجبن الأبيض والقيمر وخبز التنور الذي جلبته امرأة قروية، جلسنا في نفس المكان على الصخرة الضخمة وبمواجهة الوادي الصغير والسهل وسلسلة التلال الواطئة بمحاذاة الجبل الصغير، ونحن نطل على الطبيعة من على تل صغير وسط خرير السواقي وتغريدات الطيور وتحليق الفراشات الملوَّنة فوق الزهور وثغاء الخرفان والحملان، كانت غِلالة كثيفة من الغبار تتداخل بثغاء النعاج وجلاجل أجراسها وهي في طريقها إلى المراعي الخصبة، كل ذلك أضفى جوًا شاعريًا على المشهد.

كان في السماء سحاب متفرق ناصع البياض، وكان الجو لطيفًا تتخلّله نسائم ربيعية دافئة منعشة، انتعشتُ بالهواء النقي وزال تعبي ووهني بعد ليلة صعبة، وساعد الشاي الأسود في القضاء على صداعي، فعادتْ إليّ حيويتي بسرعة.

جنبًا إلى جنب هو في سرواله ومعطفه الخفيف وحذائه المصنوع من الوبر والمطاط القوي، وكنتُ أنا في بنطلوني الجينز ومعطف خفيف أقي به نفسي من برد الصباح، قال لي وقد عادتْ إليه بشاشته ومرحه، وهو يشير إلى السهل الممتد تحت سفح التلال على يميننا حيث البيوت والمباني المتراصة، ومدَّ يده يشير إلى بناية من الحجر والملاط طلي نصفه باللون الأخضر والنصف الآخر باللون الأصفر، وقال:

ـ تلك هي الدائرة التي أعمل فيها.
وأريتُ عيني تحت باطن كفي أظلِّلهما من أشعة الشمس الوهاجة وأنا أتفرج على البيوت والبناية ذات اللونين التي أشار إليها سألني:
ـ هل جذب انتباهك اللونان؟
أومأتُ بالإيجاب.
فوضح ساخرًا:
ـ هذا لكي أرضي الطرفين، الحزبين بالرغم من أنني أكرهما كليهما معًا.
قلتُ له منتقلًا إلى موضوعٍ آخر:
ـ هذا هو سر القوة والصحة هذه الطبيعة الخلَّابة النظيفة، تمنيتُ بل حلمتُ أن أقيم في مكانٍ هادئ كهذا طوال الوقت.
كان عقرب الساعة اليدوية يشير إلى العاشرة صباحًا، قلتُ لسلمان:
ـ أظنني قررتُ أن لا أعود إلى المدينة.
ابتسم ولم ينبس، كان متيقنًا أنني أمزح.
الطبيعة والجمال والهواء النقي والطيور وخرير السواقي والشلالات الصغيرة، نقلتني من جديد إلى المواضيع التي تكلَّمنا عنها الليلة العصيبة، ليلة الأسرار، وليلة الليالي، والليلة التاريخية المفعمة بالأحداث الشيِّقة والمحزنة، رغم أنني حاولتُ عدم العودة إليها إلَّا بعد أخذ قسطٍ من الراحة بالتأمل في الطبيعة وإمتاع بصري وسمعي بسحر الوجود والجو الهادئ وموسيقى الجداول والطيور، أثارتْ هذه المشاهد الخلَّابة أيام الحب والرومانسية المخنوقة، الحب المبتور المخنوق بين صديقي وأختي طغتْ على

مشاعري وأنا أستحضر الماضي بكل صوره وأشكاله المرئية والمسموعة.

تأملتُ سلمان الذي خيَّم عليه هدوء تام في تلك اللحظة، ينظر إلى بعيد بفكرٍ تاه، نبهته فانتفض كمَنْ استفاق من حلم اليقظة، فقلتُ دون أن ألتفتُ إليه:

- أخي، الشيء الذي شغل فكري طول الليلة الماضية هو الحب الذي نشأ بينكما، وظلَّلتُ أتساءل.. ما كان شكل وطبيعة هذا الحب؟ وهل كان حبًّا من طرفٍ واحد كليًّا أم....

قاطعني ووفر عليّ عناء الخوض في الحديث عن طرفه، فقال محافظًا على هدوئه التام:

- نعم تحابينا حب عذري سرعان ما نسيتها.

سكتَ يستذكر الأحداث ويبث ناظريه إلى شجرة البلوط القائمة على حافة الجدول الذي علا ماءه الزبد والرغوة البيضاء الفضية، ثم قال بنبرة أقرب إلى الأسى:

- كان حبها عنيفًا، كان هيامها وشغفها ناريًا، كان حبها حب الروح للروح كحبِّ ذلك الشاعر.. ما كان اسمه؟ هذا الذي ذكرته في جولاتنا وقرأتَ لي بعضًا من أشعاره.

أجبته على الفور:

- كان هذا الشاعر الشيخ الجزيري وحبه لسلمى، لكن هناك ثنائيات أخرى غيرهما، مثل: مهم وزين، وشيرين وفرهاد، وهناك القصة العربية الدرامية (مجنون ليلى) وكلها انتهتْ بمأساة.

تنفَس بعمقٍ وزفر الهواء بقوة، وقال:

- الحمد لله لم تنتهِ قصتنا بفاجعة بعد.

سكتَ لحظة واختطف نظرة منّي واستطرد:

- كان حبًّا عارمًا، كانت تريد أن تراني بشتى الوسائل، مجرد رؤية فقط لا شيء فوق ذلك، حبنا كان على النقيض من حبكما لا عناق ولا بوس وقُبل، زارتني مرة في المدرسة فحذرتها بشدة.

لأول مرة يضيف سلمان نون المثنى إلى الحب (حبنا) فزاد شوقي ورغبتي في استطلاع المزيد وأثار تصريحه نوعًا من مخاوفي رغمًا عنّي:

- قُلْ بصراحة كفاكَ إخفاء وتمويه، هل بادلتها حبًّا بحبٍّ؟.

نفخ الهواء بفيِّه ببطءٍ، وقال:

- والحقيقة تقال وكما قلتُ لكَ لم يكن حبًّا حقيقيًا، لا اتمكن من وصفه وصفًا دقيقًا، أنتَ أخوها وأنا متحفظ من أن أبوح بكل شيءٍ لكن كل ما أعرفه وأستطيع قوله بثقة وأنتَ كأخي، هو أنها أصابتْ قلبي بعينيها وشعرها المسترسل الطويل الجميل المتدلي على ظهرها، ثم بعد التحذيرات وبعد أن رأيتها بالحجاب وتخفي أجمل شيء منها مات هذا الحب الفتي بسهولة وبسرعة، لكن بقيتْ جمراتها متأهبة للتوقد تحت الرماد رغم خمودها، وبمرور الزمن وخاصةً بعد العيش لوحدي في الصيف وجو القرية الشاعري الرومانسي شعرتُ بنوعٍ غريب من الحب الصافي السماوي الروحي يتسرب رويدًا رويدًا إلى قلبي، شوق وارتباط قلبي روحي يجذبني ويربطني بها فظلَّلتُ أفكِّر فيها، حب شعراء الغزل العذري

الذين أسمعتني بعضًا من أشعارهم في جولاتنا في الشارع العريض.

في لحظةٍ ما مدَّ يده إلى جيب معطفه الذي كان بلون سرواله أخرج منه مظروفًا فتحه، وقال لي بعد أن أخرج دفترًا صغيرًا منه وأشار إلى ما تبقى في داخل المظروف الملقى بجانبه على الصخرة العريضة، وقال:

- إنها قصاصات ورق، كانت تلفها وتعقجها (تكورها) على هيئة كرة وتضع دائمًا حصوة في داخلها إن ألقتها من فوق السطح.

اهتزتْ مشاعري للمشهد وكان توقي إلى المحتوى أشد، قرأ من الدفتر الصغير باهت اللون أولًا:

- إلى حبيبتي وروحي وحياتي فريدة العزيزة الصديقة الوفيَّة، أكتب إليكِ موضوعًا إنشائيًا جديدًا بعنوان الأمل: يا حبيبي في عتمة الليل أجلس وحدي أُفكِّر فيكَ في أمل لقياكَ، العالمِ حولي مظلم كئيب أنتَ ضيائي وأنتَ نوري وأنتَ سراجي وقنديلي وإشراقتي.

الأمل يخفف الألم، الأمل لولاه عليّ كنتُ في حبكَ ضحية أتعرف.. لمَنْ هذه الأغنية؟ لو شاء القدر والتقينا فقلْ لي الجواب، لا تيأس يا حبيبي ولا تقطع الأمل....

صديقتكِ العائشة بالأمل.

وقرأ لي المادة الثانية والثالثة وكلها بنفس الاستهلال وتحت مواضيع مختلفة.

ـ وكما قلتُ لكَ رغم يقينها أنها لا تقع إلَّا في يدي كانت تتحفظ وتحذر جدًا، تكتب معنونة إليها وكثيرًا ما كتبتْ على شكل موضوع إنشائي.

لم يدم انتظاري فقلب الصفحة وأخذ يقرأ بعض المقتطفات:

*الورق وجهكِ القلمِ قلبي أُقبِّلها ليل نهار؛ لأن القلم يسطر اسمكِ.

*أشم فريدة؛ لأنها تنبعث منها رائحتكَ.

*التقرب من الأخ مستحيل، والتقرب من الأخت ممكن، أريد هذا الممكن لأنه يقرب ذلك البعيد.

*فريدة يُسمح لها بالخروج معكَ يا أخي، أما أنا فلا أستطيع أن أطير معكَ يا حبيبي، هي طائر القبج وأنا طائر الدجاج لا جناح ولا ريش، نعامة لم يبقَ لي سوى أن أغمر رأسي في التراب.

رفع سلمان وجهه المحتقن من الدفتر وحدقني بنظرة ذات مغزى:

* أواه من هذا الأخ المسكين الذي سخره الله لخدمة أبيه، هل فضَّل الله الذكر على الأنثى؟ هل هذا هو دين أبي؟ هذا أسير تقاليد باليةَ! وهذا أسر عقدة الأخ الأكبر! رغم ذلك أحبه من كل قلبي لأنه أخي من لحمي ودمي وحبيب حبي فريدة.

نازعتني نزعة حادة للبكاء، بينما واصل صاحبي بصوتٍ أشبه بترنيمة قس على ضريح كافر:

*فسسجني الذي اسمه غرفة، أرى نورًا خافتًا هذا النور اسمكَ فلولاكَ لانطفأ النور.

*أنظر في عيني فريدة، فأرى فيهما عينيكَ الخُضر وشعرها فأرى شعركَ يا حبيبي.

نظر إليّ سلمان جنبًا، وقال:
- ها ترى أن تارا شاعرة مرهفة الحس جدًا، شاعرة خفيَّة مغمورة.

تنهد صاحبي، ثم قال:
- كتبتْ لي مرة: لولا خشيَّة الله لرميتُ نفسي في البحر.

ثم فجأة تبدَّلتْ سحنة سلمان من انقباضٍ إلى انبساطٍ، فضحك بوجهه رغم الأسى في قلبه:
- تصوَّر أنها كتبتْ موضوعًا تحتَ عنوان "الساطور الأحمر".

التقط المظروف من على الصخرة ودسَّ يده فيه وأخرج القصاصات المعقوجة (معطوبة)، أراني واحدة منها فلاح لي نفس الخط الرديء، ثم أخذ يبحث عن ورقة معينة فوجدها وطلب منّي الإنصات، ثم قرأ بصوتٍ عالٍ:

الساطور الأحمر

(كنتُ أخاف من ساطور أمي يوم ذُبِحَتْ به الدجاجة الشقراء، أما اليوم فأنا أخافه أكثر من ذلك اليوم؛ لأن أحدًا أراد ذبحي به وذلك لاقترافي جريمة (مخلة بالشرف) وهي مشاهدة فيلم مع جارتي).

بادرني سلمان بالسؤال باهتمام:
- ما قصة الساطور؟ ومتى كان ذلك؟

لم يخفَ عنّي ارتعاش منخريه لحظة جاء الذكر على الدجاجة، فقد لحظني بطرف عينه وقد احمرتْ خدوده، ودفعًا للإحراج لم أنظر إلى وجهه وأخذتُ أشرح له قصة الساطور الذي هدد أبي تارا به:
- عادتْ من السينما أيام الدراسة المتوسطة في تلك الأيام التي شهدتْ عشقها المبتور، فغضب أبي كثيرًا ولوَّح لها بالساطور مهددًا ومتوعدًا إياها من تكرار الفعلة.

بحث صاحبي عن قصاصة أخرى فوجدها وأخذ يقرأ، بعدما تلا هذه القصاصات أعادها إلى المظروف وإلى جيبه بهدوء، ثم اعتدل في جِلسته حينها نظرتُ إليه فرأيته يبتسم، وقال وهو يبتسم كمَنْ كان يبتسم في أيامنا (الهيكل الجيكلية) فأسعدني جدًا بهذه الابتسامة ولكن رغم السعادة العابرة غرقتُ في بكاءٍ صامت، فجأة توقف عن الابتسامة وأخذ يربتُ على كتفي بقوة:
- يا شقي.. أأنا بيّ نوع من المس والجنون؟ أأنتَ حقًّا قلتُ هذا لأختكَ؟.

جفلتُ من هذا التحوُّل الفجائي لصاحبي رغم أنني قد اعتدته منه، ولكن دهشتي كانت أكبر لشيءٍ آخر فحدقتُ في وجهه الذي لفحته الشمس، ووجدتني أسأله للمرة العشرين:
- أكاد أتجنن، إنكَ تعرف أدق التفاصيل وكل الأخبار في غيابكَ، فأسألكَ مرة أخرى.. من أين لكَ هذا؟.

تجاهل سؤالي وربتني بقوة أكثر على كتفي، يستجوبني موجهًا لي نفس السؤال وبنبرة إلى المزاح أقرب:

- أأنا مجنون يا مجنون؟ أأنا بي مس ومسحور؟ أهذا ما قلتَه لأختكَ عنِّي؟ يا واشي يا مفترِي!.

تجاهلتُ سؤاله وأعدتُ بدلًا توجيه سؤالي المحير:

- يا صاحبي.. ألّا أجبتني من أين لكَ كل هذه المعلومات؟

- سترى بنفسك.

• • • •

في تلك الأثناء كان هناك أصوات وقْع أقدام خفيفة من جهة اليمين تقترب منا، التفتنا على عجل إلى مصدر الأصوات فإذا بامرأتين شابتين كلتاهما في سواد، كانتا ترتديان ثوبًا قصيرًا يكشف عن ذراعيهما وساقيهما الناصعتين إلى الركبة، نهضنا قائمين نقف أمام وجهين مألوفين استثارا فيّ ذكريات غامضة، ضيقتُ عيني وتبادلتُ مع صاحبي نظرات حائرة، لكن لم يبدُ على وجه صاحبي أي أثرٍ للدهش أو الحيرة، أمعنتُ النظر فيهما وقد تملكني الذهول واعترتني الدهشة، وهما يقفان في منتصف الطريق الترابي بين الطريق العام والبيت كتفًا لكتف بوجهين خاليين من أي أثرٍ أو عواطف، كانت إحداهما أطول وأضخم من الأخرى، كلاهما كانتا تضعان قبعة كالأجانب بنفس اللون البني، وكلتاهما كانتا ترنوان إلينا بعيون نفاذة حانقة تحت أسلاك قصَّتهما الحريرية وفي صمت، تتدلى فوق صدر كل واحدة منهما قلادة، ضاق التنفس وانبهرتْ الأنفاس، ورويدًا رويدًا توضحتْ ملامح الصورة، وكلما توضحتْ

أكثر ارتفع صوت دقات قلبي أكثر وتسارعتْ أنفاسي، أخذتُ في لحظةٍ ما أفركُ عيني بكلتا يدي وأغمغم مع نفسي:

- لا.. لا.. لا يعقل أبدًا إنهما بلحمهما ودمهما.

أملتُ راسي إلى صاحبي الذي ظل هادئًا مسيطرًا على نفسه تمامًا أسأله في همسٍ:

- أنا أعرف إحداهما واثق من هويتها تمامًا لكن الأخرى لا تزال مصدر شك، فهل هي هي حقًّا؟.

مشيرًا إلى ذات الشعر الفاحم المختفي نصفه تحت قبعتها الكبيرة التي لمعتْ على ناظريها، وشفتيها الطريتين البضتين ابتسامة هادئة لكن غامضة.

في لحظةٍ ما ثبتتْ هذه عينيها الواسعتين الخمريتين على عينيّ سلمان الذي بدا كالتمثال الحجري واقفًا بلا حِراك يحدق في ترقب وحذر في نفس العينين اللتين كانتا تنبشان وجهه المتورد، ومن ثمَّ وبدون أي توقُّع مدتْ يدها إلى القبعة أمسكتْ بها ثم ألقتها على الأرض فبان شعرها الفاحم الحريري يتدلى فوق ظهرها تتطاير شعراتها في نسيم الصباح، وعندها لم أملك إلَّا أن أصرخ بملء فمي:

- تارا؟

- فريدة؟

• • • •

(٣٥)

لحظات مرتْ كدهور، عيون تتناقل ثم تحملق بوجوم، صور تتحرك أمامِ عيني لا أجساد مجسمة ولا مرئيات، وتداخلتْ الحواس: رسائل مريبة، قصاصات معيبة، سماق حامض، الحب المهجور و تمثال أمامي، أكنت طوال الوقت في وهم؟ كلمات أمي قبل سفرتي وهي تترنم بترتيلة قديس في صومعة الصعاليك:

ـ فريدة تحبكَ وتارا تحب سلمان، كم أحبهما، كنتُ أرغب في أن يكون سلمان هو زوج ابنتي.

السؤال.. هل عَلِمتْ بهذا اللقاء؟ هل خططتْ له؟ ربما طلعتها تارا برغبتها، لا يهم هذا في هذا الوقت العصيب.

أنا وصاحبي وجهًا لوجه مع فريدة وتارا، وهما تقفان يدًا بيد كما كانتا تفعلان في الشارع، وكما كانت تفعلان في داخل منصة الانتظار للباص، وكما في الصورة وكما في كل مكان.

تارا تنظر بخجلٍ رغم تظاهرها بعدم الاكتراث لنظراتي، لأول مرة تقف حاسرة الرأس أمام الغرباء وأنا موجود، ولأول مرة تدلتْ القلادة التي أهداها لها سلمان في زيارته إلينا كاملة على صدرها مع القلب، كانت تخفي القلب تحت قميصها عادة.

وعادتْ الصور إلى ذاكرتي.. سلمان يوم الزيارة وقصة القلادة الهدية:

(اقرئي النقوش على الخرزة الأولى العريضة التي تتوسط الخيط من فوق).

قال سلمان لتارا، احمر وجهها، وأحنتْ رأسها تنظر إلى الواجهة العريضة للقلادة المتدلية من خيطٍ أزرق متين، والخرزات متعددة الألوان والرسومِ المتراصة رصًا أنيقًا، وقرأتْ بخجلٍ شديد وصوتٍ هامس: تارا فريدة.

إنهما توْءَمان وقد جلبتُ أختها التوْءَم لفريدة، فقد كلفتُ صانعة ماهرة بصنع مثيلًا مطابقًا لها، ففعلتْ نزولًا على رغبتي... صديقات العمر إنهما قلب واحد جسد واحد، وخرزة واحدة)

أفقتُ من تأملي، وأدركتُ أني نسيتُ فريدة بسبب تارا، وبتُ أنظر إلى أختي، لم أكن رأيتها منذ وفاة والدي ولدقائق عدة، وقد تغيَّرتْ كثيرًا خلال هذه الفترة، كان شعرها يخالطه بياض، فهل عاد إليها شبابها بموت جلادها؟ أراها ترنو إلى سلمان بحذرٍ وعدم يقين وتتجاهل نظراتي المتفحصة كمَنْ يريد إتاحة الفرصة لي أن أنظر وأرى بكل حرية، تارا ذات الرداء الأصفر والوجه الشاحب صارتْ سيدة كاملة ناضجة كأمي وكأم سلمان، وتتمتع بكل وسائل الفتنة والإغراء، ولا زال الشيء الملفت للنظر وجنتاها: الإجاصة المدورة البيضاوية المرتفعة، أين هذا الوجه وهذا البدن من ذلك الوجه والبدن؟ وهاتين الشفتين الطريتين الممتلأتين من تلك الشفتين الرقيقتين المتداخلتين من الرقة والتيبس وأكل السُمَّاق والتحسُّر على ذاك الزمان الجدب، حيث كانت طوال الوقت مستندة ظهرها إلى مسند سريرٍ حديدي تكتب وتكتب ولا تتعب ولاتكل يدها ولا تمل،

ولم تكن يوم زارتنا في يوم احتضار أبي بأحسن حالٍ من حالها في تلك الأيام، هل سعدتْ بموت زوجها أم لبزوغ الأمل بنهاية مفرحة بعد البداية التراجيدية؟ هذا هو الحب، حبها صحيح نقي خالص صافي حلال كحليب الأم، لا أعتقد أنها قطعتْ كل هذه المسافة لتأتي وترى وجهي القبيح، لم تأتِ لتراني ولا لتنتقم منّي ولا لتلومني ولا لتصرخ في وجهي: أنتَ حطمتَ حياتي، أنتَ أذبلتَ زهرة شبابي من أجل غاية في نفسكَ، نفس أنانية إيثارية محضة، لم ترني وجهها وقامتها وطولها والحذاء العالي؛ كي تشكو أو تبث بشكواها لسلمان الوحيد الذي بقي يذكرها رغم عزلته ويدافع عنها، والذي كان على عِلم بأتراحها وبالتفصيل كما أثبتتْ التفاصيل التي أسمعني إياها ليلة أمس، وليثبت بذلك أنه لم يتخلَ عنها لحظة رغم القهر والخوف والبعاد، لم أتورع ولم أتردد في النظر إلى ساقيها، ساقيها لم أرَهما إلّا مرة واحدة عندما كانت تخبز مع أمي في غرفة التخبيز، فسارعتْ بتغطيتهما بهلعٍ كمَنْ أتت إفكًا وإثمًا، وكنتُ لها أخًا، ووسط كل هذه اللُّجة لاح لي منظر ملا نور أمامي بضحكته الحلوة وكلامه المعسول وضحكته وكلامه المسجوع: "أنا ملا نور، أنا ملا نور، ولا أظن أنكَ لا تعرفني، أنا نور، افتقدناكَ في المسجد المعمور، لم أرَكَ بعد ذلك اليوم المشهور، نشتاق إليكَ فوجودكَ معنا كله سرور".

ـ لقمان!

استفقتُ على مناداة صوت صاحبي، لم أكترث لندائه وعدتُ إلى عالمي، لم أرغب في قطع الفيلم الذي بدأتْ لقطاته الواحدة تلو الأخرى تتحرك أمامي، ملا نور الدين يحب الجنس العنيف ما

يسمى باللغة الجنسية (اكستريم) وتارا حمل وديع، فراشة في بياض ثوب العرس، طفلة بريئة يصرخ بها زوجها وفي يده عصا غليظة: تعالِ يا بنت الحرام، تارا تتراجع تسحب نفسها إلى الوراء مذعورة، وهو يتقرب أكثر ويجلس على حافة السرير: تعالِ فلن آكلكِ، تتراجع أكثر حتى يصطدم رأسها بمسند السرير، وينقضُّ عليها نور الدين كـ (الفامبير) ويمزق فستانها ويغرس أنيابه في عنقها الرخامي ويشرب دمها وتنزف تارا ويضحك ملا نور الدين، وتبكي تارا ويضحك ملا نورالدين، وتتأوه تارا ويرقص ملا نور بالانتصار في معركة الفراش، وتتقيأ تارا ويتجشأ ملا نورالدين، وفي الصباح يرتدي ملا نور أجمل حلَّته ويغادر إلى الجامع وغرفة العيادة الربانية ومنها إلى الشوارع يلتقط ويبحث عن صيدٍ للكلام والغمزات مع الصبايا والأرامل، كانت تارا صبية وكذلك كانت صفية اليهودية صبية اتخذها رهينة، أمة، وكانت ماجدة المسيحية صبية، وكانت حسيبة ابنة إبراهيم القصَّاب أرملة استشهد زوجها في معركة مدفوعًا من قِبل ملا نور، وكان من مريديه والمعجبين بخطبه، وكانت نهال التركمانية صبية، وكانت عاشرة بنت المعلِّم ولي طفلة وكانت فريدة.. اختنقتْ الكلمة في حلقي.
تحوَّل صوتي إلى صراخٍ وأنا أعدو وأصرخ بملء حنجرتي:
- فرييييدا!!!!!.
اليدان اللتان وضعتا على كتفي، كانتا يد سلمان من طرف ويد فريدة من الطرف الآخر، غشيتْ عيني غشاوة فصرتُ لا أرى، وعدتُ أصرخ هذه المرة دون وعيٍ منِّي:
- تارا فريدة إنكما تعذبتما بسببي.

قرَّبتْ فريدة فمها من أذني وهمستْ في أذني وحرارة أنفاسها تلهب كبدي:

- لا تقل هذا حبيبي فأنا عذبتكَ أكثر.

هل تساوينا؟ ربما، وهل تساوينا أنا وأختي؟ أبدًا أبدًا، أخ.. فريدة كم كنتِ قاسية!.

وتبدَّلتْ المشاهد والمواقف بسرعة، تارا تقف لوحدها وسلمان يقف لوحده وجهًا لوجه، تارا تتجاهلني فلها الأمر ولها الكلمة الأخيرة إنها السيدة، وماذا ينتظر سلمان؟ لم يفارقه خجله لحظة، كانت وجنتاه كجمرتين متقدتين، بدا مرتبكًا مترددًا مترقبًا وفي نفس الوقت متحفزًا للخطوة التالية.

وبالنقيض حافظتْ تارا على هدوئها، فأثارتْ في نفسي تساؤلاتٍ عديدة، في تلك اللحظة تيقنتُ أنني أرى تارا بشكلٍ ومضمون آخر، المعاناة كالشمس الحارقة تبدِّل لون البشرة كما المعاناة تقلِّب طباع البشر وتشحذها.

تارا الصامتة نطقتْ قبل أن يتمكن الحبيب الخفي سلمان أن يفتح فمه، تارا الأرملة الغنية بجسدها ولحمها وعظمها ودمها أمام حبيبها الهارب والسبب أخوها الأناني.

هل أصرخ بوجهها إنه ليس بالرجل المناسب؟ هل أملأ العالم بصيحتي.. إن اسمه ليس بسلمان وإنما هو (خلاص وتوبة)؟ هل أهتف بملء حنجرتي.. تارا إن هذا الرجل أمامكِ متقلب المزاج؟

لا يصح ولا يحق لي ذلك، وهو الآن رجل مناسب: موظف ومعاش ومسكن، وشاب قوي صحيح البنية مرح، وقد عانى هو كذلك

كثيرًا، وحتى إن لم يكن الرجل المناسب، فهل هناك قوة تستطيع أن تمنعها أو تنهرها وتقف بينها وبين ما تريد؟
فماذا سيحدث إن قلتُ: لا؟
فتقول بالمقابل: لا
وهل لي سلطان أن أقول: لا للمرة الثانية؟
إنها ليستْ ابنة ولا أختًا هذا اليوم، أبي ذهب بلا عودة ولا أخ؛ لأنها الآن خارج دائرة الزمان والمكان وتحت الغطاء الثلاثي والحراس الثلاثة: قوية، أرملة، غنيّة.
ما لي سوى المثول أمامها وأطلب العفو من الأميرة، ثم أُطلق ساقاي للريح وأختفي من حياتها كليًا.
سألتُ نفسي وأنا أراقب فريدة تتهامس مع تارا في كلامٍ طويل وبحركات يد منفعلة، وسلمان المتحجر المتسمر في مكانه، أتأمل جسدها البض وعنقها العاجي وذراعها اللدن اللحيم وقامتها وأردافها المليئة وشفاهها المليئة وعينيها الخُضر تلمعان تحت أشعة الشمس الساطعة ومعصميها وأساورها المحيطه بهما وصدرها الذي لم يوارَ القميص سوى النهدين منه، ولم يستطع قميصها الرصاصي الغامق المتدلي فوق فستانها الأسود أن يخفي جمالها ومنظرها الملفت للنظر، والسواد أبرز بياض جسدها أكثر.
غرقتُ في تفكيرٍ طويل، استفقتُ من أفكاري المتلاطمة على صوت صاحبي الذي كان يقول وبنية صافية وبوضوح:
- لقمان، هيا.. ماذا تنتظر؟ فلا يمكن الانتظار هكذا، قل شيئًا.
حوَّلتُ نظري إلى تارا ففهم سلمان الإشارة، فالتفتَ إلى أختي يخاطبها بصوتٍ رخيم ولين:

- أخوكِ في انتظار الصفح والمسامحة، فكلنا تعذبنا وكلنا تعلَّمنا من أخطائنا.

انفتقتْ شفتا تارا في انفراجٍ طفيف، وهي تنقل عينيها الواسعتين بين فريدة وأخيها عدة مرات، ثم استقرتْ على عينيّ فجاءني صوتها عبر الأثير، وهي طفلة وهي عذراء وهي غير مغتصبة غير مجهضة:

- أحسدكَ لقمان على هذه الشقراء الحسناء التي تحبكَ وتضمكَ.

قالتْ وهي تجلس في غرفتها وسط موادها التي اشترتها معًا في السوق.. علب مختلفة الأحجام والألوان، أقلام زاهية، أوراق ملوَّنة مزركشة، أدوات لم أستطع تسميتها كانت منتشرة على الأرض حولها، كانت تشم رائحتها، كم كانت تحب أدواتها المدرسية ودفاترها الجديدة وكتبها، وكم كانت تضمها إلى صدرها وتنتشي برائحتها!.

وتحركتْ تارا، رأيتُ بطرف عيني فريدة تغمز لها، من نظراتهما التي أسكنتا روعي أدركتُ أنهما كانتا قد أعدتا العدة لتلك اللحظة، ابتداءً من نظراتهما الحانقة الغاضبة وصمتهما الرهيب، لم يندهش صاحبي لوجودهما كثيرًا كمَنْ كان على دراية، هل كان السيد هادي أعدَّ العدة لمثل هذا اللقاء؟ تارا خطتْ خطوة إلى الأمام وأنا خطوتين، تارا خطتْ خطوتين وخطوتُ أنا ثلاثة، وتمَّ الالتحام وسكب الدموع، دموع سموم السنين المتراكمة على كتف بعضنا البعض، هل هناك شيء أحلى من غسل الذنوب بالدموع؟ وهل هناك حب أصدق من حبٍّ ممزوج بالدموع؟ وهل هناك إخماد نار الحريق في القلوب العطشى إلى اللقاء بعد البعاد أجدى من الإطفاء

بالدموع؟ فالدموع هذه أصدق تعبير عن الصفح وعن الحب وعن الوفاء للمحبة وإعادة رتق ما فتق بين القلوب، بكيتُ على كتفها وبكتْ على كتفي، ما أزكى رائحة أختي.

- أختي.

همستُ في اذنها.

- في النهار الذي اختطفكِ الذئب، رأيتكِ من فرجة الشباك تلتفتين التفاتة أخيرة ناحية البيت الذي عشتِ فيه أسعد أيامك وأتعسها، كنتِ تغرزين يديكِ الصغيرتين المغلقتين بالبياض في عينيكِ كأنكِ كنتِ تريدين اقتلاعهما من محجريكِ، اختطفكِ الدجال، وأنا كنتُ في الحقيقة الخاطف.

شدتني إليها لا تريد منّي فكاكًا وهمستْ في أذني:

- دعكَ من هذا، لقد مضى زمن بعيد، الحمد لله على كل شيء.

- يقال الزجاجة المكسورة لا يعاد سبكها.

قلتُ لها متمتمًا، همستْ في أذني بالمقابل:

- زجاجي غير قابل للكسر أخي.

- إنكِ أنتِ المرأة الحديدية.

- وأنتَ أثبتَ رجاحة عقلكَ بمجيئكَ إلى هنا، أنا فخورة بكَ.

- وأنا كذلك.

ورفعتُ رأسي من صدرها النابض المبلّل بدموعي الغزيرة، دموع غسل القلب والنفس من قاذورات الماضي وكأني أتنبه لأول مرة إلى ذلك، حدقتُ في شعرها الفاحم الحاسر وملتُ إليها وهمستُ لها:

- منذ متى تركتِ الحجاب؟

حدقتْ بعينيها الرطبتين الواسعتين الخمريتين بعمق في عيني، وقالتْ بصوتٍ كالصوت الصادر من مذبوح:
ـ منذ أن اغتصبني..

ارتعشتْ أساريري واهتزتْ كل جارحة من جوارحي، زوج يغتصب زوجته! لأول مرة أسمع بهذا.
ـ والصلاة؟ (سألتها بفضولٍ واستطلاع).
ـ الصلاة لا مناص منها، فهو دين آبائي وأجدادي.

على جبينها الناصع وحاجبيها المدججين أمارات تحدٍ، ثورة، تمرد لم تشأ أن تفصح عنها، وإلَّا كيف سافرتْ كل هذه المسافة الطويلة سافرة بسيقان عارية بين كل هذه العيون الشرهة؟ يقال إن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه، لكنني أرى الآن على وجه تارا وتقطبها وشموخها وبريق عيونها وحركاتها العفوية الانفعالية الخاطفة لا رد فعل واحد فحسب بل ردود أفعال متعددة وبأضعاف قوة الفعل، إنها طليقة هذا هو الأهم، مضتْ دقائق على هذا الحال سحبتْ تارا نفسها رويدًا رويدًا بتؤدة وحنان من ذراعي وانفصل صدرها عن صدري، والتفتتْ حينها إلى فريدة تقول لها وتشير إلى الموضع الذي انزاحت عنه للتو:
ـ هنا، تركتُ لكِ الفراغ.

وتفرغت هي لصديقي.

أختان وأخوان وجهًا لوجه على حافة وادي، أربعة رؤوس تواجه البيت الأبيض، وأربعة تواجه التلال المجاورة ولكن العيون تواجه العيون، عينا فريدة على عيني وعينا تارا على سلمان الذي ظل

ينقل النظر بيني وبين تارا التي كانت تقف منتصبة متحدية حاسرة الرأس، فهمتُ من نظراته أنه ينتظر حركة منِّي، إيذانًا، ضوء أخضر، إنه الكرم بعينه ما قامتْ به، إنها أبدتْ ضعفًا في موقف القوة، وهذه هي الشجاعة بعينها والطيبة والاحترام، فلم أتردد فرفعتُ يدي أُشير جهة صاحبي مخاطبًا تارا:
- إنه حبيبكِ، وإنه لخير حبيب، هو صديقي وأخي، ونعم الصديق، أُبارك لكما هذا اللقاء المقدس.

تنفستْ تارا، عيون فريدة تنهشني، تقدَّمتْ فريدة ببطءٍ شديد وتبعتها تارا، الرجال لم يتقدموا لبثوا في حالة الانتظار، في نفوس رجال ونساء الشرق هناك دائمًا شيء اسمه: الخوف من مغبة المبادرة وإن كان الطريق آمنًا.

فريدة على بعد ثلاثة أمتار وتارا على أربعة، آنستُ رعشة في يدي أختي تضاهي تلك التي ضبطتها تلك الظهيرة متلبسة بجريمة كتابة رسالة للصديق، سلمان انقلب إلى صنم تمامًا فاغر فاهه جاحظ العينين، حسبته يلفظ أنفاسه الأخيرة من هول هذا المشهد الخيالي، الحلم التاريخي: تارا تأتي إليه على قدميها، تارا التي حُبستْ في قفص العفاف والشرف وكُبلتْ بأغلال (عيب،عيب) تقف الآن وجهًا لوجه مع سلمان المتحجر، تتلفتْ إلى فريدة التي تؤشر لها أنها ساعة الصفر.

ولم تمر لحظة إلَّا وفريدة تفتح ذراعيها كجناحي الطائر وتهبُّ نحوي كالريح الصرصر تسبقها رائحتها المعروفة لي، شعرتُ أن السماء تبتسم وأن الأرض سوف تبتلع كل هموم البشر في تلك

اللحظة، شعرتُ أن كسر الزجاج لا يستحيل رتقه، عَلِمتُ أن الحياة لا في الفرح لكن في الصفاء بعد الشقاء، لا طعم للعسل إلَّا بعد مذاق السم، ارتمتْ بكل عنفوانها ونشاطها وساعديها القويتَين البضتين بين ذراعي المفتوحتين، هل تحقق الحلم؟ أأنا في يقظة؟ أعاد الطائر إلى عشه؟ طارتْ منِّي ثم عادتْ وهبطتْ علي، هي الآن بين ذراعي تقبِّل عنقي من تحت شعري ولا أحد يرى، إنها الآن تعض لحمة عنقي مثل الفارة، فريدة، إن لم أعرفها أنا.. فمَنْ يعرفها إذًا؟ هي عضاتها هي، إنها تحترق بين ساعدي تتأوه وتذوب، رغم الخدر الذي أصاب رأسي وجدتني أهمس في أذنيها:

ـ لا تنسي، أخوكِ هنا.

ابتعدتْ عنِّي قليلًا وأدارتْ رأسها إلى أخيها، وقالتْ له بلهجة آمرة:

ـ هيا يا متردد يا جبان.. ماذا تنتظر؟.

ثم أعادتْ رأسها إلى صدري، ملتُ بوجهي إلى أذنها وقرطها المتدلي منها وهمست فيها:

ـ أحبكِ.

هي زفرتْ في صدري:

ـ أحبكَ.

التفتُ جانبًا فلم أجد أثرًا لسلمان وتارا، وأدرتُ عنقي إلى الوراء وألقيتُ نظرة خاطفة، كنتُ أود أن أعرف كيف تسير الأمور معهما؟ جرتُ.. أين ذهبا؟ وفريدة بدورها رفعتْ رأسها وجالتْ بنظرها هنا وهناك بحثًا عنهما.

بعد دقيقة وصل إلى مسمعنا صوت ضحكات متقطعة، وأخيرًا وجدناهما يمشيان وهما يتأبطان ساعد بعضهما البعض، كدتُ أحلف أن هذه المشية ليستْ جديدة، كان لون صاحبي كلون الطماطم، ارتاحتْ حبيبتي لمَّا رأتْ من وفاق بين الطرفين الآخرين كما ارتحتُ أنا، فشدتني إليها أكثر وعصرتها بقوة بين ذراعي.

الشفتان إن التقتا بعضها ببعض مرة، تعتادان على بعضهما البعض وتتوقان إلى بعضهما البعض مهما طال الزمن، ويسهل عليهما الحكم على أصالة العاطفة، نعم قُبلات فريدة الآن كانت لها نفس الطراوة والقوة واللون والعاطفة والحرارة والصدق، والأهم الاشتياق والرغبة العارمة، همستُ في اذنها:

ـ اغفري لي حبي.

ـ انتَ عمري.

ـ هل ذقتِ السمّاق؟

ـ لا سمّاق بعد اليوم، اليوم القبل هي البدائل.

ضحكتْ بحلاوة الزهور على حافة الساقية، بزاوية عيني نظرتُ إلى الزوجين الآخرين اللذين كانا يسيران على الطريق الترابي المحشو بالحجارة الصغيرة: ساعدا تارا وسلمان متشابكان على عنقيهما، لاحظتُ تطابقًا غريبًا في طول قامتيهما، فوجدتُ نفسي فجأة أثب على مرتفع أهتف لتارا:

ـ كنتُ دائمًا صادقة مستقيمة وفيَّة مخلصة عاقلة ومؤدبة، اغفري لي أختي الصغيرة.

نادتْ لي بعد أن استدارتْ نصف استدارة، وفي صوتها تهدج:

- لقمان، أنتَ أحسن أخ وليس لي سواكَ من أخ، أنتَ أخي أخي أخي، وأحبكَ جدًا جدًا.

واحمر وجهها من الخجل والحب والتأثر، وبعد أن أعادتْ ساعدها لتحيط به رقبة سلمان، أعدتُ رأسي إلى صدر حبي النابض فريدة.

• • • •

المؤلف في سطور

- فرياد ابراهيم رسول
- كاتب وروائي ومترجم عراقي مقيم في هولندة.
- خريج قسم اللغة الإنكليزية - جامعة بغداد، في منتصف السبعينات.
- يجيد خمس لغات: العربية، الكوردية، الإنكليزية، الهولندية والفارسية.
- كتب وترجم مئات النصوص بين اللغات الخمس، ولا يزال.

- صدر له:

- Hallo op de fiets : رواية بالهولندية.
- De advocaat, de hond en de vreemdeling : رواية بالهولندية.
- السُمَّاق : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- له قيد النشر عدة روايات باللغات العربية والهولندية والإنكليزية.

- البريد الإلكتروني: high1950@gmail.com



كانت مستلقية على سريرها في ردائها الأصفر الطويل، لفتَ شعرها بغلالة بيضاء تمتد إلى منتصف صدرها، الدموع المتجففة لا يزال لها أثر تحت وجنتيها، تمسك بيديها مجلتها المفضلة، تتظاهر بالقراءة، ولم تكن تقرأ بل تفكّر، وتحت المنضدة الصغيرة صحن السُمّاق مملوء إلى نصفه، قرآنها الصغير معلق في كيسه الأخضر من الحرير الناعمِ فوق رأسها، كان هناك خزان ملابس ذو ثلاثة أبوابٍ مصنوع من شجر الصاج منتصبٌ في الركن الكائن خلف الباب... مسحتْ دموعها بكُم ردائها وهي تلحظ دخولي وجلوسي على الطرف الأقصى من السرير في صمتٍ وحزنٍ بالغين، كانت ممتقعة الوجه، فقد زادتْ شحوبًا على شحوب ونحولاً على نحول، آنست على مسحتها تساؤلات وعلامات تعجب عدة من باب: لماذا؟! وكيف؟! فذاب قلبي لها.. شعور جامح انتابني ونزعة غامضة حثتني لأن أهجم على أبي، لكنني استطعت أن أكبح انفعالاتي وأسيطر على أعصابي، فسألتها دون أن أنظر إليها وبكل لطفٍ ورقة:

- سمعتُ أنكِ شاهدتِ الفيلم.. أليس كذلك؟.

أومأتْ برأسها في صمتٍ.

- تارا، الأمر الذي يدهشني أنني لم أسمع منكِ يومًا أنكِ تحبين السينما هكذا، وبهذه الشدة، بحيث تورعتِ وتحديتِ إرادة أبي.

تنهدتْ ثم ألقت بالمجلة على الأرض، وأدارت بوجهها إلى الحائط... وقفتُ بجانب السرير وقلتُ برصانة المسؤول:

- اسمعي تارا، لقد قُبض عليكِ بالجرم المشهود، و.....



ISBN 9789774931956